

موسوعة الأديان

بيروت ـ لبنان
١٩٨٩
الطبعة الأولى

الناشر : دار الإختصاص للنشر ش. م. ل

الدكتور سامي أبو شقرا

موسوعة الأديان

الجزء الأول

دار الاختصاص للنشر

الإهداء

إلى روح أخي ، أين هي .. ؟

أقدم هذه الصفحات

تقطفها على العمر

زفرتي ودمعتي

محمد

مقدمة

قبلَ أن يتساءل القارىء الكريم عن دافع اختياري بشوقٍ الغوص في عُباب هذا الموضوع المكثَّف ، وعملي على تداني اغواره ، وتعانق لآلئه بمرجانه واصدافه ، وكشف ما أمكن من كنوز باطنه ، ومشقة العمل المنهجي على اسرار استمرارية تداني وتآخي هذا الباطن المطمور ، رغم إغراقه في واحات من الدم حيناً ، وتكفيره ونبذه من المجتمعات المبهرجة بظواهر المعتقدات الروحية حيناً آخر . قبل هذا التساؤل أجيب :

١ ـ الديانات الظاهرة قد صُنِّفت عليها مكتباتٌ مؤلفاتٍ في الشرق والغرب . دُرست ونوقشت وتأوَّلت وتطوّرت . كما شاعت لها الحضارات المتعاقبة بأصالتها وزيفها .

٢ ـ تمادي القيّمين على هذه المعتقدات ، بتعميق تكفير بعضهم لبعض ، وتشويههم بصدى كل مُصلح قام بهذا أو بذاك من الأديان ، على امتداد ازمنة استضافة الانسان لهذا الجرم الصغير ، وتعريفه بالجهر او الهمس على هذه القيم النفيسة .

٣ ـ تأكيد الواقع انتصارَ الغراب على اليمامة ، والذئب على الحَمل والمِنْسَرِ على اليراع ، بحجةٍ هي : تلك سُنَّة الحياة والمؤتمرات الدولية ، وتكاثف الصلوات زَبَدُ مشرق على جبهة الأنواء المزمجرة في حلاقيم الأنا الأكول اللاعج ، منذ كان الانسان .

٤ ـ وأخيراً الرغبة الملحّة لبذر جُزَيئات من النور في بصائر القراء ، تكشف ان خلف الظواهر المتنامية المتنافسة على مغريات الحياة المادية ، وعلى تسخير سلاح العلم للقتل والتدمير ، خلفه الحقيقة الأبدية : انسانية الانسان .

هذه النزعة وجدتها متأصلةً في نفس أخي الأصغر ، حين سبقني الى اعداد الجزء الأول من هذا الكتاب ، فبحثَ وتبحّر وسهر بعناد ، لجلاء حقيقة النوازع الشرقية في بعض دياناتهم ، وأخصّ الباطنة منها ، والهند اولاً ، التي عناها الفيلسوف (إشپلنغر) بقوله : « جُلّ فلسفات الغرب وَمَضاتٌ ضياءٍ إزاء شموس المشرق » . فمن يُمعنْ في قراءتنا يتلمسْ مكنون هذا التعبير . ثم هو يدرك مدى أواصر هذا الباطن شرقاً وغرباً ، ومدى ما نسج أبراداً من خيوط هذه الأضواء ، كانت خنقتها الرياح لولا اقلامٌ جريئة صادقة امثال : « ادوار شوريه E. schuré » في مؤلفه : (كبار العِرفانيين) ، وسواطع « ڤيف أتمننْدا » ورهطٍ ناضرِ الفكر ، عميق البصيرة في المغرب الحديث كما المشرق .

لا يحسبنّ قارئُنا اننا هنا وفّيْنا حقّ كل دين ومذهب مفصلاً ، فالتفصيل الذي اراده لِكتابنا بعضُ من اطّلع على مسوّدته يقتضي عشرات الاجزاء ، وهذا ما لم يغرب عنا ، يعوزهُ مجموعة مؤلفين على ان المطالع المنصف يقدر جهدنا ونزاهة الكلمة حين يعود الى ضخامة مراجعنا والأجنبية خاصةً ، وانها على غزير موادِّها ، قد أغفلت المذاهب العالمية الباطنية من اليابان قديماً الى بريطانيا اليوم . لكننا قد ظفرنا بكتب حديثة ، معظمها اجنبية من الكتب القديمة ، فكانت لنا خير زاد . وكان عملنا هذا الجامع فريداً في المكتبات العالمية ، نقلها مؤلفوها المعاصرون ، وأمعنوا بحثاً بصحتها ، من الكتب القديمة المنسيّة = عن قصد أو اهمال = بكل ما تعني الكلمتانِ . فكانت لنا خيرَ زاد أوجبت علينا بعد هذا الجهد والتقصي والشمول ، تسمية الكتاب « موسوعة » بَعيدين عن الغرور .

هذا المؤلف أُلحق به مع التوقيت الزمني لِقِدم الانسان أشهرُ الاحداث والشخصيات والاكتشافات في الدين والسياسة والحضارة منذ وعي الانسان وتلا التوقيت اعظم المبدعين العالميين المعاصرين في الفكر والفن ، والسبق الفضائي ، مع لمحة عن السيارات الجوية ، ورجال الفكر والفن المعاصرين .

وتقديراً للجميل فإني أفخر بالتنويه عن أكارمَ أغنوني بمعارفهم ، فطبعت لهم في نفسي أعمق الشكر والمحبة أخص منهم : فضيلة العلامة الشيخ صبحي الصالح* وسيادة الحبر ابي فانيوس زايد اشمف طائفة الروم الاورثوذكس لشمالي لبنان وسوريا ، وفضيلة الشيخ مفيد شلق قاضي شرع طرابلس وشمالي لبنان ، والدكتور الأزهريّ الشيخ مصطفى الرفاعي : والأبوين الأكرَمَين : طانيوس منعم وسمير حايك من لبنان الشمالي .

اما سيادة المطران الياس نجمة فقد اعتذر عن اي استكمال لديه بحجة اجتماعه بأساقفة المذاهب المسيحية الأخرى ، منتظراً عودة الصحة للبنان الجريح .

وفائق تقديري لرفيقة منهجي وعمري جوليا عبد الصمد ، ولمزيد شكر ومحبتي للاستاذين الكريمين فوزي وسعد ابو شقرا على ما بذلاه لإغنائي بالتوقيت الزمني ثم للاستاذين دريد ووائل أبو شقرا لتسهيل تجسيد عملي بفائق عنايتهما .

ان الهاجس الذي حثّني على تكبُّد مشاق تأليف هذا الكتاب هو وحدَه : أن أُسهِّل لقارئي مضمون كل دين ومذهب ، ظاهرٍ وباطن ، وحقيقة دعوتها جميعاً لصدق المعاملة ، والتحابّ الصحيح ، والتسامح والسلام الراسخ عالمياً . فإلامَ ضياع الانسان .

---

* رحمه الله

الباب الاول

الفصل الأول

قدم الأرض والانسان

اعتبر الهندوس عمر الأرض مئات البلايين من الاعوام ، بينما علماء العصر الحديث يعيدون هذا القِدَم الى ازمنة اقرب . من اولئك العالم (جورج كونتنو) الذي صرح في كتابه المدنيات القديمة بما يلي :

(تلك السفينة الفضائية (الأرض) مع شلة من ابناء اسرة الشمس ، ومع ملايين الشموس ، وملايين المجرات ، هي سابحة منذ مئات الملايين من السنين). ولم يُعِد ذلك القِدم الى البلايين من السنين ، وجاء في الموسوعة المصرية ـ انه عثر على جمجمة بشرية في كهف (شوـ كوـ تين) جنوب غربي پاكين ، عمرها زهاء نصف مليون سنة وان عمر انسان كهوف (جاوا وأومو) يعودُ إلى هذا القِدم ، ثم ان عمر الاشنات ملياران ونصف سنة تقريباً ، عقبتها الرخويات فالأسماك .

واثبت علماء الحفريات مؤخراً ان هناك آثاراً دالة بقناعة علميَّة على وجود الانسان في ازمنة اعرق قدماً من ذلك ، من تلك الآثار ما المح اليه مؤلِّف (المليون سنة الأولى من عمر الانسان) اذ قال : (لقد عثر على ادوات حجرية صغيرة ، يعود تاريخ عملها الى حوالي اثني عشر مليون سنة . وقد دلت الأبحاث على وجود قردة مشابهة للانسان يرجع

تاريخها الى ثمانية وعشرين مليون سنة . وانسان (نياندرتال) المكتشَف في المانيا ، يعود لعام مئة وخمسين الفاً (ق . م) او يزيده وكان قبله انسان الصين ، ومعاده الى مليون سنة . ثم اكتُشف مؤخراً في وادي (أومو) وهو نهر جنوبي الحبشة ، فكُّ انسان يعود الى مليونين أو ثلاثة ملايين سنة) المرجع (Ashley Mantagu) أ. مُنتاغُو (وكميل أراميو) في (نشرة : نشأة البشرية) . على ان مطامح الانسان وحبه للتقصي البعيد ، لم يوقفه عند حدود هذا الجرم الصغير : الأرض ، فهو يصعد ويصعد أملاً بكشف غوامض الأجرام السماوية . لكن العالم ج . كارل ، (JulesCarles) يرى أن الأرض هي الكوكب الوحيد الذي نجد فيه الحياةَ ممكنةً و (اصول الحياة) . وقد يؤيد هذا الرأي او يرفضه المستقبل القريب .

فكرة الدين : أما بشأن الفكر الديني فقد صرح العلماء : (تيلر ، دوركيهيم وسبنسر) بأن الانسان اخذ يترقى حتى وصل الى الكمال : بالتوحيد . وان عقيدة الاله الأحد هي حديثة ووليدة عقلية خاصة بالجنس السامي ، نقض هذا الرأي فريق آخر في طليعتهم العلامة (شميدت Schmidt) حين قال : «توجد عند جميع شعوب الأرض منذ القدم فكرة الإله الأعظم ، والعامل الأول لإثارة هذه الفكرة الروحية كان : مشاهد الطبيعة والأفلاك والعناصر اذ التأمل بها يوحي الرهبة في الناس ويحسون بقوة خارقة مستقلة عن ارادتهم ، ولا قدرة لهم على تحويل سيرها او تعديل نظامها ، فيتولد فيهم ازاءها : رهبةٌ واعجاب معاً ». ثم تابع المرجع نفسه : « كان يسكن الآله الاعلى الأرض وحين فسد اهلها ، صعد الى السماء فهو الأب الروحي والخالق ». وتنوعت الآراء حول هذا الأب بتعدد القبائل والمناطق على الأرض . وألمح المؤلف المصري مصطفى محمود ، الى تلك الفكرة بقوله : (منذ فجر التاريخ قبل ان يَعرف الانسان كيف يطهو طعامه ويبني لنفسه مسكناً كان يفكر بالقوة الخالقة). (كتاب الله) كما ان عباس محمود العقاد قال : (ان الاهتمام بما فوق الطبيعة ، نزعة عالمية عريقة في قدمها ، سببها ضعف الانسان تجاهها . وكان هذا الانسان يحسُّ بجوع الى الاعتقاد ، كحسه بجوع للغذاء . وكانت يومذاك علاقة وثيقة بين العقيدة والاسطورة (كتاب الله للإستاذ عقاد) .

وصرح (ج . هـ . برْسْتِد) : « جاء تفوق الانسان بطيئاً جداً ، وعلى مراحل تعود الى مئات آلاف السنين وان الحفريات التاريخية اثبتت ان ظهور الانسان يعود الى العصر

البليوسي ، أي إلى بصعة ملايين من السنين عقبةُ حسٌ بالقوى الخارجيَّة» . ثم قال (تيلر Tylor) : « ان الأرواح تسكن وتسيطر على كل ما في الطبيعة من : نبات وهواء وشمس وبراكين . . وقد فسر القدامى حصول الأعاصير وكل الظواهر الطبيعية ، من أفعال الروح ، لأن كثيراً من القوى كانت تترك عندهم انطباعاً بقوتها فبدأوا يعبدُونها » . ويرى هذا العالم الأنتربولوجي ان بداية الدين جاءت من هنا .

وكان رأي عالم اللغة المعاصر (مولّر Muller) وهو اول من كتب في الديانات ، ان الدين بدأ بعبادة الأرواح حقاً ، رافضاً ان يكون القُدامى اعتبروا الروح تسكن الطبيعة معتقداً بأن أولئك كانوا يتخيلون قوى الطبيعة نفسها تحمل صفات بشرية من غَضبٍ لرضى ، وبالتالي حوَّلوا هذه القوى الى آلهة وكان هذا حسب رأيه اول ايمان بالآلهة .

أما رأي الانتربولوجي النمساوي (شميدت Schmidt) المعاصر ، فزعم أن الألوهة تطورت من ايمان قديم ، وان الحياة البشرية تأتي من مصدر سماوي ؛ ويرى ان القدماء كانوا يعتقدون بأن المصدر الإلهي هو : خالق الوجود . فبدايات الدين كانت عن يقين ، بإلهٍ واحد لا اكثر .

على ان الانسيكلوبيديا الاميركية : (World Book) ط ١٩٧٩ صرَّحت في الجزء السادس عشر ص. (٢١٠) وما يليها بما يأتي : قِدَم فكرة الدين، أولُ اثبات مسجل على حفريات عريقة في القدم تثبت نشاطاً دينياً يعود الى قرابة ستين الف سنة (ق . م) بينما الأنتربولوجيون وعلماء الآثار يرون أن أنواعاً من الديانات كانت تمارس منذ بدء ظهور الانسان على الأرض اي من زهاء مليونين ونصف المليون من الأعوام . لذلك نجد العالم : (هـ . بْرُويْ H . Breuil) يؤكد بأن : « الانسان قديم جداً وكذلك هي أفكاره» . (مطلع التاريخ العام للديانات « ج ١ »).

وقال المؤلّف (منتاغُو Montagu) بالنسبة الى فكرةٍ انبثقت ، تومىءُ الى ديانةٍ ما ، ان الرباط الأساسي الذي يشد الناس منذ القديم السحيق كان الانتسابَ الى قوى ما وراء الطبيعة ، تتحكم الى حد بعيد بالانسان ، وقد يتحكم هو بها . وقال المؤرخ (تيلور) : إنه الاعتقاد بكائنات روحية . وقال (جيمس فريزر) المتوفى عام (١٩٤١) لقد نشأ الدين من السحر . وقال سبنسر « أنه نشأ من عبادة السلف » كما تكهَّنَ غيرهم بأن العامل

الموحي للعبادة هو : الخوف ، ولكن (دوركهيم) قال : « ان الدين هو اكثر الظواهر الاجتماعية بدائية . وما وجد البشر وسيلة للانتماء العميق افضل منه » .

وإذا عدنا الى الانسان العادي القديم وسألناه : ما الدين ؟ يقول : انه وُجد قبل الذاكرة الانسانية ، في زمن الاحلام . وتقول (المانا) انه القدرة فوق طاقة الانسان . وكانت ملامح لِدينٍ ما تبدو على الانسان منذ استعمال النار اي منذ مئات آلاف السنين .

اما المؤرخ (جون . ا . هامرتون John Hamerton) فقال ما مؤدّاه : « لقد أُخذ الانسان البدائي بعوامل جمة ، طبعت نفسيه بما يشبه الدين او السحر . منها :

كان اذا ازمع اهل جزيرة (بورنيو Bornéo) على السفر لعقد صلح مع قبيلة اخرى لجأوا الى مشاهدة طيران (الصقر) هل يواتيهم الحظ ام لا » .

وهناك فحص (كبد حيوان أليف) يستدلّون من تركيب جسمه على ما يتوقعون . وكان ابناء تلك الاصقاع يؤمنون بكائنات غير بشرية تظهر لهم بصورة : تماسيح وتسيطر على صحة الفرد وتصرفاته. ويحدثنا (شارل هَوْز Charles Hose) ان الأبانيين (les Ibans) كلما اتوا ارضاً جديدة صنعوا تمثالاً لتمساح يوضع في حقل الأرز . ثم هم يقدمون له القربان للإخصاب فقد اعتبروهُ من اقربائهم لما يُسدي لهم من نفع حتى بعد مماته (وهو حجر) .

واثبت المرجع نفسه : « في وسعنا ان نُرجع هذه المعلومات عن تلك العادات الى اكثر من خمسين قرناً وهي ما زالت قائمة . مثلاً في جزيرة (بورنيو Bornéo) . وكانت عادات مشابهة لهذه تمارس في ايطاليا القديمة ونقل عنها الأوروبيون .

شدُّ الحبل : وهناك لعبة (شدِّ الحَبل) وجدت على جدار قبر مصري منذ نيف وثلاثين قرناً . على انها عراك مقدس بين مَندوبِينَ عن الوجهين القِبلي والبحري بغية الوصول الى جثة (الملك المحنطة) . وما زالت الفكرة نفسها يمارسها (البورمانيون) على قول (ر . تامْبل Richard Temple) حيث يشد الحبل اثناء جنازة الراهب ليعرف أي الطرفين ينال شرف وضع الجثة على كومة الحطب لِحَرقها .

وكان شد الحبل من عوامل الخير والشر في الهند وسواها . وهو الوسيلة التي

يستخرج منها اكسير الحياة اي : الغذاء المقدّس للآلهة كي تخلد . وقد انتقلت هذه العادة الى اليابان واميركا الوسطى في سابق الأزمنة .

ويتابع المؤلف : ان تفكير الانسان في خوارق الطبيعة ، التي تراءت له منها ملامح معتقد روحي ، أوحى إليه بالاكتشافات والاختراعات من مادية ورياضية (حلى ، أثاث ، علم الفلك ، الكيمياء و . . .) .

الدم الآدميّ : وكانت العادة السائدة قديماً ان الملك حين يعجز ويهرم يقدِّم ضحية للآلهة . ولكن مع الأيام تطورت العادة واصبح الشعب يكتفي بأستبدال دم الملك بدم بشري سواه . وكان عذرهم بذلك ان (الأم الكبرى) وضعت الدم الآدمي ليكون اكسير الحياة الذي يجدد شبابَ الملِك الهرِم .

المُغْرةُ الحمراء والأصداف : ثم أكمل المرجع نفسه : « وكان بنو الإنسان الأوائل الذين كشفت آثارهم بأوروبا في كهوف الأطفال (Grottes des enfants) ، في برِدْموسْتْ مَنْتون Bredmost Mentone) وفي وادي دُردوني Dordoogne) وفي أماكن عدة كانت توضع في قبور هؤلاء مع أجسامهم (المُغرة الحمراء) والأصداف بدل "الدم الذي كان يعدُّ (مادة الحياة) ، (والأصداف) هي ماهِيَّةُ الحياة وتُتَّخذ كلتاهما تمائم معتقدين بأنها تستطيع أن تزيد في حيوية الميت ، إذ كان الأقوام يومذاك يؤمنون بأن الموت نتيجة مسيل الدم في نزف الجراح ، وموت سواه كان يعد غيبوبة . وجدت هذه الأصداف والمُغرة مع أقدم ما عثر عليه من آثار للإنسان العاقل (أموسابينْ Homo Sapiens) ، معتقدين بهذه التمائم إمكانية استعادة الحياة » .

الذَهب : ولم نزل في المرجع نفسه اذ يقول : « كان قدامى الهندوس يعتقدون بأن الإله (أغني Agnie) نما من فُتاتِ ذهب ، وانه ليس فقط خالداً بل هو والنار والضوء والخلود شيء واحد . وان الذهب مولود من النار المقدسة وانه يجدد نشاط الجنس البشري » .

وقد حمل هذه الفكرة الكتاب الهندي (Satapatha Brahmane ، سَتابْاتها بْرَهْمان) فقال ان الذهب خالد لا يفنى ، وانه يجدد النشاط في الجنس البشري ، وهو مولود من النار .

جنة الخلد : في القرن الخمسين وما قبل ، للتاريخ المعاصر ، كان المصريون قبل الأُسَرِ المعروفة يفهمون الجنة مكاناً مقدساً بغير شوائب ، وهو خاص بالملوك السابقين وحسب ، وبعدها غدت ممكنة للعموم . وهناك كان للذهب تلك القيمة التي اعتبرها له الهنود القدماء، بدليل ما شوهد في مدافنهم ـ الملكية، اما الأصداف فقد سبق وجودها واعتبارها بزمن طويل ، اذ وجدت منذ العصر الحجري القديم مقابر تتضمن الكثير من الصدف البحري (الودع) .

البقرة : كان المصريون العريقون في القدم هم اولَ من اكتشف منافع (البقرة) وزعم المؤلف السالف الذكر انهم استعملوها اداةً لإرضاع الاطفال ، واتّشحت بثوب القداسة ودُعيت (بالأم الكبرى) والبقرة الإلهة . هي الحلوب المرضع فهي أمّ للآلهة القابلة للموت .

وفي عقيدة هؤلاء الأولين أن الموتى يسافرون غرباً ، أي إلى التقاء السماء بالأرض على زعمهم . وقد يتحولون إلى « بُزاة » أو إلى « دُخان » .

النجم : قبل ان تُعرف عبادة النجوم وتأثيراتها على بني الانسان خاصة ، كان هؤلاء الاسلاف يعتقدون بأن في العالم السماويِّ نجماً كبيراً جداً يسيطر على أقدارِ البشر ويُقَدَّرُ بِهِ الوقت وينظِّم المدُّ والجزر . ثم تطور هذا المعتقد مع الأجيال .

لكن قدامى الهنود كانت نظرتهم الى السماء تفسر اعتقادهم بأنها تأتي البشر بنسمة الحياة ، وبالخير لهم ، لذا فقد اصبحت بعدئذ اساطيرهم القديمة قائمة على حقيقة معتقدهم هذا .

فكرة الدين : وكتبَ دراسة عن الدين (ستانلي . أ . كوك) في « آلهة السحر » يقول :

« كان الأهم من كل شيء في حياة الشعوب القديمة هو : الدين أو (أي معتقد روحي) ولا نظن ان الديانة وطقوسها ومراسيمها هي كلها من بنات افكار الكهنة القدامى ، انها نابعة من صميم الانسان بالنظر لحاجته اليومية للجوء اليها في ظروف طارئة) .

كان عندهم للدين معنىً عميقاً فهو الموجه لأفكارهم والحافز على النشاط والباعث للأمل المعسول . ذلك منذ خمسة آلاف سنة وما قبل . وكان اذا فُقد صنم لِلاله يعتبر هزيمة لاتباعه . وكل هزيمة تحدث بين القبائل يعزى سببها لهُ .

مصادر الدين : يرى المؤرخ « تيلر » ان للدين مصادر اهمها : الشعور ، والعاطفة ثم التجربة الشخصية وليس من الضروري ان يكون له ، آنذاك قيمة روحية او ذهنيَّة سامية . كل ما نعجز عن تعليله من خوف وظواهر خارقة واغراض زراعية واجتماعية ومن عجز ويأس وفناء ، كل هذه نعيدها الى الدين (اي الى قوى ما بعد الطبيعة) لعدم طَول الانسان القديم ازاءها .

الفصل الثاني
قيمة الدين اجتماعياً

لما كان لكل قبيلة معتقدٌ خاصٌ أضحى بالضرورة شد افرادها وتضامنهم امام العدوان الخارجي . واصبح الفردُ شاعراً بانه عضوٌ في جماعته ، وليس مفكَّكاً كالسابق ، ثم ان الآراء التي تنوقلت، ونوقشت بدائياً ، واختُبرت مع الأجيال ، كلها ادّت الى نمو المعارف التي سدّت الهوة بين انسان ما قبل التاريخ ، وانسان ما بعده ، واتخذ الانسان بعدها تلك القوى الماورائية ، آلهةً في اشكال مختلفة حيوانية في البدء ، ومنها تولدتْ الطوطمية . ولعل هناك ما قبلها . ويلاحظ أن الانسان كلما ازدادت معرفته بنفسه ، أدرك شيئاً فشيئاً مبلغ ما يرجع الى التبصر . واعظم خطوة كانت حين ادرك المرء ان العقل هو الذي يسهل العمل . ومن هنا امسي الملوك والكهنة وهم اوفر وعياً وتعقلاً من السواد ، أمسوا يتحملون عن الشعب كل المشاكل التي يمكن ان تطرأ . ويفسرون بمفهومهم ظواهر الطبيعة ليأمنوا في مجاهلهم .

الآلهة الأم

كانت تفاجىء الباحثين الانتربولوجيين تماثيل صغيرة ، رموزٌ لأشياء متنوعة في الكهوف بأنحاء الأرض في العصر النيندرْتالي والبلْيوليتي ، وقد تأكد لهم الايمان بالسحر

وسلطانه وبالآلهة الأم بدءاً من سيبيريا ، فأوربا فأميركا القبكولمبية فمصر القبفرعونية . عثر علماءُ الآثار في (تو. دودُوبار ، Tue d'audoubert) على صور مختلفة لـلإنوثـة والذكـورة معاً ، وأدلّة على حفلات سحريه في الكهوف مما يشير الى ديانة الاخصاب خاصةً في منطقة (Eurasie أورازي) حيث تُعبـدَ الآلهة الأم . هـذه الآثار قـد وجدت في كهف (كـوغمل Cognl) شَرْقيِّ إسبانيا . منها نساء عدة يحطن برجل واحد ، بغيـة الاخصاب ، كما ان هناك الساحر الأكبر في كهفِ : (الأخوة الثلاثة) .

وصرح مؤلف تاريخ البشرية بانـه : في العصر الپاليوليتي نشأت الأساطير والسحـر والديانة . ومن هناك انطلق التفكير في الظواهر الطبيعية : رياح صخور ، غـابات حيـوان ثم انسان ، وكان هناك بعد هـذا كله الإلهة العظمى وبعدهـا يأتي دور الإلّه المذكَّر . وقد آمنوا بالأرواح المنتشرة في كل مكان ، وبأن منهاالصالحة ومنها الشريرة .

كان يحس الرجل الپاليوليتي بالشعور الديني ، واعتبره الصلة بينه وبين الآلهة . وقـد عُثر في العهد النَيْندَرْتالي بفلسـطين في (وادي المَغارة) وفي حُفـر عميقة هنـاك ، على جثث موتى في منتصف الكهوف ، وكان رأس الميت محاطاً بالبلاط . لعل ذلك تقديساً للجمجمة البشرية او لما تتضمنه ، أعني (العقل) . وكثرت في الكهوف آثار أعضـاء الجنس الأنثوي والمذكر بأشكال مختلفة ، مما يشير الى تقدير العُضْوَين وايلائهما مرتبة القداسة .

ماذا تحدثت اولى الديانات في اوقيانيا وافريقيا وسواها ؟ لِنَرَ .

الباب الثاني

الفصل الأول

أصل الديانة وبدؤها في أوقيانيا واسيا الوسطى والأسكمو

يقول المؤرخ (أشلاي مُنتاغُو Ashley Montague) ان أصل الدين نابع عن احساس عميق في الانسان البدائي ، ظهرت دلائله منذ القديم السحيق بظهور انسان الكهوف والغياض ، وانه تكيف فيزيولوجي طبيعي بَنَتْ بواسطته المجتمعات حاجزاً يحميها من المخاوف والقلق المستمر ، والواقع الرهيب ، في احضان الطبيعة الغضوب ، وبين انياب الضواري والنواهش . وقال (دوركهيم) : (يعتبر الدين اكثر الظواهر الاجتماعية بدائية) . وقد تبين لعلماء الآثار ان سكان اوستراليا الوسطى كانوا يقولون : في الأزمنة الغابرة البعيدة، خلقَ العالَمَ مَنْ خَلَقهُ ، ولم يعينوا اسم ذلك الخالق ولا رَمَزوا إليه بشيء : إنه المجهول القديم : وقد اعتقدوا مع أهل ميلانيزيا (بالمانا ، Mana) وهي القوة فوق الطبيعة المسؤولة عما يتعدى قدرات الانسان وطاقته وانها : الجوهر الروحي .

وقال : (وِلْيم هاولز) في : (ما وراء التاريخ) : أن الدين هو احد المستويات العليا في الثقافة . كان يصعب تحديده سابقاً ، إنما بدا هناك سلوكٌ ديني . ففي اواسط افريقيا نرى قبائل الـ (Bakongo، باكنغو) يرددون اساطير عن الكائن الاعلى :

(Nzambi — Mpungu ، نْزامْبي ـ مْپُونْغُـو) وهـو في عـرفهم خـالق العـالم، وانـه خيرٌ محض وهو المعاقب على الزنا والكذب وشهادة الزور وعدم احترام الوالدين . وقد آمنوا بالسحـر المفيد وهو الأبيض ، والضار وهو الاسود ، وآمنوا بالطلاسم يرسمونها بدم الخفاش . ومن السحـر الأبيض ما يشفي المرضى ويقضي الحاجـات اليوميـة ويذكـر التنبوآت ، وبعكسـه الاسود الضار . وكانت عندهم عقيدة الايمان بـالـ (شامـان والمانـا) وهي القدرة الخـارقة التصويرية .

وانتقـل المؤلف إلى جزر پـولينيزيـا فقال عن معتقـدهم : « ان الكـون مؤلف من : الضوء والنفس والفكر . وكان إله السماء هو الأب : وإلهة الأرض هي الأم . منهما ظهرت الإلهة : (رانغُو ـ تـو ـ تـان Rango — Tu — Tane) . وقد تتحـول أرواح البشر إلى آلهة متى تناهت خيراً . واعتبر المؤلف ان الطوطمية في اوستراليا نابعةٌ من هذا الشعور ، كذلك عبادة السلف نظراً لما يعير اولئـك القبائـل من تقديـر وتقديس : لـلأب والأم . وفي الحين الـذي كانت تتنسم فيـه اوستراليـا ومضات عقيـدة دينية خـاصة كـانت في الجـوار قبـائـل (ميلانيزيـا) تستخدم السحـر وتغرق في معَاطـاتـه ، ليس عن ايمان بـروح غامضـة ، بل قضاء لحاجات يومية عابرة : كتحصيل الـديون أو السيـطرة على المجتمـع او تسهيلاً لِمهـامٍّ اجتماعيةٍ مُلقاة على عـاتق الفرد . وقـد طغى هذا المعتقـد البدائي حتى اضـطرت السلطة على مكافحته .

وكان في هذا المجتمـع تيارٌ روحي خفيٌّ يمـارسه الـرجال في مجلس خـاص يدعى : (بيت الرجال) حيث يحظَّر على النسوة الدخول اليه ، اما الصبية فأنهم بعد سن الرجولـة يُؤخـذون الى غابة نـائية فيُشـرح لهم مضمون مـا يعتقدون بـه ، ويحذَّرون من افشـائـه ، وينذَرون ، ذلك ما يشبه : اللّوح الأزرق في الماسونية ، وكلّ ديانة باطنيَّة .

هذا التيار الخفي ما زال غامضاً على الباحثين ، وكأنما التاريخ قد ابتلع دَسَمه ، فلم يبق منه الا المزاعم . ربما كان رافـداً سائغـاً للباطن العـالمي ، اقتبسه التجار المتنقلون من ضواحي الهند ، وربما هو شعبذة لإيهام الشعب وكبح نزواته .

الفصل الثاني

اميركا قديما

منذ خمسة عشر الف عام (ق . م) دخل اميركا من الشرق الاقصى قبائل يرجع انها (المنغول) نزلوا من ألاسكا في وادي نهر (ماكنزي Mackensie) الى السهول الشمالية وهبط بعضهم الى ضفاف (الميسُّوري Missouri) واستقروا في اميركا الوسطى قبل توغلهم في الجنوبية . وفي الألف السادس (ق . م) بلغوا اقصى الجنوب . وتابع المرجع (وليم هولز) : « يُظَنُّ ان افريقيا كانت المكان الأنسب للسكن بعد موجات الجليد المتتابعة . هنالك ظهر اول شكل بشري أُطلق عليه اسم : (أومو سابْينَ Homo Sapiens) المُشابِه للقرد . كما نلحظ في احدى الصور الملحقة . وُجد ذلك في حفريات اخرى متعددة في العالم اجمع . كان هذا قبل ان يبلغ الانسان من الوعي ما يجعله يتطلع الى مسببات الظواهر . ومع الزمن فقد الكثير من خصائصه كحيوان . وتطورت همجيَّتهُ وئيداً ونما نخاعه (المُخ) ، وشرع في استعمال العصا للدفاع ، والحجارة المسننة وسدِّ ابواب المغاور بمواد اولية . وفي عام (١٩٥٩) اكتُشف في أُولْدُوا (Oldoway) بتانكنيكا جمجمةٌ بشرية كاملة تعود الى بدء العصر (البْلاَيِسْتوساني Pléistocène) الاقدم ، اي الى ما يقارب النصف مليون سنة حيث معيشة الانسان على الحشرات والحيوان : (بقر وخراف وفأر وسمك) وحيث اضحى له الشكل المتميز . وما كان ليعرف التفكير الديني بعد ، حتى مطلع العصر (الباليوليتيكي) الذي ظهرت فيه بوادر (الطوطمية)، وهي عقيدة روحية حسب نتائج تقصيِّ المؤلف الذي اكمل ان الدين هو مزيج من السحر انتقل الى ايمان حق : بالنفس والعقل والالوهة ، فتطلعات ذلك البدائي الأول ، ومخاوفه وامعانه بالطبيعة وظواهرها وحيوانها ، جعلته يمعن الفكر بها ، وبالقوة العليا المتمثلة اولاً : (بالأم العظمى) . وبتطوُّرِ وعيهِ اخذت الأمور والتطورات تتبسط حتى توصل اخيراً لعبادة إله او آلهة وكان (دِين) وكانت (طقوسه) متباينة حيناً ومتشابهة حيناً آخر .

طقوس الدفن :

الى ما سبق أضاف المؤلف (وليم هولز) : ان طقوس الدفن عند (الاندرتاليين)

كما دلت عليها الحفريات خاصة بفلسطين (وادي المغارة) كانت في وضع الجثة تحت التراب في كهف ما . وقد عثر في اواسط آسيا وبالضبط في (تاشِكْ تاش ، Teshik Tash) على مقابر عميقة مُحاطة بقرون المعزى . ووُجدت هناك (المغرةُ الحمراء) .
بلون الدم كما سبق. وهذا يشير الى ان الموتى يبقون احياء بروحهم في ظهرانيهم . ولكن في العصر الباليوليتي كان الشعب يحفظ موتاهُ برفقة اسلحتهم . وكان الرأس دائماً محاطاً بالبلاط (لصيانته) وكانت تصحبهم الأغذية وادوات الزينة . هذا تأكيد على ايمان انسان ذلك العصر بخلود روح موتاه ، أو ببقائها حية الى حين . واوضح المرجع نفسه : « كان السائد عبادةَ التمثال الانثوي في ذلك العصر ، وكان ابرز التماثيل آنذاك في الحقب الأولى نحت عُضوَي الانوثة والذكورة ، رمزاً للإخصاب وسبب الحياة . وكان الادراك والرهبة والقداسة (للإلهة الأم) وهي (الأرض الإلهة) هو السائد في تلك الأزمنة بمعظم المناطق . وما سنذكر من أعلام لأمكنة يتبين مدى تعميم هذه الفكرة :

وجد في بلدة (أريحا) بفلسطين تماثيل صغيرة من الفخار (للإلَهة الأُم) كما وجدت في بريطانيا وفارس ، وحيث بدأت بوارق حضارة زراعية كانت تأخذ في الشمال رأس (الفأس) ثم تقدس (الثورَ) لاستخدام عِظامه اسلحةً لهمْ .

وكان يرمز (للإلَهة الأم) على شاطىء المتوسط حتى اليونان غرباً « بالحمامة . » ووجد اثر من ذلك في (اسكندنافيا) و (ايرلندا) ترافقها عبادة « الطوطم »، برسوم تماسيح وغيرها على الفخار المتقن ، ومثلها في النيل العليا .

تقديس الموتى والسلف :

في القديم السحيق ما كانت المقابر جماعيةً ، لكن القبور غالباً ما تكون متقنة ومن القش . يُوسَّد الميت منحنياً وآخر مستطيلاً ، ويضعون المآكل والشراب على باب القبر ، إما لتسكين خواطر الموتى او لاعتبارهم احياء .

على ان الادراك الديني في هذين العصرين : (البَاليوليتي والنيوليتي) كان يغلب فيه عبادة (الإلَهة الأُم) وكانت تأخذ اسماء وصفات ورموزاً مختلفة بين حضارة واخرى ، مثلاً : (هاتور يرمز إليها بالبقرة وهي أمُّ حورس) وكانت في فارس : (تيامات) إلَهة الأعماق ومنها يخرج كل شيء وقيل : إلَهة الشر .

المعتقدات :

ان الاشياء المعبودة قديماً متعددة ، اهمها ستة : سماوية ، ارضية ، جنسية ، حيوانية ، انسانية وألوهية .

من اوائل هذه المعبودات كان : (القمر) « من اساطير الانسان في الليل ». وكان القمر هو الإله المفضل للنساء .وعبادة الشمس ما برح تاريخها الأول غير محدد . اما القمر فكانت الضفادع تبتهل اليه ليبعث المطر . ولعل عبادة القمر قد شاعت حين غدا الصيد شائعاً ثم دخلت الشمس في معظم العبادات في العالم ، لكن اليونان اعتبروها قرصاً نارياً ، ومثلها النجوم بعكس بابل وسواها .

واعتبر العالِم (فرويد Freud) الطوطم ، رمزاً مجسداً للأب المعتبر والمكروه معاً ، لعظيم سلطته ؛ وينتقم منه ابناؤهُ بقتله وبأكلِه . لذلك فإن (دُركْهيم Durkheim) قد اعتبره الرمز المعتبر والمكروه . وقد عبدت الاسماك ، بأعتقادهم ؛ حين نأكلها نشعر بالروح تتغلغل فينا . لكن عبادة الحيوان كان سببها : إما لنفعه ، أو توقّياً من أذيته : وكانت عبادة الموتى والابطال والسلف . ثم كانت عقيدة وجود روح واحدة لكل الظاهرات يتبعها السحر : (Animisme) والغريب في هذه المراجع الكبرى انها لم تذكر شيئاً عن عبادة الجماجم البشرية ، في حين ان مؤلّف (التاريخ العام للديانات) .
يعتبر هذه العبادة ؛ الأولى بين البشر ، بدليل ما عُثر عليه في كثير من الأحافير من جماجم مصانة كل الصيانة .

قداسة الجماجم :

ما يجب الوقوف عنده بإنعام فكر ، هو ما يشغل علماء الآثار وما اكتشفوه في الحفر ، هنا وهناك في الآونة الأخيرة ، وما تيسر لهم من امكانية التصوير والتحليل للآثار البشرية والحيوانية التي التقطوها في المغاور وتحت الصخور . تبين لهؤلاء المنقّبين بعد الجهود المضنية المتواصلة ، وجود الأدلة القاطعة على ان الجماجم البشرية هي اول ما لفت نظر الانسان الأول وقدّسه واحاطه بفرط عنايته واجلاله . يقول عالم الآثار (كودْرنغتن Codrington) استناداً لأقوال ونشاطات العلماء : (م . بُول ـ هـ . بْروي ـ ج . هـ . لوُكَتْ ،

(M. Boule — H. Breuil — G.H. Luquet) ما خلاصته : « تأكّد لنا حفظ الجماجم البشرية والحيوانية خاصة في « اوقيانيا » وبالضبط في جزر « ميلنازيا » الغربية . كان يعود حفظ هذه الجماجم الى ثلاثة اسباب :

١) عادة اصطياد الرؤوس من بشرية وحيوانية .

٢) عادة قطع رؤوس الأعداء لدى انكسارهم في المعارك .

٣) واخيراً والأهم الاحتفاظ بجماجم السلف المتوفين عن حبٍ وتقدير لهم .

كانت هذه الجماجم المصونة كل الصيانة تبدو بالتأكيد حاملةً مسحة القداسة ، في مُعظم الحالات . للعالَمِين الأولين . وسكان الكهوف كانوا يقدمون القرابين الى الجماجم وكانوا يولونها كل عناية ، وعاطفة وتقديس . أوضح علماء الآثار بأدلة قاطعة مقدار تلك العناية بعدما اكتشفوا ويكتشفون من حين إلى آخر في الشرق والغرب ، من آثار دالة على ذلك ، لا يتسرب اليها شك علمي قط .

اما طريقة الحياز على الجمجمة فقد اثبتها العلماء قائلين : « بعد ان يقطع رأس المتوفّى ، على الأهل أن ينظّفوه جيداً ، ويزيَّن ويقام الرقص وتُتلى الأناشيد حوله ، مع الإشارة الى روح المتوفى ، واحزان الأحياء من ذويه . يعقب ذلك تجمع الأهل حول الجمجمة ، وسيرهم وراءها محمولة ، وهم يلوحون لها بأفنان الشجر ، بغية طرد الروح المستقرّة فيها :

اما الغاية من طرد الروح والى اين يقودها المطاف وهل هي خالدة ، وكيف ؟ كل ذلك لم يوضحه حتى اليوم علماء الآثار ، في تلك الأزمنة الغارقة في القِدم ، لعدم امكانية وجود ادلة بينة ثابتة . كل ما هنالك خلعُ خافي القداسةِ على الجماجم .

من اين جاءت هذه الفكرة المبثوثة في انحاء الأرض ، منذ مئات آلاف الأحقاب ؟

لم يجب على السؤآل المطروح عِلمنا المادي المتطور ، رغم تقدُّمه الناجع إلا بغمزاتٍ عابرة الى الروح او القوة المدركة التي تبطن الجماجم .

لكن علم الروح المعاصِرَ (Psychisme) والباطنية العالمية يجزمون بوجود عقل كليٍّ رافق القدرة العليا ، متجسداً بشراً سوياً ، منذ تلك الأزمنة ، مُخيراً كل العباد سلوك اي السبيلين : الخير أو الشر . واستمر الخيار أدواراً طوالاً ، ويستمر ، حسب عقيدتهم .

فلعل نازلي المغاور يومذاك ، اهتدوا الى قداسة الجماجم ، باعتبارها تحمل قبساً من ذلك (العقل الكلي) لعقلها عقل القاصر ، فوجب عليها تقديره الحق . من أشهر الأماكن التي اهتدى اليها العلم الانتربولوجي ، مُحتضنٌ لمجموعات بشرية اولية (سوانْسْكومبْ Swans - combe) وإنسان (هيدلبرغ Heidelberg) في اوربا ، ثم احافير باكين في الصين الحاوية شمالاً كهف : (Chou - Kou - Tien شُو ـ كُو ـ تيان) وفيه جماجم عشرة اولاد واثني عشر شاباً . أعارَ دراستها كامل عنايته البرفسور (ويدنْرَيْخ Weidenreich) حيث وضح له ثبوت التعرف الى النار والى بعض صناعات الحجر والعظام في تلك الأزمنة .

وفي عهد أحدثَ اكتُشفتْ جماجمُ وافكاك سفلى من طراز « انسان نينْدرْتال » يعود تاريخها الى العصر الباليوليتي المتوسط ، منها بيضاوي الشكل ، وأخرى نصف كروي . الاولى منخفضة الجبهة والثانية مرتفعتها . « وفي العصر » النينْدرْتالي الأخير تبين للمحققين اكتشاف الألوانِ واستعمالها ، ومنها بالأخصِّ المُغرة الحمراء التي مر ذكرها . كما ثبت التعرف الى وجود دفن الموتى .

أما الحيوانات التي كانت تُحفَظ جماجمها فمنها : الدبَبة والأيائل « الرينة » بشكل واضح . وفي عصر الـ : (Homo Sapiens) اعني عصر الأيائل الشمالية اختفى شكل انسان « نيانْدرْتال » من اوربا اثناء آخر زحف جليدي كبير ، إثر الغزو الشرقي للغرب . كان لذلك الانسان جمجمة طويلة وجبهة مرتفعة ووجه عريض منخفض ، وكانت قد تمت جودة المكالمة والتفاهم بين الناس . واشهر ما اتصف به ذلك الانسان اتقانه الصيد واستمراره ، وتذوق بعض الفنون والمهارة في بعض الصناعات الأولية : منها الاسلحة بالحجر المقصوب واستعمال النار والاضاءة ودفن كلي للموتى ، باشكال متنوعة ، حسب الاماكن الطبيعية والطقوس التي يبتكرونها .

وحفظ الجماجم وتقديسها كان مرافقاً ابداً لكل تلك العصور حتى عصر الأيائل حيث وجدت مغاور متعددة في ألمانيا . وفرنسا تحوي العديد منها . من هذه المغاور : مغار (فوهَلنْجن Fuhlingen) و(پلاكار Placard وپاربَلّلو Parpallo) وفي الصورة اللاحقة جماجم وجدت في كهف (نورْدْلَنجن Nordlingen) إكتشفها العالم (شميدْت

Schmidt). وفي الكهف حفرتان كرويتان متقاربتان ، الكبرى تحوي (٣٧) جمجمة والصغرى ستاً، متجهة شطر شمس الغروب . ويضيف هذا العالم : (ان تقديس الجماجم في مرافقته الانسان الاول طيلة آلاف الاحقاب ابتداء من العصر الباليوليتي فالميزيوليتي فانسان نيندرتال والـ : (Homo Sapiens) ، انتهى اخيراً الى حفظ الجمجمة وعظامها المتقاربة ، كذخيرة او تميمة من قبل ذلك الانسان . يقول عالم الآثار (باغوان H . Be-gouen) : في ذلك الزمن الغابر كانت القبائل الهندية في أميركا (ياكوتاتس Yakutats) والاسكا تدفن موتاها منزوعة الجماجم محفوظة في اماكن خاصة . كذلك كانت تفعل شعوب الـ (پاپوس Papous) في (Kiwai ، كيواي :) بالمتوفين بعد إقامة الشعائر الجنائزية الخاصة بهم .

ويقول (راسمُوسّن Rasmussan) ان اسكمو المنطقة الغربية من جزيرة (غرونْلَنْد) يقتلون الدِببَة خوفاً من ارواحهم ، ثم يأكلون لحومها ، مُحتفظين بجماجمها في نوافذ مساكنهم .

ويقول (ج . لآنْدْتْمَان G . Landtman) ان شعوب (اليوكْواس Yokwas) في الهند الشرقية تقتل النِمار وتدفن جماجمها امام مداخل قراها المحصَّنة، معتقدةً بان تلك الجماجم بوسعها ان تقي ساكني القرية من شر هذه الضواري : يعتبر الباحثون في الحفريات والتاريخ السحيق قداسة الجماجم لدى انسان تلك العصور البدائية معاده الى تأصُّل القوة الطبيعية والروحية التي تحتضنها اية جمجمة بشرية او حيوانية وهذا التأصل يزداد اتساعاً .

ويستعيد (پول ورْنرت Paul Wernert) بفِطنَتهِ العلمية الروحيةِ ليصرح: (كانت للانسان الأول اغراض متعددة في حفظه الجماجم ، منها : احتفاظه بذكرى السلف ومنها اعداد القوى الحيوية ونتائجها على الأحياء ؛ مُتخللاً كل تلك الأحاسيس الشعورُ بالخوف المهيمن على الانسان الأول في كل آونة : من الانسان الأقوى ، من الحيوان الشرس ، من الظلام الدامس والغيب ، ومن قوىٰ الطبيعة وعناصرها : زلازل صواعق براكين . فياضانات وحرائق . ثم يضيف ؛ يوم كان التكامل الفيزيولوجي للانسان الأول في مطلعه ، كانت روحانيته قد بلغت درجة ملحوظة ، اسهم في احياء تلك الروحانية الساذجة ، عَجْزُ الوعي الانساني آنذاك عن حلّ اية ظاهرة طبيعية تنفجر على مرأىٰ ومسمع من هذا البدائي الأقدم .

الفصل الثالث

كيف تمثل الأحياء القدامى أرواح أسلافهم

توصل علماء الاحافير في مطلع القرن العشرين الى اكتشاف آثار عريقة جداً في قدمها تعود الى العصر الحجري المقصوب ، ثبت لهم منها ممارسة الطقوس الجنائزية . في مقدمة هؤلاء العلماء (ريناخ وسَلومون Salomon - Reinach) اللذان اتَّضح لهما بعد عميق الدرس والتنقيب وجود عبادة الطوطم ، وتعاطي السحر في تلك الأزمنة ، بانَ لهُما ذلك إثر كشفهما لحفريات (غريما لولي Grimaloli) ، قرب مدينة (منتون Menton) على شاطيء (أزور . Azur) .

في عصر الرينة ، بدت للعلماء ملامح الظن بأرواح للمتوفين ، وما لبث ان ثبتت لهم علمياً . تم ذلك الكشف عام (١٩١٦) .

واما عبادة الجماجم المتعاطاة منذ العصر الحجري الأول فانها تعني ان النفس البشرية مستقرة ، في الرأس ، برأي ذلك الانسان البدائي .

وضمن ادوات الفن البدائي لعصر الرينة الأول رسوم بشرية منقوشة على عظام (الماموث) وجدت اشكال منها في (موراڤيا) . كما بدت صور تشير لوجود (النفس البشرية) واصنام للعبادة يشار إليها كلها بـ (زّيْلابلْدِن Zielebeelden) .

وفي فجر الحضارات حين اكتشفت النار كان للاوائل نصيب وافر منها في حياتهم اليومية وفي التدفئة والاضاءة لكنهم لم يتخذوا منها معبوداً ، ولا القوا بجثث موتاهم فيها او في رمادها الحارّ ، بل اتخذوا منها وسيلة لتدفئة المتوفّى بغية استقرار واطمئنان نفسه داخل الحفرة ، أو حائمة حولها ، وما كان اولئك البشر لِيُؤْمِنوا بوجود نفس واحدة لكل جسد ، بل اكثر. هناك نفس للانسان الواحد تلبث داخل حفرته ملازمةً لجثته وفانيةً معها . ثم نفس اخرى تستمر حائمة حول قبره . تبقى على صلة باهلها الأحياء ، وبمغارها الأول ، ولعلها تحتاج إلى زاد السفر الطويل . . الى المجهول . على ان بعض النقوش التي كانت متميزّة بوضوحها وبشكلها المحدد ، فانها تشير الى الجنس المؤنث ، ذلك الجنس الذي نال تقدير وحب الانسان الأول حباً يفوق الجنس المذكر . ارتفع ذلك التقدير للمرأة الى حد

عبادتها موحدةً والى حد تسمية اسرتها بها ، وتسلُّطها المطلق على الزوج والبنين (لاماتَرْ La Mater) وقد اوضح تلك الآثار العالم البحَّاثة : (دي ويلَّندرف كوسنيانكي ، de Willendorf Kostienki) في أوربا الوسطى والشرقية . هذه الآثار اثبتت للعلماء الباحثين الدور الرئيسي الذي شغلته المرأة ، في تلك الفترة الزمنية من عصر (الرينة) وما قبله .

منذ العصر الحجري المقصوب « النيوليتي » بدأت الزراعة تنشأ . ودُجِّنتِ الماشية واتخذت عبادة الموتى شكلاً مميزاً عن سائر العبادات اقرَّته كلُّ المدارس الانتربولوجية .

اما النار فاخذ الانسان يعتبرها على كثير من القداسة ، حيث يوقدها ارتياحاً لنفس قريبهِ المُتوَفَّى ويجمع رمادها في الممرات . وجدت من هذه الآثار بقايا واضحة قرب مدينة (براسل . Bresles) الفرنسية ، كما وجدت صورة ولد في السادسة من عمره تقريباً مشيراً الى النفس التي تصوَّرها على شكلٍ ما مُحاولاً التقاطها .

ومعظم النقوش الدالة على الانسان المذكر ، مرفقة بدلالات على اسلحته كالفأس وسواها . كل هذه النقوش المؤنثة والمذكرة ، متواجدة في معظم الاحافير التي تمّ كشفها ، في النصف الأول للقرن العشرين . وكانت هذه التماثيل والنقوش مصنوعة من الخشب وعِظام الفَيلة والرينة ، ومن الحجارة وكان اغلبها مصبوغاً باللون الاحمر لعله (المُغرة) ، محفوظة على مداخل القرى او وسطها ، او في البيوت او على القبور ، حيث تمثل السلف المتوفىّ في اغلب الحالات ، ذلك الذي تُعتبر روحه واقيةً للأهلء الاحياء من الأرواح الشريرة .

كان هذا الانسان يقيم الاعياد ويقدم القرابين من ضحايا بشرية وحيوانية لروح المتوفىّ ، ويمارس الصلوات عليه بخشوع واعتبار . كل ذلك لِدرء ما يتصوره الحي خطراً عليه . وُجدت هذه الآثار في أميركا وأوستراليا وأوقيانيا . وهناك تصريح للمؤرخ الكبير (تيْلُر Tylor) مضمونه : « ليست الحجارة المقطوعة ولا الصخور وحدها مستقراً لروح المتوفَّى او السلف ، إنما يمكن استقرار تلك الروح في الحصوات او في الألوان الحادة . كانت تلك عقيدة معظم البشر البدائي على الأرض جمعاء ، وخاصة سكان المكسيك والهنودُ الاميركيون الذين يجمعون حصوات الانهار ويقدسونها ، على انها تحمل روح المتوفَّى سلفهم ، ثم هم يسمونها : «جدّي» موجهين لها كل الاعتبار ، تصوراً انها روح السلف .

هذه العقيدة بعينها تمارس في افريقيا الغربية وآسيا الوسطى . ونجد ذلك الانسان يَلمُّ الحصى ويجعلها ملاصقةً لتمثال سلفه . وكثيراً ما ينقل الحصى المسطح في جيبه اثناء رحلاته ، ايماناً منه بانها تحمل روح سلفه التي تقيه من مخاطر السفر . ثم لوحظ الانسان المقاتل انه يحمل تحت ابطه الأيسر حصاة روحية ، تدرأ عنه بطش العدو وتنصره عليه .

ويضيف المرجع نفسه ان ذلك التقدير للسلف المتوفّى المعبود معادُهُ :

١ ـ الرهبة . ٢ ـ الاحترام . ٣ ـ المحبة . هذه كل الدوافع النفسية الجائشة في الانسان البدائي او بعض منها . اذ ليس له من مفزع يلجأ اليه ، في تلك الأجواء المشحونة مخاوف وهواجس واهوالاً الا ان يتصور قدرةً عليا حريزة . فكانت تلك القدرة متمثلة بهذا السلف المتوفّى ، رافقته امينةً سحَابة اجيالٍ طويلة .

تلك العقيدة كانت ديانة معظم أناس عصر « الرينه » فعلى أي الأُسس تركزت هذه الديانة وكيف تطوَّرت وما أسباب هذا التطور ؟ ذلك ما سنراه في بحثنا اللاحق .

الفصل الرابع

ديانة الانسان البدائي

لم يستطع العلم المعاصر على ما أتمَّ من منجزات وكشوف عميقة ، ان يصل الى معرفة الإنسان الأول ، ذلك السلفُ الذي تطور من جنس إلى آخر أو كانت الطبيعة أو « الكائن الأعلى » قد خلق الناس بشراً سوياً متميزاً مشرداً في المتاهات .

نعرف السلف في الغابات والكهوف وعلى شواطيء البحار والأنهار ، وفي الجزر القاصية المنعزلة ، يعيش مع جماعة من جنسه ويقتات من معطيات الطبيعة : نبات وحيوان ويُمارسُ عادات وطقوساً خاصةً بكل بقعة حل فيها . تتقارب هذه الطقوس وتتباعد ، قدرَ التعايش ومدى المسافات بين جماعة وأخرى .

أكدً في كتابه : المُترجِم (روبير لافون) ما يلي :

١ ـ كان الجليد يغمر ثلث الأرض تقريباً منذ مئتي مليون عام . وآخِر جليد اجتاح الأرض كان منذ ٤٥ الف سنة قبل الميلاد .

٢ ـ مارس البشر بعده زراعة القمح فالشعير بالضبط في الألف العاشر قبل الميلاد .

٣ ـ إكتشف الأخصائيون في مغـار (أولْـدُواي Oldoway) عـلى كتف جبـال (كليمند جارو) بافريقيا الشرقية هيكلاً ذا شَبَهٍ كلي بالانسان (هـونينينيْن Honininien) أنه قرد يسير مُنتصباً .

٤ ـ تعـرف المنغول الشـرقيون الى اميـركا الشمـالية عن طـريق مضيق (بهـران) في الألف العاشر او الثامن من (ق . م) .

٥ ـ في التـاريـخ نفســه كـان الصينيــون يـدفنــون مـوتـاهم في مغـاور خـاصـة (تشـو ـ كو ـ تيـان Chou —Kou - Tien) وفي المغاور هـذه عُرف وجـود العائلة : رجـل وامرأة ، واولادٌ مع وجود النار وكانت اول مستقرٍ للعائلة .

٦ ـ دلت الحفريات على وجود اول انسان في اميركا الشماليـة منذ (١٥) ألف سنـة (ق . م .) وفي الجنوبية منذ ستة آلاف سنة وحسب .

٧ ـ معرفة القـدرة على الكـلام والتخاطب مـا برحـت مجهـولة ، ويعـود اول تخاطب لآخر عهد جليدي غامر .

ـ في الألف العشـرين قبل الميـلاد . كـان سكـان الأرض لا يتعـدى عـدد سكـان (لنـدن حـاليـاً) وما أنفَكَّ المرجـع نفسـه يـوضـح : كانت مغـاور (شـو ـ كـو ـ تيـان) التي مـر ذكـرهـا ، هي نفسهـا اول مكـان ظهـر فيـه الفن البشـري ، آخـذاً بـالتـطور منـذ زهــاء مليـون سنة (ق . م) وكـان هنالـك الرقص والغنـاء والتجميل ، بمـا في ذلك الرقص المقدس . منذ ذلـك الحين بـدأ الانسان يشعـر بانجـذابٍ شطرَ ذات إلهيـةٍ ، جسَّـدها بـالطوطم . وكـان قد تعـرف قبلها اي منـذ مليون عـام ، الى الصيد ، لتـأمـين غذائه ، وفي الألف الأربعين (ق . م) تحسَّس بالوعي والحذاقة والتخيل .

وتلا هذا التـاريخ نـزوع الى تقديس عضـوَي الجنس بأمـاكن وازمنة مختلفـة ، هذه النزعـة مـردهـا : امـا لِفـطرة اصيلة في الانسـان منـذ خلقــه ، او هي رغبـة ملحّــة في الإخصاب ، لِذا كانت (الألهة الأم) والعضـو المذكـر منحوتَـين منذ القـدم ، حتى العصر النيـوليتي . وقد استمـرت حيـةً هـذه النـزعـة ، لكن بـاشكـال مختلفـة حتى اعـلان

التـوحيد . فكـانـت عبادة الافعى والضفـدع والبقرة والآلهـة الأم والخصبة المـاثلة في المنزل والقلم والناي ، وكان يقابلها عبادة العجل (أبيس) والصقر وإله الآهة . وما يلفت النظر هو ان معظم الطقوس الدينية كانت عالميةً تقريباً ، منها عبادة الجماجم والسلف والـطوطم وقوى الطبيعة ، وبخاصة : الفكرة الراسخة في أعماق نفوس هؤلاء، عن غـريزة اصيلةٍ او إلهام او تبشيرٍ عُلويٍّ أعني الشعور بقوة عُليا ، وراء كل الطقوس، تتراءى واضحة حيناً ، وحيناً مُبهمة غير موثوق بها .

اكـدت هذه الحقيقـةَ العقائـدية الكشـوفاتُ التي ظهـرت بأواخـر القرن السـابق في الهنـد . على ان بعض علماء النفس (والأنْتـربولـوجيا) لم يُجمعـوا كلمَتهم نهائياً حـول أي العقائد الدينية هي الأسبق : الطوطمية ومن أنصارها (مـارغون Margon) الاميـركي أو عبادة السلف : (ملك لينَّان (Mc Lennan) البريطاني ، ولكن في عام (١٨٧١) صرح العالم (تَيلُرَ Tylor) بان فكرة الدين موجودة حقاً في الإنسان البدائي ، وان هذا الانسان قد دفعته ظاهرة الحلم والنوم الى الاعتقاد بان هناك قوة غير منظورة ، يحملها كل كائن ، هي غير جسده بل متغلغلة فيه .

وفي عام (١٩٠٥) افاد العالم (مارْيتّ Marett) انه ليس [illegible] لا الشخصية ، لا النفس ، كما هي حال الصخور ، والزوابع ، وعلماء النفس قد اجمعوا على ان تلك الحاسّة الخفية في الانسان البدائي مصدرها الباطن الوجداني في كل فرد ، وليس الدين . ولكن : (دوركْهَيْم Durkheim) في عام (١٩١٢) نقض تلك الآراء الضالـة في رأيه ، وأيـده في ذلك (تيلر Tylor) بينما مراقبون آخرون شرعوا في دراسة الطوطمية ، مـع تفسيرات شتى لهـا . معنى طوطم في الهنـدية القـديمة : مجمـوعة ادوات يُـرمَز بهـا الى اشخاص تـربـطهم القربى ، يقومون في بعض الخدمات الإجتماعية . في تلك العصور ، تُعتبرُ الطوطميةُ دوراً متطوراً من أدوار الديانات البدائية .

وقد جمع معلومات متعددة العالم (ج . فْروزَرْ J . G Frozer) في مؤلفـه : الغصن الذهبي ، لكنه في سنة (١٩١٠) عاد ليصرح :

« يستحيل رؤية ملامح ديانة مـا في الطوطمية ، لان ذلك الانسـان يرى في الـطوطم صديقاً له ، او ندّاً مادياً لِشخصه ، ليس كإِلَه . كذا فان الطوطمية لا تحمل صفات الدين اطلاقاً » .

بينما (دوركهيم) كان يرى في الطوطمية ديانة حقاً بعد دراسات اجتماعية ، تاريخية عميقة ، قام بها حول هذه الديانة . وكان البحاثة (لانْغ Lang) يُعنى بالرأي التالي : « لا مجال للظن في ان فكرة « الله » نابعة من فكرة الروح او من فكرة السلف ، اذ بين هذه وتلك هُوةٌ سحيقة هي : الموت ».

وقد رفض هذا القول العالم الاميركي (لُوِي Lowie) اذ قال : « التفكير بإلهٍ اعظم يتلاشى نهائياً ، حين تنجلي الحقائق التاريخية لتلك الازمنة ».

كان ذلك السلف هنا وهناك ، يؤمن بقوى خارقة لا يعرف مصدرها ، ولا يتأكَدَّ أياً من هذه القوى يسيرها . وتلك هي :

أ ـ المانا (Mana) ما هي ؟

يقول المبشِّر : (كودرينْغتون (Codrington) أن سكان جزر (ميلانيزيا) يعتبرون « المانا mana » قوة خارقة مسيطرة على كل ما يقوم به الانسان من اعمال : صيد وعبادة وحروب الخ .

غاية مطافها : الثراء . وقد اعتبرها بعض الباحثين اساساً لديانة .

ب ـ السحر (magie) هو فن بواسطته يسهل على الانسان الدخول للعالم بالتجاذب الروحي حيث يأتي بعمل خارق ، أنه عمل يعجز عنه الإنسان البدائي . يمارَسُ بالصوت والغناء والكلام ، وأحياناً بقرع الطبول حيث يطلب سقوط المطر . أو الخصوبة ، أو الوقاية من مكروهٍ ، وللسحر هذا طبيعة فردية .

السحر عدوُّ العلم ، لكنه سابقاً اسهم في تقدم التقنية والعلم معاً ، لانه عامل في توسيع الخيال ، ومؤشرٌ لاستجلاء بعض الغوامض ، ولو شطح احياناً عن جادة الحقائق . هناك الساحر السيبيري ، يحوي منزله شجرة تخترق السطح مرتفعة ، لتتصل بعالم الروح ، وتتحد به ، وتقضي متطلبات الانسان البدائي . وليس السحر الا صورة ثانية « للمانا » يحمل طابعاً دينياً .

على أن معظم الباحثين حطّوا السحر عن الألوهة واعتبروا هذه أعمق وأعظم سلطة .

ج ـ الاسطورة : كان يعتقد الأوائل ان الطبيعة حية ، لها خواص الانسان نفسه وكان هذا المخلوق يجد نفسه المشوَّشة في دائرة الخرافة .

تشير الخرافة الى ان الأسباب موجودة مسبقاً في العالم الأعلى . بواسطة هذه الخرافة ، يحس البدائي كأنّما هو موجود حقاً لا ضائع مشرد .

من تلك الاساطير : ان احد ابطال «غينيا الجديدة» قد تعرى من جلده المَوبوءِ ليلبس جناحَين ويصبح طائراً ، ثم عاد ليدخل في : الجلد المعطوب ؛ حين رأته احدى الفتيات تناولت الجلد وأحرقته، وحين حاول الرجل الطائر ان يستعيد لباسه الأول ، لم يجد إلا الفتاة ، وكأنما هو قد اضاع نفسه فقلق .

وكثيرة هي تلك الاساطير التي تتّخذ من الكائنات الحية نَداً لـلانسان . كـالسمك ، والحيوان ، والزواحف .

واننا لنجد في الاحافير المكتشفة عدداً كبيراً من التماثيل ، في مناطق مختلفة من الأرض ، وفي مجتمعات لاحقة فيها ادلة محسوسة لما كان يشعر به البدائيون من سُهولة وتقارب بين الانسان والطبيعة ، ولعل البدائيين هم اعمق أحاسيس ممن عقَبهم ، لانهم في صميم الطبيعة لا يلهوهم عنها لاهٍ ولا تبعدهم مشاغل .

وبقدر ما تحمل الاسطورة من ظواهر روحية حية ، بقدر ما تنتشر بتناقلها الناس في مكوثهم وترحالهم .

د ـ الطقوس الدينية : كان البدائي يعتقد بأنه في ممارسته الطقوس يزيد اقبالُ زراعته ، وفي مداراته واعتباره « للطوطم » يصل الى ما تصبو اليه نفسه .

الكائن الأعلى

كـان البحّارة يبتهلون للطبيعة وللقدرة العليا كي توقف العواصف ليؤمِّنوا صيداً وافراً ، وكانت ابتهالات البدائيين تصح احياناً ، وصحتها هذه تزيدهم ايماناً بالقدرة التي توسلوا اليها . ومثلها المزارعون ـ حين يعوزهم المطر ، يتجمعون ويكررون التضرع لتلك القدرة ، وما ان يهطل المطر حتى يصيحوا : عظيم انت ايها (الكائن الأعلى) .

يقول العالمان (هُوبِّرت وموسّ Hubert — Mauss)كأن الهندوس يقولون « لكي نتمكن من العبور من عالم الانسان الى العالم الإلهي يجب ان نَعنَى بنظافة اجسادنا ونفوسنا وتنقيتها » كذلك كانت حال البدائيين او على شيء وافر منها ، كأنما جاءهم ذلك بالغريزة او بعلم سماويٍّ مسبَّق .

ومن الأمور الشائعة في طقوس البشر الأوائل : تقديم الضحايا للكائن الاعلى ، طلباً لرضاه ومعونته ونصرته على العدو ، لكن تلك الطقوس كثيراً ما تختلف بين منطقة واخرى في العالم :

في مناطق كثيرة بأميركا مثلاً ، كان البشر يقدمون الرجال والنساء أضاحي ، وفي معظم أنحاء الدنيا يتخذون من اسرى الحرب اداة للتضحية . لكن الشعوب الافريقية في اغلبها تتخذ الحيوان ضحيةً بدلاً من الانسان ، وتلك هي طريقتهم : يعتاضون عن الرجل بتقديم معزاةٍ او دجاجة ، وعن المرأة يقدمون : تيساً او ديكاً .

الغاية من هذه الطقوس هي امكانية تواجد علاقة حية بين سكان الأرض والسماء ، وصُولاً إلى مُتطلَّبات الإنسان التي تتعدى قُدراتـِه . هذه العناصر المختلفة مكَّنت الباحثين من استجلاء حقيقة العبادة ، والنظر الى الكائن الأعلى « كقدرةٍ منفذة خارقة : حكيمة رحيمة معاً .

ولندرس لاحقاً معتقد بعض سكان (اوقيانيا) فنتلمَّس دَوْرَ تلك الطقوس في شعوبها .

الفصل الخامس

شعب الكاناك

معظم الجزر المأهولة في العالم ، تحمل طقوساً عريقة في قدمها ، لصعوبة المواصلة بينها وبين العالم الخارجي ، ولبطء تطورها الاجتماعي ، يعود ذلك القدم الى ما قبل عصر الانسان ، « النيانْدرتالي » . في متناولنا معتقد « الكاناك » (Canaque) بجزيرة كاليدونيا الجديدة ، نجده لا يعترف بما يسمى : « موتاً » بل ببقاء سرمدي ، المتوفى لا يعتبرونه ميتاً بل حياً لا وظيفة له .

لا يشعر ذلك الانسان انه سيفنى وينـدثر إذ لا وجود عندهم للعدم ، وكل متوف سيعود للحياة ليمارس مهمته فيها . أليس ذلك بارقةً للتقمص ؟ في كلٍ من تلك الجزر إيمانٌ بإلـهٍ خاص بها وليس هناك إلـه أعلى يهيمن على الجزر جمعاء . يعتقد هؤلاء بأن

الآلهة تكلمهم ، وَفي الأحلام تـرشدهم وتثقفهمَ وان لفـظة (باوو Bao) عنـدهم تعني : الله .

الغريب في اولئك ، انهم يعتبرون الإلّه هـو احَد الاسـلاف القدامى او الحـديثين ، وبأمكانه ان يتلبس صورة الانسـان ، وتبدو لهم قـدراته ظـاهرة حينـاً وحيناً مختفيـة ، وهم يُغدِقون عليه الهدايا والمآكل والقرابين من لحوم البشر .

وقد يحمل الإله الواحـد اسماء عـدة شأن كـل بطل او طـوطم عندهم ، ويمكنـه ان يختفي تحت الأرض ، فتحدثُ الزلازل العنيفة .

ولنتساءل هنا عن وظيفة الطوطم ، وعن علاقته بـالكائن الأعَـلى وعما يُصنـعُ له من كرامات وعن مصيره .

الطوطم

كنا قد حدَّدنا كلمة طوطم بمعناها : حيوان أو حشرة يتآلف مع العـائلة وَيتعايشـون في طمأنينة ، ويُعارُ هو فائقَ العناية والتقديس .

يزعم بعض الباحثـين ان الانسان الأول ينـظر الى الطوطم ، كـأنه يحمـل روح احد اسلافه ، فيَحْذر من اذيته واهماله ، ويحتضنه ويوليـه كل احتـرام ومن خواص الـطوطم ، رغبته في ملازمـة الأماكن الـرطبة . انـه غالبـاً ما يـرافق الخطَّ الأُموميَّ فيتبـع الفتاة لـدى زواجها، وهناك توحُّد بين الإنسان وبينه. وحين ينادى المرء بإسم طوطمه فذلك يعني عنده التقـدير الفـائق . وليس في الطوطم انـوثة وذكـورة . انه للجميـع على السـواء. فقبـائـل الـ (كانـاك Canaque) لا تـوحد الـطوطم والله ، لكنهم لا يستطيعـون التمييز الصـريح والفـروق الفاصلة بينهـما ، وتسمي تلك القبائـل كل انسـان يعايشهـا (الكامو Kamo) . فالانسان في عرفهم هو الجماعة ، والفردية مُلغاة ، ذلك امر طبيعي في عصر متأخر جداً ، يجهل فيه الانسان منفرداً سبلَ الحياة وتأمينها ، ومجابهة الظواهر الطبيعية .

كل ضحية تقدَّم عند هؤلاء لا قيمة روحية لها ، اذا هي لم تصدر عن يـد طاهـرة . وتحديد الطهارة تعوزه دراسة واسعة لكل عصر . اذ ليس لهـا تحديـد دقيق بالنسبـة للعصر الحاضر .

وهذا موجز عن عقيدة التونغاس وماذا حمل هؤلاء إلى القارة الأخرى ؟

(التونغاس : Thongas)

كانت تعي هذه القبائل مفردات وتعابير كثيرة استطاعت بواسطتها ان تحسن التعبير عما يختلج في خاطر شعبها من افكار .

كان العالم الكبير (جُونودْ Junod) يقول بلسان اولئك : « تموت الشاة وتفنى ، كذلك هو الانسان يموت ويضمحل ». وما اقرب افكار هؤلاء الى افكار بعض فلاسفة اليونان ، والطبيعيين المعاصرين . كانوا طبيعيين الى حد بعيد حتى في معتقدهم الديني يقدمون الصلوات مسبوقة بكلمة : (تسُو Tsou) وهي عبارة عن لُعاب دافق من الحنجرة حاملاً احياناً بعض خيوط دم . هذه اللفظة (تْسُو) تعني تقديم الضحيةِ الضئيلةِ من المرء نفسه . وكل الرفاة يعتبرونهُ سِحراً مقدساً يسمونه (مَهَمْبا Mahamba) وهذا الاسم هو الصلة الوثيقة بين الانسان والآلهة . وغالباً ما تكون (المهامبا) قطعة من جلد وجه احد الاسلاف المتوفين إما إلهةُ هؤلاء .

يزعم قبائل (التونغاس) ان الظل يغادرُ جسد المتوفَّى بعد إنحلاله، ويتابع مسيرته الى مصاف الآلهة . مقر هذا الإله تحت الأرض ، يعيش في القبور ، والقتلى السابقون في الحروب يصبحون آلهة الحراب ، والغرقى والنساء والحوامل بعد موتهم يصبحون آلهة الغم والنكد وغيرهم آلهة المعارك وهلمَّ . . وتُصنَّف هؤلاء الآلهة الى صنفين : إلهات مؤنّثة وهي كثيرة الشفقة والحنان ، وأخرى مذكرة . وعلاقة الإله بالانسان كما لو انه حيوان او حشرة زاحفة : « أفعى كُبرا » مثلاً ، حيث تدور حول الولد المريض بقصد شفائه . كذلك هي الأفعى السامة فأنها إله عظيم .

نلحظ ان الانسان البدائي يتخذ من كل ما يخيفه او يسبب له منافع ملحوظة : الهاً له . كما لا نجزم الى اي بُعدٍ يصل فكر ذلك البدائي بكلمة إله . هل يتعدى المنافع وحذَرَ المخاوف أم هو منكمش في دائرتها متخذاً له اسماء متنوعة متعددة ، يختلقها للتمويه والتأنيس ؟

الفصل السادس

پولينيزيا

وطالما نحن نعبر المحيط الهادىء ، فلنتوغل في جُزرِهِ وندرس معتقد وطبيعة الحالة الاجتماعية في : (پولينازيا) الكبرى :

لدى اكتشاف هذه الجزر في العصور المتقدمة القريبة ، سعياً وراء الاستثمار والاستعمار تمكن العلماء الباحثون من ان يتوغلوا في تلك الجزر وان يستخلصوا منها مِمّا طالتهُ أيديهم من آثار قديمة ، وما تدارسوه عن طريق تفكيرِ ومعيشة اولئك ، مما كان يؤمن به السلف في الأعصر السابقة ، وما حمل ذلك الخَلفُ حتى اليوم من طقوس وتقاليد دينية وزمنية .

يقول العالم (مورَنْهُوت Moerenhout) : « كل ما يفعله العامة والخاصة وكل ما يفكرون فيه ويلفظونه ، معاده الى الدين ، مهما يكن العمل أو الفكرة الألوهيَّةُ تبدو بجلاء في ما يعملون وما يُسِرُّون ويظهرون . كل شيء عندهم مصدره ومردُه الى الكائنات العليا المتحكمة في اقدار الناس . قبل ان يقطع الحطاب شجرة من غابة ، يقدم جزءاً منها للآلهة ، وهكذا يفعل كل عامل حِراثة وصَيدٍ وحِصاد . فلا يكون رقصٌ ولا عزفٌ ولا تنعُّمٌ بملذات ، بغير رضى تلك القدرة العليا . الآلهة في عرفهم تحيط بهم وتُسيِّر أقدارهم ، لذلك نجدهم يخافونها ويُقدِّسونها .

لدى هؤلاء آلهة عدة وانصاف آلهة ، وأبطال وعباقر يعسر التمييز الحق فيما بينهم .

في مقدمة آلهتهم (إيو Yo) ونحدد مكانته عندهم بما يولونه من اعتبار ، فيقولون مثلاً : « إيو العظيم » ، (إيو) الخالد ، (إيو) ينبوع المعارف القدسية وباعث كل حياة ، (وإيو) ذلك المصغي لكل شيء ، وهو الحافظ من كل شرّ » .

من هذه النداءات نُقدِّرُ المكانَة العظمى لهذا الإله « إيو » لدى تلك القبائل ، منذ آن تنسمت نفحات الوعي ـ أليس هذا هو الرب الواحد الأحد، الذي تنادي به الديانات السماوية المتأخرة ؟ وما يضر وجود آلهة متعددة هي دونه بكثير؟ الا يمكن ان يكونوا

ملائكة او نفوساً روحانية بالغة الصفاء ، او سلالة مطهرة مقدسة ، كما تعتبرهم الأديان المعاصرة في اتجاهاتها المتعددة ؟.

ويضيف ذلك الإنسان حول إلهه (الأسمى إيـو) « منه خُلقتِ السمـاوات وخُلق الخير ومنه انبعث السبعـون (أتّنا atna) العُلويـون . وما يسهى عنـا ما يعنيـه من قداسـة الرقم (٧٠) في بعض الديانات الباطنة المعاصرة .

إيـو : اما كلمـة (إيو) بلغـة اولئك فتعني : القلب ، النخـاع الشوكي لـلانسان ، وتعني الزبدة الخالصة لكل شيء .

ومن (إيـو) نفسه أنبعث المثلث المقـدس : (ثانْ ، وأَنَتْ ، ورنْغـو) حيث يتوحـد هذا المثلث في جزيرتي : هايتي وزيلندا الجديدة .

وتعتبر هذه القبائل لكل إلّه صغير من تلك المجموعـة السبعين، مهمـة خاصـة : إله الحـرب ، وإله الحـراثـة ، وإلـه المـطر الـخ . . . وهنـاك إلّهـات انثى ، منهـا : (هيْنا) المحبوبة جداً من العامة وهي إلّهة القمر والمرأة الأولى . غالباً ما تكون محجوبةً ، ولا تـظهر إلا حين يُستنجَدُ بها . في معظم المناطق يعترف الناس بشخصية الكاهن ويعتبرونـه الصلة القائمة بين الكائنات الروحية والأرضية .

ولنمعن في هذه الصلاة التي توجهها تلك القبائل لـدى الشروق الى الإلّـه (ايو) . يقولون :

« يـا إيـو ، أُطردِ الظلامَ وليغمرْ ارواحنا نورك كما يغمر اجسادنا مياه النهر . اسمحْ لنا بولوج اعماق المعرفة . . يا إيو الحكيم يا معلم المعرفة ، يا سرمدي » هل هنا وهنـالك أفضل من هذا التوحيد ؟ غير ان هؤلاء يعتقدون بأن الروح في الجسد يمكن ان تحل في كل جزء منه على انفراد ، ويعتبرون المرض غياب الانفس عن الجسد مُؤقتـاً . الى اين ؟ ولِمَ ؟ قـال الباحث (پوموتـو Pomoto) ان قبائـل (الكايُـوت Caillot) هنالـك في تلك الجزر نفسها تثقُ بأنَّ الروح بعد الوفاة ، تغادر بعيدة عن مقرها الأول ، مرفقة بالزاد والحـاجات الأخرى . تستقر مؤقتاً حيث مغرب الشمس عنـد التماسّ بـالأرض . ويعتبرون ان في مـا وراء الطبيعة عالمين : احدهما نـوراني والآخر قـاتم . هذا للشر وذاك للخـير . لكن كليهما

تحت البحر الهادىء ويعنيان الجنة والنار . وفي هذه الجـزر كما في ميـلانيزيـا فرض الحكـام والكهنة على شعب (التابوو Tapoo) وتعني الكلمة : الاخطار والعقوبة ، عـلى معاطـاةِ ما هو محرم عندهم ، ان (التابوو ، Tapoo) هو قوَّةٌ فوق القوى البشرية استُخْدِمت لإذلال الشعب وإفقـاره ، لكي تنعَمَ طبقات خـاصة بخيـرات البلاد واستغـلال جهـود الآخـرين المغلوب على أمرهـم. وقيل أن الملك والملكة قد شوهدا يأكلان من صحن واحد، وهـو أمرٌ مستنكر لدى العامة ، فشـاع الخبر وتنكـر الشعب قاطبـةً لقوى (التـابوو) ، وهجم عـلى الكهنة فدمَّر مستقراتهم ، وقَوَّض المعابد تشفِّياً وحقداً .

إثر هذه الثورة الشعبية على طبقة الاكليروس ومُسانِديهم ، ظلت جزيـرة (الهاواي) بلا دِين اطلاقاً حتى دخلها المبشِّرون الغربيون حديثاً فصبغوها بلونهم .

عبدت هذه الجزر اجمالاً السلف ، ولها طقوسها الخاصة ، معتبرين ارواح اجدادهم هي القوة الفائقة في القبيلة . وكان الى جـانب السلف آلهة ارفـع مكانـة روحية ، مهمتهـا العناية بمراقبة اعمال الناس ، يقدمون لهـا القرابـين ، ويترقبـون منها العَـون ، في صناعـة السفن وخوض البحار ، وفي العمليات الجنسية ، رجاءَ الإخصاب .

كما كان لهؤلاء آلهـةٌ اسمى ينسب اليها خلق العـالم مثل (تنغـالُوَا Tangaloa) إلـه البحـر والحامي لـلأرستقراطيـات البولينـزية : غُـزاة الجزر سـابقاً وكـان لهم الإله (تـانْغو Tango) الحامي للغابـات وحارس النبـات . وكان يشـرف الكهنوت عـلى طقوس التعبُّـد الناشط حيث تسيطر الدولة .

والشعب كـان يقف امام المعـابد مكتـوفَ اليدين ، محـظوراً عليـه دخـول المعبـد ، بانتظار اشارة من الكاهن المختص . وكانت تقدم للآلهة الذبائح البشرية ، ومن يتلكأ عن القيام بالطقوس المفروضة ، يحكم عليه بالقتل الفوري .

كـان الكهنة قسمـين : احدهمـا يؤدي الطقـوس ، والآخر يتلقى الإلهـام ، ويكـون وسيطاً بين الإله وعباده . وقد ينزل الإله فيزور تمثـاله ، ويتلقى القـرابين ويعـطف بزيـارة للكاهن الأعلى .

في (ميلانيزيا) خاصةً شاع الايمان بسلطان السحر ، يمـارسه الفـاشلون في مَهمَّاتهم

اليومية ، ولفرط شيوعه وتخدُّر النفوس بتعاويذه ، اضطرت الدولة الى مكافحته بعنف بالغ . مقابل هذه الطياشة ، كانت جماعات تتعاطى العبادة السرية ، المحظورةَ على النِسوة .

وحَوالَي العام الألف قبل الميلاد ، رحل عن الملايو قبائل كثيرة ، فنزلوا (مدغسكر) ناقلين معهم حضارتهم تلك ، بما تحمل من عادات ومعتقدات ، وقد تغلبُ على كل معتقد عقيدة تأليه السلف فامتصَّت سواها ، ووحَّدت القبائل الأصيلة والدخيلة في الجزيرة . قد يتساءل آلإنسان : هل كانت للافكار الخاصة بخوارق الطبيعة آثار هامة في تاريخ الحضارة ، بما فيها الديانات ، ام كلها قائم على اساس العقل ؟ سؤال يجيب عليه الواقع منذ القدم . ففي جزيرة (بورنيو) حين يزمع الشعب على السفر يراقب طريقة طيران الصقر . كانوا يؤمنون بكائنات غير بشرية ، تظهر بصورة تماسيح مسيطرة على تصرفات الفرد .

لكن (دوركهيم) يقول في اوستراليا قائمةٌ عبادةُ (الكائن الأعلى) إنه ازلي ابدي يسيِّر الكواكب ويرسل الصواعق ، وهو الخالق لكل الكائنات . صنعَ الانسان من طين ونفخ فيه الروح ، وهو المثيب والمعاقب .

أكّد هذا كله طه الهاشمي فقال : « إنما وجدت المُعتقدات عند هؤلاء الاوستراليين ، بعد البحث والتقصي منذ الزمن السحيق . لم يقتبسوها عن اوربا او عن اي مبشّرٍ آخر . كانوا يرفعون ايديهم الى السماء ، عند كل ابتهال ، أكان ذلك وحياً أُنزل عليهم ، أم ماذا ؟ في وقت كانت فيه الجيرة في خضم من التغفل . تلك هي العقيدة الروحية لسكان الجزر في الجنوب الشرقيِّ من آسيا .

فهل هذه العقيدة اصيلة في اولئك ام هي مستعارة من جيرانها في وسط آسيا وشماليها لنتابع :

الحياة في آسيا الوسطى وفي شماليها : سكان هذه المناطق الشاسعة ، تعرضوا في الأزمنة الخوالي الى عوامل كانت تدفع بهم موجاتٍ عارمةً الى هنا وهناك . وما من ريب في انهم كانوا ينقلون معهم ما اختزنوا من ارث روحي ، وعادات زمنية ، شأن كل مهاجر .

والسكان المقيمون ما برحوا حتى اليوم ، رغم التيارات الروحية المتنوعة ، من برهمية لإسلام لِمسيحية ، يمارسون كثيراً من طقوسهم السالفة .

الفصل السابع

الشامان

هؤلاء يعتقدون بوجود : ارواح قائدة في الطبيعة ، يعيرونها كامل الاهتمام والتقدير ، ويلجأُون اليها في مختلف الطقوس والوسائل الممكنة . تلك الأرواح هي ارواح القديسين (الشامان Chamans) التي تُمكِّن صلة عالَم المادة (الانسان) بعالم الروح . (الآلهة) .

يرون في الكون عوامل ثلاثة متضادة ، بحيث ان ارض كل واحد سماءٌ للتالي ، والعالم الوسط هو الـ (Toungou التونغو والمنغول) ومجموعات أخرى بشرية ، غير مرئية معظم الأوقات ، وهو العنصر الحيوي الذي يتعذر على الحواس تَقرِّيه . هؤلاء يتقاسمون الأرضِين . يقطنون الجبال والبحار ومجاري المياه . اغلبهم حيوانات ولكن يسيِّرهم (الروح القائد) . كذلك هي الحال في ساكني الأحراج ، حيث يسيطر الدب ، والروح القائد فيهم يُهيمن على كل الأنواع الوضيعة ، حتى اسماك المياه الحلوة .

وبجانب عالم الحيوان هذا ، فان الجبال والصخور و. كلها مأهولةٌ بأَرواح اسطورية خرافية مختلفة ، وغالباً ما تجيء ارواح تائهة ، خارجة على الشريعة وشريرة ، تسبب قلقاً ومخاوف لحياة الناس .

وعلى حوض نهر (الأمور) تُعتبر الدَبَبَةُ متميزةً وهي على صلة وثقى بالانسان ، بل اهلٌ له . وان العالم السفلي هو تحت الأرض والصلة بين العالَمين هي المغاور العميقة او الثقوب في لُجَج البحار . في ذلك العالم السفلي تسكن ارواح الموتى او بعضٌ منها . والحيوانات التي يقتلها الموتى في عالمهم ، تعود لتتخذ اجساداً جديدة على ارضنا ، والعكس ؛ وقيمة الاشياء معكوسة : فمن كان عجوزاً او غريقاً او فقيراً او حتى ميتاً على الأرض ، يغدو هنالك شاباً وغنياً وحياً . والليل هناك والنهار متعاكسان ، ومثلهما كل الفصول . يعتبر هؤلاء ان لهم إلهاً رئيسياً خصباً . اما علاقة العالَمَيْن والصلة بينهما ، فتقوم بها بعض الحشرات والزحافات : الخلد والقنفذ والبط وسواها . وقد لوحظ وجود رسوم لهذه الحشرات على الأواني المنزلية ، تكريماً لها ، لتسهيل مهمة الاتصال بينها .

مهما تكن قيمة العالم السفلي ، فان فيه ارواحاً مسيطرةً ، هي القدرات السماوية ، عبَّرت عن دورها بوضوح الاقاصيص الخرافية عندهم . وخلا ذلك فان قبائل

(البُوريات ، Bouriat) تـظن ان لها سمـواتٍ تسعاً من النـاحية الغـربية ، ولكـل سماء إلهها . وكل هذه الآلهة هي ابناء (للسماء الأزليَّة) .. ولها جميعاً سلالة تعد تسعة وتسعين (تهانَهاريس Thenaheris) غرباً . بينما المناطق الشرقية فان لها آلهتها غير الصالحة .

كذلك هم سكان المناطق الشمالية (الياكُوت Yakoutes) لهم تسع سموات وتسعة الهة . لكن شعوب (التركو مونغول) يرون السماوات مقراً لأرواح موتـاهم ، والصلةُ بين العالمين اعسرُ منهـا بين العـالم السفلي ، والجبـال الشامخـة ، والأرواح والنسور هي السبيـل للصلة بين هذين العالَين . كـما ان اشخاصـاً قلائـل متميزين من رجـال ونساء قـد وُهبوا القـدرة على الاتصـال بالأرواح السمـاوية ، ويـطلق عليهم اسم : الـ (شـامـان)، هـذا (الشامان ، Chaman) يجلس صامتاً وجامداً بأنتظار سَماعِهِ الوحيَ السماوي المُنزل . ولدى نزوله يشرع في الرقص وقرع الطبول والغناء .

وحين تتم (للشامان) هذه الصلة العليا ، ينادي بصحبـه من الأرواح السماويـة ، فيتبـادلون الأفـراح ويقضون لـه حاجـاتِهِ الـدنيويـة . بهذا يصبـح (الشامـان) او الكاهن العريق له سلطة إلهيَّة للشفاء من الأمراض ، والدفاع عن صحبه من الأرواح الشريرة غـير المنظورة .

وما دمنا في المناطق الشماليـة من آسيا فلنـا بعدهـا خطوة واسعة شمـالاً حيث نلتقي (الأسكيمو) ونتعرَّف الى طقوسهم .

الفصل الثامن

الأسكيمو

عـاش هذا الشعب في أوربـا في نهايـة العصر الجليـدي ، واختفى بـاختفـاء الجليـد منها . يقطن المناطق الشمالية من اميركا وآسيا .

ان اسكيمو (غريندلندا) الشرقية ظلت محافظة على كثير من طقوسها ، رغم مَوجْاتِ المبشرين المسيحيين المتكررة . معظم هذا الشعب يمارس عبـادة إلهة البحـر ، ولا غرْو فهـم لا يرون الا المياه والثلوج . تلك الألهة هي موزعة الخيرات ، وسيدة الحيوانات البحرية .

هي سيدة (مقر العالم) تعيش في الأعماق أو في مكان متجمد مرتديةً جلد (الفوقه ، ولهذه الألهة أسماءٌ متعددة حسب المناطق التي تؤمن بوجودها. فهي حيناً: السيدة صاحبة العظمة ، وحيناً روح الأعماق الخ . . لا ترغب في الزواج اطلاقاً . وذات يوم ، بينما كانت تمخر العباب مع والدها ، هبَّت عاصفة عاتية . تخفيفاً عن الزورق ، القى بها ابوها في اليم. حين حاولت الوصول إلى الشاطىء قطع أصابع يديها وفقأ عينيها،وحين سقطت اناملها في الماء استحالت حيتانا وفوقةً ، اما هي فقد هبطت العالم الأسفل وغدت سيدته . وتحوم حولها أقاصيص متنوعة خارقة . ثم اطلق عليها اسم (سدنا Sedna) الى جانب هذه الإلهة الانثى فان (للأسكيمو) إلهاً اكبر كذلك يمثل قوة الرجولة في خصبها ونزقها وعنفها ، انه سيد الصاعقة والثلج . لا يعترف بغيره إلهاً سكانُ ألاسكا . هو (روح القمر) . يسكن العالم الأعلى في منزل بجوار القمر ، وحين يهبط الأرض يسير على عربة يجرها بعض الكلاب ونِدُّهُ هي الشمس شقيقته ، ولدى كسوف القمر او الشمس كل جنس يتأثر بعمق ، مشدوداً الى جنسه في السماء.

ان القمر يتعهد الصبيان ويحرسهم من الأمراض والأحداث وحين يتوفى ولد ما ، تظهر على القمر إمارات الحداد . غير ان الشمس بعكس ذلك ، فانها تتبرَّج لدى حدوث أية كارثة للجنس المذكر او اي فلاح للجنس المؤنث . وكأن القمر حسْبَ عظيم سلطانه اصبح الهاً للبحر والأرض معاً ، في مفهوم اولئك (الأسكيمو) .

يوكل الى روح القمر الحساب على اعمال البشر وتقييمهم . ولدى هؤلاء آلهة اخرى في المرتبة الدنيا : كروح الهواء مثلاً . . لكن السائد منها روح القمر ، المعروف لديهم منذ عصر (الرينه). كان هؤلاء الاسكيمو يعتبرون الانسان في تصرفاته المُغايرة سبباً لكل الكوارث التي تنتاب البشر وتشوِّه مسارَ طبيعة الأشياء على الأرض .

الباب الثالث

الفصل الاول

معتقدات أميركا القبكولمبية

بعد ان فتح « كولمبوس » اميركا ، واخذ الاسبان والبُرْتُغاليون يتوغلون في ارجائها الشاسعة ظفر العِلم بباحِثِينَ اكفاء تغلغلوا بين شعوب هذه البلاد ، واكتشفوا الاحافير وحققوا ما طالعوه من رسوم وآثار ، حتى وصلوا الى النتائج الآتية ، عن بلاد كانت مغمورة بالنسيان . ان جنس (التُوبِي Tupi) كان قد غزا اميركا الجنوبية في عصر متقدم ، طارداً ما خلاه من قبائل ، كما فعل قبله بكثير ، جنس (الجاز Gès) الذي ما برح نازلاً في اواسط البرازيل ، متخذاً له اسماء متنوعة .

كان مع قبائل (التوبي) من المجتاحين قبائل (الكَرَجاس Carajas) قادمةً عبر المياه . ما زال بعض منها في جزر الانتيل وشمالي القارة الجنوبية . ينزل هؤلاء على ضفة احد روافد نهر (تَكَنْتِيْنْ Tacantin) ولا يغادرون المناطق المائية من انهر وبحيرات . يسكنون جماعات في الضياع المتفرقة النائية . ولكل من هذه الضياع رئيس مهيمن . مساكنهم خيام مصنوعة من ورق البلح البري لتقيهم حرارة الشمس وصقيع الليالي . من زراعتهم : البلح والذرة والتبغ وقصب السكر . ومعظم غذائهم السمك . والصيد المائي . هوايتهم المفضلة وسلاحهم : النشاب .

ومـا يعير الانتباه في تلك القبائل القلائل ، أنهم دائماً عُراةٌ، أما نساؤهم فيحجُبنَ العضو الجنسي ، وكلُّهم ذكوراً واناثاً يتمتعون بنعمة الفَرح ، فهم دائماً مرحون راقصون

مغنون مهما عسر حالهم . ومن عاداتهم : حين يمرض احد ابنائهم يلازمه ابوه طيلة مرضه . وإذا غادره تعرّض الولد للموت . وللنساء تعابير مختلفة عن تعابير الرجال ، فتقول المرأة عن شيءٍ حسن : (أُوِيكْرا Aouikré) ويقولها الرجل (أُوُيْرا Aouiré) . من معتقدات (الكَرَجاس Carajas) انهم سابقاً كانوا يسكنون الأعماق . وهناك بحيرة صافية رائعة المنظر ، لا يقربونها لان لها سلطةً روحية بالـ (تابُو Tabou) . وما كانوا ليعرفوا إلا الأرض . يمرضون ولا يموتون تحت الماء. وذات يوم مرض ابن رئيسهم فأعيى السحَرة والرُقاة مرضه ، واخذ الشعب يبحث عن علاج له . بعد جهود مضنية تراءى لهم ثُقب وضياء فانفلتوا منه ، اذا هم على سطح الأرض يمتعون ابصارهم بأروع المشاهد ، ويسمعون اعذب الانغام ، ويتنسمون اطيب الأعراف ، شدَهُهم واغواهم هذا المناخ السحري ، لكنه لم يُلهِهم عن البحث عن العلاج المطلوب . صادفوا وعلاً يدعى (بورورِي Borori) وكانوا يحسنون الكلام بلغة الحيوان ، فارشدهم الى ثقب شجرة ضخمة يحوي اطباقاً من العسل ، مؤكداً لهم انه الواقي الناجع . حملوا العسل وانكفأوا الى مقرهم تحت الماء ، حيث العزلة الكاملة . قدموه للمريض فشفي . ثم اغروا ذويهم بالصعود معهم الى السطح حيث المباهج والمفاتن .

حذَّرهم الساحر من الصعود فلم يرتدعوا . وما صرفوا ردحاً من الزمن حتى بدأت تطالعهم انواع المآسي : اوراق تصفر وتتناثر ، عواصف وزلازل تُرعد الفرائص ، مخاوف ومجاعات وتقاتل ، وأخيراً موتُ ، ذلك الذي ما كانوا ليعرفوه في ديارهم .

اصروا على العودة الى بلادهم ، ومفارقة كل هذه المباهج الزائلة ، طالما هناك موت . لكنهم لم يهتدوا الى الفوهة التي توصلهم لأرضهم فاضطروا ان يمكثوا على الأرض وعلى ضفاف هذا النهر بالذات .

في كلٍّ من قرى هؤلاء القبائل ساحر هو الطبيب الشافي .

لا يعرف هؤلاء ماذا بعد الموت حين غدوا على السطح ، وكل ما يقومون به من متطلبات الجنازة انما هو تقليد ، مصدره العاطفة لا العقل المفكر في ما بعد الوفاة . كان هؤلاءِ يؤمنون بقدرة خارقة هي (الكناهُويّا Kanahyuwé) التي يمكن ان تعتبر إلهاً لهم ،

انه صالح يسكن السماء وهو قريب مؤنس للبشر . لكن هذا الاله اخاً عاتياً جباراً .

مجمل القول ان تلك القبائل لم ترتكز عقيدتها على إله واضح بمعنى العظمة المطلقة .

هنـاك رأي في معتقدات تلك الشعـوب لخَّصه تـاريخ البشـريـة فقـال: «إن قبـائـل (الأَمَرِنْديان Amérindiens) قلائل العدد لهم طقـوس وعادات مختلفـة . آمن الاقدمـون منهم بعقول متعددة : شمس وقمر وجبال وحيوان . كما رضخوا لسلطان السحر والـرقص والمـوسيقى . وكانت اميـركا الـوسطى والجنـوبية بـذور ايمانٍ : بـالعقـل الاعظم، وقبـائـل (الزابوتيك Zapotèques) في المكسيك الجنوبية كانت تؤمن بقوةٍ خـارقة مُسيِّـرة ، لا بِدءَ لها ولا نهاية . لهذه القوة آلهة صغار يسكنون الكهوف . وقد عبدت قبائل الـ (مياس) الهاً هو (هُونَبْ ـ كُو Hunap — Ku) اي الواحد المفرد ، وهو غير مـرئيٍّ وبعيد عنـا . وكان لقبائل (الأزتيك) مخطوطـات على ورقٍ ظهـرتْ قبل اختـراع الأوروبيين لهُ مؤخراً ، عليـه تقويم دقيق وسابق يستعمله الكهنة . وكان لهم اله بعيد وغير مرئي هو (تيوتْـلْ Teotl) . لكن قبـائل (الأميـرنْدِيـان) فقد آمنـوا بحياة مـا بعد المـوت . كيف ؟ بشاهـدٍ من الأهرامات الضخمة الدالة على تقديس موتاهم ، وتقديم القربان والذبائح الحيوانيـة لهم . وكانت للكهنوت سلطةٌ عليا على الشعب زاعمين ان الـ (Sapa —Ynca السَّپا ـ ينْكا) اي القدرة الخارقة ، هابطة من الإله (الشمس) .

الفصل الثاني

المكسيك

من ضـاحية البـرازيل جنـوباً ننتقـل الى المكسيـك وطقـوسهـا ، وأيُّ التـأثيـرات ، طالعها ، روحاً واجتماعاً ، من قبائل البلاد المتاخمَةِ ، ومن الموجات البشرية النـازحة اليهـا في الأعصر الخوالي .

يقول الباحث (جاك سُوتالّ Jac-ques Soutelle) : « عاشت قبائل الـ Lacandons ، لاكَندُون) على حدود المكسيك (غواتيمالا) في المناطق الرطبـة ، دون ان يتأثـروا بالـدُّعاة

المبشرين . كان هؤلاء الهنود يمثلون آخر ما تبقى من آثار المدينة المسماة (مايا Maya) تأثّروا بهذه المدينة وتكلموا لغتها ، وعبدوا آلهتها ، معبودةَ سكان الـ (Yucatan يُوكاتان) ولم يبرح الى اليوم من احيائهم الذين يذكّروننا بتلك الحضارة الغابرة .

كانت ديانة هؤلاء مختلفة بين منطقة واخرى من البلاد ، للناحية الشمالية الغربية من المكسيك ، آلهة عدة ذات علاقةً مباشرة بالأهلين . وفي الناحية الشرقية الجنوبية كانت « الشمس » هي الإله الاكبر ، وذات السلطة العظمى على سائر الآلهة .

كل اولئك الهنود ، كانوا يتصورون آلهتهم بشكل بشر ، من كِلا الجنسين . تجانسهم وتشاكلهم حياتهم ، وغذاءَهُم ، ومتاعبهم ، وتزاوجهم . غير ان الخاصة المميزة فيها هي ان لها قدرات فائقة ، وانها لا تموت ، ومُعظمها خيِّرٌ . كان لكل قبيلة إلهها الخاص بل طوطمها ، على ان الحيوان الطوطمي في عرفهم لا يَحمل اية اشارة قدسية .

بعض آلهتهم ، في اعتقادهم يسكن السماء ، وحين ينزل الأرض ، يتخذ له مقراً على شواطيء البحيرات او وسط الخرائب .

أبرز آلهتهم : إله المطر والنار والأفعى ، وإله الغابات الذي يثور غضبه اذا قُطع فرع من شجرة في حرج .

في اعتقاد تلك القبائل ان هناك عالماً تحت الأرض بحكمه إلهان اخوان (أوزُوكُون Usukun وكُوزُن Kusun) هذا الأخير شريرٌ عنيف مسبب الزلازل وباعث الاذية للناس . . اما الإله (أوزُوكون Usukun) فكانت مهمته الرئيسية ان يحمل الشمس (كين Kin) في انحرافها للمغيب تحت الأرض ، على كتفيه ، سائراً بها في اتجاه معاكس ، لتعود مشرقة في صباح اليوم التالي ، بعد ان تكون زوجة الإله السُفلي ، قد اعدّت لها الغذاء اللازم .

يمثل هؤلاء الشمس برجل بَهي الطلعة يتلألأ رأسه نوراً ، وزوجته القمر (أوكْنا Okna) .

وقبائل الضاحية الشرقية الجنوبية من المكسيك الذين يعيرون الشمس (كِين Kin) ذلك التقدير العظيم . يقدمون لها الضحايا إرضاءً وتدليساً ، كيلا تنقطع عن المسير والإشراق فيغرقون في ظلام دامس ابدي .

ان القربان الذي يقدمه هؤلاء الهنود للشمس ليس بشراً شأْنَ بعض القبائل ، انما هو : البخور النباتي والذرة واللحم العادي ، والتبغ احياناً .

وفي بعض حفلاتهم الكبرى ، يقوم اخصائيون بصناعة شراب من عصير قصب السكر والذرة ، ممزوجاً بِلِحاءٍ مقدَّس ، فيقدم للرجال والآلهة شراباً مسكراً . أما النساء فمحذور عليهنّ ذلك ، زاعمين ان المرأة في حال لمسها اللحاء تفاجأ بالموت العاجل .

(لِقبائلِ اللاّكَنْدون Lacandons)) معتقدٌ بالموت مُتباين . بعضهم يظن عالم الموتى في اسفل الأرض ، وآخر في السماء، وفريق يزعم ان ارواح المتوفَين تسير مع الشمس في رحلاتها . الى متى ؟؟ واذا كان المتوفَّى رجلاً ، ترافقه معداته الحربية ، وبعض الغذاء للعالم الآخر . اما المرأة فانها في خِصبٍ دائم حتَّم عليها الخلود . والأرض هي المعطاء الوحيد للنبات والنساء ، ولدى قحلها تحدث الأمراض والموت .

هنود الـ (أزتيك ، : Les Aztèques)

قبل أن تصبح قبائل الآزتيك لآسيا كانوا للمكسيك ، وكانوا قبيلة واحدة لها آلهتها شأن سائر القبائل .

يؤمنون بمجموعة من الآلهة منها : آلهة الصيد ، وهي السائدة، لوفرة ما يصطادون وما يسدُّ ذلك الصيد من حاجاتهم الغذائية . وإله الحصاد ، والزراعة . ويقدسون آلهة انثى هي : (الأرض الأم) و (الأم العذراء) و (الأم العجوز) . وهنا تبدو في وضوح قيمة الأرض ، وحاصلاتها ، كما تبيناهُ سابقاً ، في نواح اخرى بعيدة عن المكسيك ، لكنها مناطق زراعية ، تعير الاعتبار الكامل للأرض وانتاجها ، وللمطر والصيد. كل ذلك برهان ساطع على أن تلك القبائل كانت تتخذ من آلهتها عوامل تسهِّل

سبل المعاش ، وتضمن الرفد والخيرات بواسطة قوىً غير منظورة وقـادرة ، تتحكم منفردة ومجتمِعةً بالمصير . لهؤلاء الهنود الهُ صلة بين الهِ الحرب وإلهِ الزراعـة هو (كْسيبْ Xipe) يقدَّم له المحاربون الضحـايا من اسـراهم ، ويرمـزون اليه بـ (سنبلة الـذُرة) . والذرة من اعظم ما تنتج البلاد زراعياً .

أما الإله (تلالُوا Tlaloe) ذو العينين الواسعتين والأنياب البارزة ، فانـه إلهُ المـطر والصواعق والجبال . يظهر منفرداً مرةً ومرة كمجموعة آلهة .

انـه في الوقت نفسـه إله الخـير والشر معـاً . تُقـدَّم لـه الضحـايـا من الاولاد حيث يغرقونهم في مياه البحيرة ، ودموع اولئك تبشر بهطول المطر . يعتقد اولئك بـان المحاربـين والنساء الحاملات اذا توفّوا ، تصعد ارواحهم الى الشمس لتـرافقها في مسيـرتها . ولعلهم يعنون النور القدسي الذي يذهب اليه المطلق اليوم .

ولهم اعتقاد بإلهة هي زوجة إلـه الذُّرة تـدعى : (Curnavaca ، كُورْنـاڤاكـا) تُفتح الازهار وتبعث الاعياد والموسيقى ، ويرمز اليها برِيشْتَين على رأسها . لهـذه الإلَهة سيـطرة على الحب الجنسي .

في معتقـد هؤلاء الهنود ، ان القمـر سطح مستـديـر ، منقـوش عـلى صفحتـه رسم أرنـب ، وليس له تـأثير ولا قـداسة خـاصة . امـا الشمس فانها متعـطشةٌ للدمـاء متـطلبـة للضحايا . يتحسَّس المطلع على هذه المعتقدات تلاشي الروحانية بنظر الجماعة ، وتركيزهم على ما يُغدَقُ عليهم من نعم تأميناً لِلإستقرار .

كانتْ لِقُدامى المكسيكيين اساطيرُ مُذهِلةٌ منها ما يتعلق بـالكون كقـولهم : ان الإلَهة (الشمس) قـدَّرت اربعة أعصرٍ متتـابعةً ، كـل منها ينتهي بـطوفان . العصر الأول ينتهي بأبادة الهررة البرية الضارية . ونهاية العصر الثـاني ، اعاصـيرُ تدمـر العالم ، وتحيـل الناس قـِرَدة ، والثالث ينتهي بـأمطار من لهبٍ ، والأخير بطوفان ، وعصرنـا الحالي تكـون خاتمتـه الهزات الأرضية في كل مكان . وهم يرون في العالم السفلي سبع طبقات وفي السماء ثـلاث

عشرة طبقة شأن سائر الهنود الاميركيين . لكنهم يعيرون اهتمامهم للجهات الاربع وللرقم : أربعة . ولكلِ جهة منها إلهُها ولونٌ خاص بها : اللون الاحمر للشمال والابيض للجنوب والاصفر للشرق والازرق للغرب .

ومهمة الكهنة في نهاية المهام ، تقديم الضحايا من اسرى الحروب ، باشعال النار على صدورهم . ولم يبدُ عندهم لهذه النار أيُّ دور لقداسةٍ خاصة .

وعلى قدر ازدهار حضارة اولئك الهنود (الأزتيك Aztèques) يكثر تقديم الضحايا ومعظمها الأسرى . والطريقة الشائعة عندهم هي هذه : يُقبِل الكاهن على الأسير بعد ان يضعه على مرتفع فيبقر بطنه ، وينتزع قلبه ، ليقدِّمه ضحيةً للشمس المتعطشة للدماء.

لهذا نجد المحاربين منهم ، يتحاشون قتل اسراهم بغية تقديمهم قرباناً لآلهتهم . ومن عاداتهم في تقديم الضحايا هذه ، أنهم يُمهلون الضحية سنةً كاملة ، خلالها يقدِّم لها الوان الملابس والمآكل وطيبات الحياة ، وفي نهاية العام تصبح فريسة تلك التقاليد .

الفصل الثالث

ديانة اميركا الوسطى

إن أول البشر الذين التقى بهم الإسبان عشيَّة فتح أميركا هم (النيكاراس Nicaras) في اميركا الوسطى بدولة (النيكاراغوا Nicaragua) اليوم ، اقتبس هؤلاء حضارتهم ومعتقدهم من المناطق الشمالية ، وكانوا على قسط وافرٍ من الحضارة البدائية . انما كانت ديانتهم مختلفة عن معتقدات الأزتيك يعتقدون بإلهينِ هما : (تاما غوستاول ، وتَمْغاسْتا Tamagostol , Tamgasta) وزوجتهما (Cipatonal سِيْپا تونال). من هؤلاء انبثقت البشرية جمعاء . متخيلين ان هذه الارباب كانت تسكن الأرض حتى وقتٍ قريب قبل صعودها الى السماء.

ان الإلهة « سيپاتونال » هذه ، هي نفسها إلهٌ عند المكسيكيين مع اختلاف في الجنس لدى الآلهة ، كما يحدث كثيراً هذا الاختلاف في مناطق عدة من العالم القديم .

آلهتهم المتشابهة بآلهة المكسيك منها : إله المطر والخصب وإله الرياح (هاكوكْت .

Hékoct) وهناك إلّه خاص ، مهمته رعاية شجر « الكاكـاو »، بالنـظر لوفـرة وفائـدة هذا الشجـر عنـد تلك الجـاعـات . يعتقـدون بـالعـالم السفـلي المحكـوم بـإلـه واحـد يسمى (ميكْتانيتوتْ) حيث جهنم ، والاشرار . اما المحـاربون فـان ارواحهم تصعد الى السماء حية بين الآلهـة . نلحظ ان في كل هـذه المناطق ميـزة كبرى لأرواح المحـاربين : معـادهم للسماء . تلك القبائل ترى في المحـارب نصف إلّه لانـه يقيها من الأعـداء المتواجـدين هنا وهنـاك ، وفي تقاتـل متواصـل ، ارضاء للغـريزة الاصيلة في نفس الانسـان ، التي تدفعـه لكسب المعاش اولاً ، وأرضاءً لكبـريائـه الحيوانيـة ولشهواتـه الجامحـة . تلك الغريـزة التي سـايرت الاحقـاب منذ الانسـان الأول ، وما بـرحت متكمشة فيـه متغلغة في جـوارحـه ، مُتخذةً لها في كل جيلٍ اعذاراً باطلةً لأسبابٍ برَّرت جموحها واستشراءها ، ودليلنا التاريـخ الصادق في صفحاته الغابرة والحاضرة .

شأن كل القبائل الهنـدية وسـواها في الاميـركات الثـلاث ، يعتقد الشعب بحـدوث طوفان مُدمِّر مبيد ، في فترات زمنية غير معينة ، يعقبه تجديد البشـرية بـواسطة إلـه خاص وزوجته . ولم يحدث التاريخ العام عن وجود غير هذين الإلهين ينبعث منهما البشر والحيوان معاً . ذلك ما يشيرُ إلى تأصل القربى بين الجنسين في معتقد اولئك الغابرين .

ومن غـرائب اعتقاداتهم : اذا توفـي طفـل لهم ، قبـل ان يتذوق طعم « الـذُرة » تبعثه العناية العليا الى أهله ، في ولادة مقبلة . هذا ما يوضح قيمـة «الذرة » في عرفهم ، وما يشد روابطَ المادة بالروح .

وتتشابه في تلك الأرجاء عادات اقامة الحفلات ، وتقديم الضحايا للآلهة المتعـطشين لامتصاص الدماء .

طال توارث تلك الطقوس ، حتى عمت الشرق والغرب والبلاد المنعزلة « اميركا » . إنها : تقديم الضحايا ، وخاصة ضحايا الأسرى . لماذا ؟؟ لتظل « الأنا : الذئابُ الفاغرة أشداقها على مَدِّ الادوار ، فترضي بما تيسر لها ، ذلك الإلّه ، او هذا الـطاغوت الانسـان السليط .

يمتلكون الأسرى ويـربونهم الى اليـوم الموعـود ، يوم يتفنَّنـون في قتلهم وبَقرِ بـطونهم وانتزاع قلوبهم ، قرباناً لإله الشمس او لغير إله .

لماذا يحتفظون بجماجم هؤلاء الاسرى ؟؟ وهل وراء هذا الطقس نفحات روحية تَقدِر ما تحويه الجمجمة ، وما يربط هذا المحتوى بالعالم الأعلى ؟؟ هل هم يعرفون ان العقل المستقِر فيها هو شرارة من « العقل الأسمى »؟ فاذا كان كذلك ، فلماذا يقتلون ؟؟ انها الغريزة التي أعيى القرونَ تهذيبُها وصقلُها .

ديانة قبائل (المایاس : Mayas)

استعان الباحثون لمعرفة اسرار الديانة « المایاسية » بكتابهم المقدس : الـ (Chilambalam ، شِيلمْبَلام) الذي يعكس آخر تطورات ديانة أهل « اليوكاتان » وحَسَب وضع البلاد الجغرافي وعلى قدر القدم ، تبدو الطقوس الدينية لهذه القبائل . يظهرون لنا بعض آلهتهم انصاف حيوان وانصاف انسان . لعل معادَ ذلك الى ما اشرنا اليه من روابطِ قربى بين الجنسين منذ الذرِّ الأول . لهؤلاء آلهتهم الخاصة المشابهة لآلهة القبائل المجاورة ، تماماً مع اختلاف في اسماء الأعلام . هناك إله المطر ، والصاعقة ، والخصب . يرمزون الى كل إله باشارة دالة : من فأس الى سنبلة ذرة الى افعى . اما المياه فلها إلهتها الانثى مُجسَّدة بشكل افعى مستديرة . ولكن إله الذرة هو المفضل ، والأكثر استجابة للمستغيثين به ، حاملاً على رأسه حبّة ذُرة (كان Kan) .

مقابل الآلهة الخيرين ، فأن لهؤلاء آلهةً شريرة . كما رأينا عند سواهم . حتى هذه الآلهة تحتاج إلى آلهة مساعدة على قهر آلهة الشر ، منها إله الموت (أهپُوش Ahpuch) والإلّه المسيطر على الجحيم (كيزِن Kisin) ، ومنزله في العالم السفلي .

يتبين لنا من تلك المعتقدات المتقاربة والمتباعدة ، وضوح ازدواجية الالهة في القارات الثلاث : اوقيانيا وآسيا كذلك اميركا . تأكيداً على الفكرة التي اعتنقتها الأديان السماوية المعاصرة المعبرة عن وجود عناصر : خير وشر ، وعن دوام الصراع بينها حتى الحشر .

هذه الفكرة المبثوثة في تلك الديانات ، قديماً وحديثاً ، تقطع على الوعي الانساني المتصاعد أمل سلام عام ، وإنسانية عريقة فُضلى ، وتحويل أدوات القتل والدمار إلى معدات إجتماعية عمرانية وزراعية .

وقد نرى من عبادات قبائل « المایاس » عُنقاً ذات رأسين ، لعله رمز الى اقتران الإلّهَين : « ڤانوس والشمس » . كما تُرى على مَقاعد المحاربين صورة للشمس المؤلهة .

لدى هؤلاء القبائل عقيدة مميزة عن عقائد الجيران ، في القارة نفسها: عبادة النجوم بعد القمر والشمس . يرمزون الى النجم القطبي المعبود بصورة « قرد » ويصورون الافعى برأسين تحيط بجسدها كواكب متعددة .

لم يركز هؤلاء البشر على عبادة النجوم ، كما كان يحدث في بلاد فارس وسواها من المشرق . غير ان التساؤل يدفعنا الى الاستيضاح عن مصدر تلك العقيدة . أهي الفطرة ام جمال تألقها وشاسع بعدها ، ام لأنها تبعث النور والأُنس ليلاً للمسافرين ؟؟ ام هي عقيدة مستوردة من قبائل اسيوية كانت قد عبرت مضيق « بَهْران » وانزلقت الى ضواحي « يوكاتان ؟» وان كان ذلك فلماذا لم يَعبُدِ النجومَ غيرُ هؤلاء ؟؟

إن (كُوكولْكان ، Kukulcan) هو على صلة وُثقى بإله الهواء. ويظهر بشكل افعى وتروى عنه أساطير مختلفة . وهنالك آلهة منها : إلهةُ الحروب ، وإلهة « قوس قزح » وآلهات الحياكة والنسيج والتلوين ، ثم آلهة الغناء وصيد الطيور ، والسمك ، والتجارة . .

من تنوع هذه الآلهة نستشف ملامح حضارة ارقى ، لدى « المايا »، منها لدى الشعوب المجاورة . آلهة هؤلاء تتناول انواع الحِرف والصناعات بغية تحسينها وترويجها واعانة العاملين فيها .

والتقويم المايوي مشابه جداً لتقويم « الأزتيك »، فلكلٍ من الجهات الأربع لون ، وللسنة مئتان وستون يوماً وعشرون شهراً ، وبكل شهر يقام احتفال خاص . كلها بعد شهر الصيام وإحراق البخور تقديراً للآلهة مع صناعة التماثيل الخشبية المقدَّسة . منها (Mac — yax — Xul — Zip — Pop ماكْ ياكسْ كْسول وَزيْبْ - بوبْ)، والاكليروس المايويُّ يتمتع باحترام وقداسة متميزة . هم كثُرٌ في انحاء البلاد - مهمتهم : صيانة المقدسات وكتبها ، احياء الاحتفالات الدينية وطقوسها ، ومراقبة النجوم واجراء حساب فلكي دقيق حولها ، بأعتبارها تحمل قداسة إلهية خاصة . وهل كان تعليم التنجيم والسحر فطرة ام هو كذلك دخيل من الشرق أو مصر ؟؟ وكيف ؟ أليس الإيغال في التوضيح من اختصاص بحثنا ؟

هذه المهام كفيلة وحدها بأن تلقي الضوء على عقيدة « المايا » وعلى الوثبة من العبادة

المادية صرفاً الى السحر والتنجيم ، درساً وممارسةً . وللإكليروس كاهن اكبر مهيمن ، تنتقل اليه المهام بالوراثة . والكهنة هؤلاء يعنَون بتعليم التلامذة المبتدئين ، اصول الديانة ، ومن الفتيات من تلزم « الدير » منقطعةً عن العالم ، حتى يحين يوم زواجها ، فتنطلق مشبعة بالخشوع والعبادة .

الفصل الرابع

ديانة الـ : (Inca ، اينكا)

حين عبر الباحثون الأوربيون اميركا ونزلوا بلاد « البيرو » كانت دولة « أَلْيَنْكا » هي المسيطرة ، ولها ديانة خاصة رسمية : عبادة « الشمس » فرضتها الدولة فرضاً على الأهلين الذين خضعوا لسلطان وحماية محاربي « الينكا » الظافرين .

والذي كان يقوم بتقديسه وعبادته ، سكانُ البلاد قبل احتلالها ، شوهدت آثاره على الأواني والآثار المكتشفة : الشيطان العصفور ، والإله ذو الرؤوس العديدةوذو الألف فخذ . وابرز هذه الآلهة كان الإله السِنَّور المبَقَّع ، حاملاً أوراقاً وحشائش ، يرمزون به الى إله الزراعة . كما كانت عندهم إلهة الأرض والأرض الأم وهي (هُواكا Huaca) .

ولكن على امتداد شاطىء البحر الهادىء، حتى على سفوح جبال « الأندس » بين « ڤنازوالاً وجزيرة النار جنوباً . « كان الأهلون يلهجون بذكر إله اعظم هو خالق كل كائن . إسمه على الشاطىء : باشاكامك، Pachacamac) وعلى السفوح (Uiracocha أُوراكوشا) وبالرغم من التعظيم الذي يولونه للإله الواحد كان بجانب هذا المعتقد تقديس للطوطم ، حيواناً كان ام سمكاً . وما لبثت هذه العقيدة سائدةً عندهم حتى العصور المتقدمة ، حيث يقدمون للإله : الذهب والفضة في « بوليفيا » بجوار بحيرة « تيتكاكا » .

والصلة بين هذا الإله الواحد والشمس مشكوك بصحتها . يُنسب الى ذلك الإله انه انزل طوفاناً جارفاً قبل عصورنا هذه ، لم يبق حياً على الأرض سوى رجلين يظن انهما انعكاس لشخصية الإله (أُوراكوشا ، Uiracocha) المضاعفة .

وحين كان الشعب « الإنكوي » ضائعاً بين اي الإلهين هو الحقيقي : « الشمس أم أوراكوشا » سأل الإله (باشا كاماك) عموم الآلهة ايهما الإلهُ الحقُّ ، ليعبده الشعبُ منفرداً ؟ فترددوا ، فأجابَ : انه (أوراكوشا) خالق الكائنات بما فيها الشمس .

يذكرنا هذا الحوار بمطلع دور التوحيد ، في مصر الفرعونية بعهد الإله « أتون » والقول بأن كَهَنَتَهُ كانت تعبد القدرة المسيطرة على الشمس ، لا الشمس نفسها . فما اشبه هذا بذاك .

هل ذلك الهامٌ سماويٌ ام تواردُ أفكار ام تقليد ؟ هذا ما يسأله الباحثون . وفي الأساطير « الأنكويَّة » روايات عن تنوع الآلهة ورموزها ، منها العصفور الذي يعني : الشمس ، والقمر زوج لها ، وتروي الاقاصيص انهما كانا زوجاً وزوجة ، كما أنهما أخٌ واخت في الوقت معاً . هذا ما جعل مستحباً لدى شعب « ألينْكا » زواج الأخ من اخته ، لفترة مديدة ، على منوال بعض آلهة مصر ، لاستمرارية الوراثة المَلَكية والإلهية معاً .

وكانت نجمة الزهرة هي الوصيفة « وسيدة الشرق » لدى القمر .

ومن الطقوس المتَّبعة في تلك الأرجاء ، اقامة احتفالاتٍ لعيد « الشمس الإله » في سائر انحاء البلاد . حيث يقدم الكهنة حيوانات « اللاما » السوداء ذبيحة للآلهة ، فيبقرون بطنها ، وينتزعون منه الرئتين والقلب . ثم هم يسكبون اكواب « البيرا » على التراب قرباناً « للأرض الأم » وتتكرر الاحتفالات المقدسة شهرياً طيلة العام ، ولكلٍ منها ميزته ومضمونه الديني والزراعيّ ، لأيِّ زراعةٍ ، ولحصادِ الذُرة . اما السَحَرة فكان لهم دور بارز ورسمي في معرفة المستقبل ، وفي شفاء المرضى وسوى ذلك . وما زال لِلسَحَرة على سفوح « الأنْدُس » حتى العصر الحاضر ، تأثير على عقلية القرويين السذَّج .

الفصل الخامس

قبل أن نتناول الأديان بمعناها الشامل ، بعد تطور الوعي الانساني في هذا الحقل ، وقبل إن تكون في العالم هياكل عامة ، وطقوس كهنوتية منظمةٌ ، وخطر روحي ظاهر ، وحضارات تشمل الأرضَ مناطقَ مناطق ، قبلُ كان البشر أجمع قبائل منتشرة على سطح الغبراء ، وقبلها لاجئة إلى الكهوف مؤتزرةً بأوراق الشجر . كان ذلك قبل أن تُكتشف « النار » وبُعيد اكتشافها تصاعداً حتى العصر الحالي . في ذلك الأمتداد

الزمني والأرضي ، إلى أين وصل وعي الإنسان ؟

وعلى أي شاطيء آمِنٍ ، رسَمتْ سفينة تفكيره الميتافيزيكي في : النظر والتأمل والاستغاثة والابتهال والمصير ؟

في البحث الموجز الآتي ، خطوط عامة ، وثق منها الباحثون وعلماء الآثار ، ودوّنوها في مؤلفات نقتضب منها ما تيسّر :

قال استاذ تاريخ الفلسفة في جامعة القاهرة : علي سامي النشّار :

« أن التطور يسود الحياة البيولوجية للإنسان ، كما يسود الحياة العقلية . بدأ الدين منذ الإنسانية الساذجة جداً . . وعباد الأرواح والأسلاف انتهوا الى عبادة « الواحد » .

وقال (لُوبُّوكْ Lubbock) : « أن الجماعة الإنسانية الأوائل انعدم فيهم كل أثر ديني . لكن (أوغست كونت وڤان أُندْ Van Ende) أقرّا بوجود جراثيم دينية . أما فكرة « القوة العليا » فقد استند بعض اتباعها إلى فكرة التطور في مَساقِ البشرية ، وبعض آخر نسبها إلى الخَلق المباشر وإلى الصانع المدبِّر القديم .

كان الفيلسوف : (أڤامير Evhémèr) يعتقد بأن أرواح الموتى من الملوك هي أرواح إلهية، وضع بذلك أسس مذهب حيوِّية المادة : (L'évhémérisme) . وقال «سْبِنْسر : « . . . تصبح النفس روحاً حين تفارق الجسد ، وما الموت عند الاوائل إلا نوماً طويلًا ، ثم تصبح الروح قدسية لتكّون عالماً حول عالمنا ، ولها ميول ومطامع انسانية، وقُدُرات على انزال الخير والشر بالناس . لذا أضحوا يعبدونها فيما بعد » . كان يعتقد البدائيون بأن النفس تشارِك الجسد في تطور الحياة من شباب لشيخوخة لهرم . لذا كانوا يتخلصون من بعض ملوكهم قبيل هرمهم ، إذ في الموت موت النفس والجسد معاً . ويؤكد المرجع أن « الميلانزيين » يُعتبرون من أقدم الشعوب (تندالو Tandalo) ؛ ونظرتهم للروح هي هذه : تفارق الروح الجسد بعد الموت فيُصبح ـ (تندالو Tandalo) أو (Nanat ، نانَاتْ) والأرواح التي يُقيِّض لها أن تخلد وتعبد ، هي التي كانت تقومُ بأعمال جليلة ومقدسة وخارقةٍ عندما كانت حالّـةً في الجسد، تسمى عندئذ : «المانا» والأخريات تضمحل مع الجسد . دان بهذه العقيدة الزنوج ، واسموا «المانا » بـ(وَكَنْدا Wakanda) .

وقـال النشّار بلسـان « دوركهيم » : « الطوطميـة » أقدم الـديـانـات اطـلاقـاً لـدى البدائيين ، إذ لا يتم اجتماع اسرةٍ مـا إلا بوجـود « طوطم » لهـا . وأكّد (تيلُر ، Tylor، و ولْكِن ، Wilken) أن الـطوطم صـورة عن عبـادة السلف لأن البـدائيـين الأوائـل كـانـوا يعتقدون بتناسُخ روح الإنسان إلى حيوان أو نبات .

أثبت كل ذلك المؤرخ « تيلور » مضيفاً : (نفوس الموتى في الجزر الشرقية كافة ، لا تستمر طليقةً غير متجسدةٍ ، إنما تعود لتتقمّص في حيوان أو نبات . بذلك انتقلت القداسة بالطوطمية إليهما) . غير أن « دوركهيم » يشير إلى أن الاسـتراليين القـدامى كانـوا مؤمنين بعودة روح المتوفّى إلى إنسان آخر لا إلى سواه من حيوان أو نبات عكس جيرانهم في الجـزر الشمالية عنهم .

وقال الباحث : (Wunt وُانْت) : « أن التصور البدائي عن « الإلـه الواحـد » كان ساذجاً وبسيطاً ، وقد تساءل البدائيون هل هو روح ام جسد ؟ أم هو روح وجسد معاً ؟؟ ومـا صفاتـه ؟ لكن حين تتكـرر الاستغاثـة به، وعـدم الإستجابـة إليهم يهمل » . ويقـول الدكتور (كروبر Kraeber) : « ان هنود كاليفورنيا يعتقدون منذ القِدم ، بوجـود فكرة إلـه مدبر وسامٍ ، بيده كل القوى ، يقابله كائن «عالٍ» يستغل الناسَ ، ويؤذيهم ، يقاوم إلهَ الخير ، ويجادله أحياناً . ثم خلق الإله الأرضينَ والسموات » .

أما فكرة تصارع الأضداد ، فلا تبرح تتميز بوضوح لدى المعتقـدات البدائيـة . ولا عجب ، طالما كل ما يفيد الإنسان ويقيه وما يضره ويؤذيه ، موجـود في الطبيعـة ، ومرافق للأجيال وللإنسان ، يحس به المرء كل يوم ، فيبهج ويزهو للمغانم ، والـدفء ، والظل ، والأمان ، ويرتعد للمخاوف والصواعق والبراكين ، والقيظ والصقيع ، والجـوع والمرض . طـالما كـلُّ تلك الاحاسيس والمؤثـرات تعايش الإنسـان ، فقد غـدا طبيعياً لجـوؤُهُ إلى قوى حيناً يتصوَّرها ويؤمن بها ، وحيناً يوحِّدها ، لدرء المخاوف ، والاذية عنه . مِن هنا كان في صميم فكر البدائيين هذا الإيمانُ ، وتطوَّر مع الزمن . والـبرهان مـا أُلقينا قبسـاً عليه ومـا سنلقيه استكمالاً للبحث :

قال « النشار » في مرجعـه السابق : « نتيجة لـلابحاث العلميـة الحديثـة ، وُجد أن الأقزام هـم أقدم الشعـوب البدائيـة ، قبل استراليا وسـواها . مسكنهم اواسط «افـريقيا »

« وملقّا والفلبين » . رغم الـزمن البالـغ في قدمـه ، نفى هؤلاء كل العبـادات الشائعـة في العالم ، معتبرين موجوداً « أسمى » قادراً ومدرَكـاً ، وصفاتـه تتعالى عن صفـات غيره وقـد أجمعوا على هذا الاعتقاد » .

وجاء معاكساً لهذا الـرأي العالم (پـاتْزُّوي Pettzzoui) فقـال : « إن الفكر البـدائي أجمع كان يحكمه الاتجاه الميتيولوجي ، أما المنطقيُّ فقد ظهر متأخراً . لهـذا فـإن فكـرة إلـه السماء انبثقت نسبة للتخيل البدائي ، بـالمادة السماوية « شمس، قمـر ، كواكب » وأيـد هـذا الـرأي العـالم الانـتربـولـوجي (تّـوكـار G. Toucart) . وأوضــح طـهَ الهــاشمي : « الاسـتراليون الأَوَّلـون يزعمـون الروح شيئـاً ماديـاً كالجسـد ، لكنها مستقلة عنـه تأكـل وتشرب وتتلذذ ، ولا تُـرى ، وانها تطير لتحط عـلى الشجـر وتشـدو فيسمعهـا البـدائيـون المُتَّقون . من هنا جاء التطيُّر المشؤوم ويعتقدون بأنـه متى جرى دم الانسـان تسربت الروح معه خارج الجسد . يُسموُّنها (نْغـا Ngai و Wangiوانجي) ويتخَّيلونها بعد مفارقـة الجسد تصعـد إلى ما وراء السحـاب ، حيث تجتمع الأرواح ، كـما تجتمع مؤقتـاً « في الحُلم » وما الشلل والجنـون والصراع إلا أرواحاً خبيثـة نـزلت في جسـد المصـاب ، فتقـاوم بعبـادتهـا هـذه » . وقال (تيلر) : «إن (پـوهَرْت PoHart)و (التـوسْكا لـو) في امـيركـا الشـمالـيـة والمكسيك يستنكفون عن أذيَّة الطيور زاعمين أن أرواح رؤوسائهم حلَّت فيها » كما كان أهالي جزيرة (سـوسْياتَـه Société)يتصورون للنبـات « روحاً » . فهم يـراعون النبتـة ، ويؤدون لها المراسيم، خشية غضبها الذي يسبب عطب موسم الأُرزِّ، وأن بعضـاً من سكان أوستـراليا يعتقدون « بكائن أعلى » اسمه (بِيام Biame) وهو لم يولد من أُم . يراقب اعمال البشر ، ويعاقب ويثيب . تسمية كل قبيلة : « الأب » وهو خـالق كل الكـائنات . وسكـان بعض الجزر هنالك يؤمنون به متزوجاً وله أبناء .

في هـذه البيئة نلحظ امـراً جديـداً طرأ عـلى المعتقد « بـالكائن الأعـلى » هو أنـه يثيب ويعاقب . ذلك ما لم نكن لنجده في معتقـدات القبائـل الأخرى ، في الـزمن السحيق . كان الإله لِنصرة الإنسان ، وأضحى لِمحاسبته عـلى ما تجنيـه يداه ، وهـذا تطور ملحـوظ في فكرة الإيمان الروحي ، وولادة التـحسّس بالواجبات . فرضت هـذا الاعتقادَ البيئةُ وتصرفاتهـا ، وتجاوزاتها ، في تطورها الدائم .

وبعض مناطق افريقيا الجنوبية التي سنخصّها ببحث مستقل ، يُطلق أهلها عل الكائن

الأعلى اسم (كاءَنْغ Kaang) أي السيد ، وهو الخالق ، مسكنه السماء . وفي افريقيا الشرقية يلقبونه بـ (واكـا Waka) وقد يهبط الأرض مع الصواعق لينتقم من الأشرار . ويدعى في اميركا الشمالية الغربية (تـاهيت Tahit) تُعرِّج إليه أرواح الموتى . ومـاذا بعد معراجها ؟ مُبهم . ويسمى في كاليفورنيا (لاسُّو Lassu) أي شبح السماء . وفي « بوليڤيا » يطلقون عليه اسم (تـامُوا Tamoi) وينـادونه : جَـدِّي . يسكن السماء ويتحكم بمـظاهر الـطبيعة . يبعث الخصب والبنين وينتقم لهم . وموقفه عادل وحازم من الأسياد والعبيد .

أما في « مَدَغْسكَر » فهذا الكائن الأعلى لا يتعاطى بشؤون الناس اطلاقاً . كلٌّ يدبِّر أُموره بنفسه ويقيها من المخاطر ويجدُّ لكسب معـاشه . وهـذا الإله في نـظرهم لا يؤذي خلقـه . وكان (دوركهيم) يعتبر بعض سكان اوستراليا أن الإلـه الأوحـدَ ازلي ابـدي ، يرسل الصواعق وهو خالق الكائنات . وأنه صَنعَ الإنسان من طين ، ونفخ فيه الروح وهو المثيب والمعاقب كما سبقت الإشارة إليه . يؤكد هذا العالم أن تلك المعتقدات وُجدت لدى الأستراليين منذ الزمن الغامض . قبل أن تطأ أقدام الفاتحين أرضهم ، وأنهم كانوا يرفعون أيديهم إلى السماء مبتهلين .

ورأْيُ الأديـان البارزة سنبحثـه لاحقاً بـالتتابـع . لكن آراء الفلاسفـة المعاصرين في الخالق والخلق فهذا نزرٌ منها ، نعود إليه في فصلٍ لاحق .

يقول « سغْمونـد فرويـد » : « للنفس البشريه حيـاة واحدة ولا حيـاة لها بعـد موت الجسد » . ويقول « أرثر ستانلي أدنكْتوَن » المتوفىٰ عام (١٩٤٤) : (الكـون محكوم بقـوة روحية ، أنه : العقل الأعظم) . ومثله قال الفيلسوف « جيمس » : في مؤلفـه « الفيزيـاء والفلسفـة » ؛ (وراء الكون عقـل مدبِّـر حكيم هو : « العقـل الأعظم ») . ونقـده العالم « بـرترانـد راسل » فقـال : (المادة هي صيغـة رياضيـة معقدة لِحوادث تجري في الفضـاء المطلق) .

إذا وقفنا لدى هذه التصريحات لأئمـة الفكر السـابق والحديث نجـد الوعي الإنسـاني منـذ نشرت بـواكـير انبثـاقـه من آلاف السنـين حتى القـرن العشرين يتخبَّط بـين مؤمن بقدرة عُليا ما شئت سمِّـها ، وبين رافضٍ لها ، معتبراً الطبيعة هي السائِقَ والمسـوق المخلوقات .

التلخيص :

يحدث بعض التباين في ما رآه المؤرخون والانتربولوجيون ، سببه امتداد الأزمنة واختلاف الامكنة حول قِدَم الإنسان وقدم تفكيره الديني ومراسيم عباداته .

ثبت انه منذ (١٢) مليون سنة وُجدت في اماكن مختلفة أدواتٌ حجريَّةٌ تشير إلى وجود صانع لها ، كما وجدت آثار لقَرَدة مشابهة إلى حد ما للانسان ترجع لـ(٢٨) مليون سنة .

أما بشأن الدين فكانت قوى خفية باطنية تشد الانسان الأول إلى الطبيعة بظواهرها وحيوانها ونباتها وسمائها . كانت هذه القوى تقدَّس وتعبَدُ هنا وهنالك وبأشكال مختلفة قبل الوصول إلى « الكائن الأعلى » البدائي ، ثم إلى الهياكل والرموز والسحر والطوطم والجماجم والسلف وما إليها ، وصولاً إلى عبادة الملوك ثم ارتداداً إلى ذلك الكائن الأعلى الذي هو « الله » . كان أول ما قُدِّم للإله : الدم البشري لإحياء ذاته ثم استعيض عنه بالمُغْرَةِ الحمراء وبالصَدَف . وكانت « البقرة الأم » هي الأداة للإرضاع وغدت مقدسة ومعبودة لدى المصريين الأولين . ومثلها كان « النجم الأكبر » المسيطر على اقدار البشر .

كان التفكير بدين ما لمعبود ما وبشكل ما هو المقدم على كل تفكير لأن به طمأنينةً للنفوس ورجاءً بعونٍ وباعثاً لرزق ، وملجأً من ذعر اياً كان هذا الإيمان .

وقد عرف العالَمُ معتقدات اميركا بكاملها وبعضاً من آسيا وافريقيا ، حيث ظهر لأول مرة ال (Hamo - Sapiens هاموسابينْ) وعثر على جماجم بشرية تعود إلى العصر الـ (پلاپسْتوسيني) وكانت « الالهة الأم » ذات تقدير فائق في معظم شواطىء المتوسط وفي بلدان أخرى .

ثم عُبِدَ القمر والشمس وعُضوا الجنس حباً بالإخصاب . وجاء (ج . هـ . برستد) ليؤكد وجود آثار انسان منذ مئات الوف السنين . وفي كل جيل وبكل مكان كانت تلك المقدسات السابقُ ذكرها تأخذ طابعاً متميزاً ، فيه الكثير من الغرابة احياناً . كل ذلك قد اثبته الباحثون المختصون بالادلة المحسوسة على معظم ما يقولون . وكان لاكتشاف النار أثرٌ بالغ اجتماعياً أوَّلاً ، ثم ما لبث أن تحول في بعض المناطق والجزر إلى تقديس فتأليهٍ لها .

أما سبب تقدير السلف وعبادته فمعاده إلى : الرَهبة ـ والاحترام ، واخيراً لِفرْطِ المحبة له . كان ذلك في بدء عصر « الرِينَة » الايائل . ثم كان لِلسحر والطواطم أدوار هامة أَسْهَمْتَ في التطلُّع والتبصُّر في الأمور والأشياء . إن الأضاحي والذبائح من بشرية وحيوانية كان مغزاها إرضاءَ الآلهة واستعطافها لتتم صلة الأرض بالسماء والجسد بالروح وتوافق ما هو محدود القدرات بما هو يفوقها ؛ وباعثها ومُتلفها : انه : « الكائن الأعلى » .

أما مصير الروح البشرية فقد تنوعت المعتقدات به : قيل باضمحلالها مع الجسد ، وقيل ببقائِها في القبر أو خارجه . وقيلَ : إنها ترفرف فوق أهلها ، وأنها تنحدرُ تحت التراب ، كما قيل انها تصعد لتلحق بالشمس وتذوب فيها .

وكم من اسماء أَوْلَوها لذلك « الكائن الأول » وما ينبعث منه . وقد اعتقد معظمهم بالتضاد : بإلهِ خَيْرٍ وإله شر ، وبتصارعِهما المستمر، وبعالم سفلي لأرواح الالهة . وكانت بعض قبائل اميركا تعيش عراةً خلا نساءَها . والآلهة غالباً ما تكون متقاربة ومتجانسة مع البشر . وكم كانت تلك القبائل تبتهل لآلهتها ، من أجل صيانة الذُرة والأرزِّ وسواها من أنعام ، ومن كبح جماح الغُزاة . مُعتقدين بالطوفانات والرموز ؛ وخلقوا طقوساً واقاموا كَهنةً ثم توصلوا إلى حساب على الأعمال خاصةً بأوستراليا القديمة حيث يُسمّى إلهُهُم : «الأب » أو « الجدّ » .

(المراجع العامة لمعتقدات الانسان الأول في الجزر الشرقية وامريكا القبكولومبية)

بالعربية :

١ ـ السير جون هامر تون :

تاريخ العالم (سبعة أجزاء) باشراف وزارة التربية المصرية ، جـ(١)، ص (٤٤ ـ ٥٠) ـ ص (١٤٩ ـ ١٩٥) ـ (٣٦٤ ـ ٣٧٩) .

٢ ـ ول ديورانت :

قصة الحضارة ترجمة زكي نجيب محمود ، القاهرة ، طبعة (١٩٥٦) جزء أول ص : (٩٨ ـ ١١٠) .

٣ ـ رالف لنتون :

شجرة الحضارة ، ترجمة احمد فخري القاهرة ط (٣) ج أول ص (٢٨٤ ـ ٢٨٥) طُبع عام (١٩٥٥) .

٤ ـ وليم هولز ، ما وراء التاريخ :

ترجمة احمد أبو زيد دار النهضة (مصر) عام (١٩٦٥) ص (٣٢٨ ـ ٣٤٧) .

٥ ـ Ashley Montagu

المليون سنة الأولى من عمر الإنسان ، ترجمة الدكتور مسيس لطفي عام (١٩٥٧) نيويورك ص . (٢٠١ ـ ٢١٣) .

٦ ـ وليم لانجر :

موسوعة التاريخ العام ، ترجمة الدكتور مصطفى زياده النهضـة المصرية (١٩٥٩) ص (٣ ـ ١٠) .

٧ ـ الموسوعة المصرية ، جـ (١) ص (٩٢ ـ ٩٣) . جـ (٢)ص (٢٧٣ ـ ٢٧٤) طـ١ .

٨ ـ **Sehmidt**

كتاب الدين ص (١٠٢) وما يليها طـ ١ .

٩ ـ عباس محمود العقاد :

كتاب الله ، مصر طـ(٤) عام (١٩٦٤) ص (١١ ـ ١٢) .

١٠ ـ هنري برستد :

تاريخ الشرق القديم ، ترجمة احمد فخري ، مصر طـ (١) ص (٩ ـ ١٤) .

١١ ـ طه الهاشمي :

الاديان وفلسفتها ، طـ(١) بغداد ص (١٧٠ ـ ١٧٢) .

١٢ ـ وليم هولز :

ما وراء التاريخ ترجمة احمد زكي أبو زيد (مصر ١٩٦٥) ص : (٣٢٨ ـ ٣٤٧) .

١٣ ـ الموسوعة المصرية :

ج ١ ص ٩٢ ج ٢ ص ٢٧٣ وما بعدها (باشراف وزارة المعارف) .

بالأجنبية :

1 - Arts et Croyances des hommes des grottes; ed (1926)
P: (109 - 112): par H. Breuil.

2 - Les hommes des grottes; 2 ed (1923) P: (342 - 352) The wai Papuans - M. Boule.

3 - Les religions du Monde: Tome (1) P: (81 - 82): Moerenhaut.

4 - Histoire générale des religions: Tome 1 P: (99 -108), Anatole lewitzky. Paris 1950.

5 - Préhistoire de L'Amérique: Paris (1950), P:(13 - 54)- (76 - 109).
S. Canal Trou.

6 - Les Civilisations Précolombiennes: (Collect, que sais - Je), Paris (1958): H. Lehmann.

7 - L'Anthropologie: Edition (1903) P (315 - 319) Brough Smith.

8 - Les religions du Monde; Tome (1), P; (50 - 61) Hubert et Mass.

9 - Les grandes religions du monde; Tome (1) 1ère partie p (13 - 101) Edmond Rochedieu . (1966) .

10 - Les Originesde l'homme américain; ed (1957) P: (97 - 187): P . Rivet .

11 - Histoire générale des religions: Librairie Aristide, tome (1) paris (1960) P: 3 - 101) - (106 - 144): P. Wernert - J. Soustelle.

12 - Encycl. générale (La Rousse) tome (3) P: (520 - 526) - (594 - 598); Naissance des dieux. (1968)

13 - Les premièrs Hommes (Collect. que sais - je) Paris (1974) p: (5 - 56)-(64 - 104): Jules Carles.

14 - La vie préhistorique: (Collect. que sais - je) Paris (1974) p: (22 - 45) (59 - 133): Jules Carles.

15 - Préhistoire de l'Amérique; Paris (1950), P: (13 - 54) - (76 - 109): S. Canal Trou.

16 - Histoire de l'humanité; trad. P. Laffont, V. (1) P: (178 - 226): J. Hawekes. (1969)

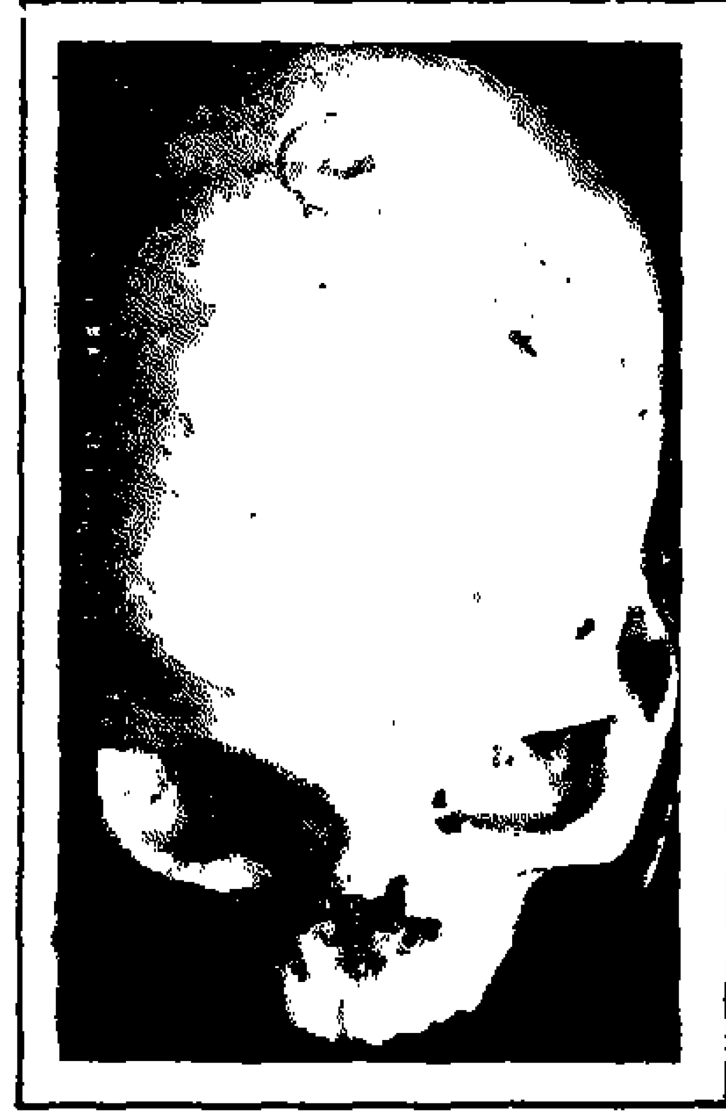
17 - Les civilisations préhistorique - Tiller - Tome 2 (1878) - P210 et Sir y. Woolley.





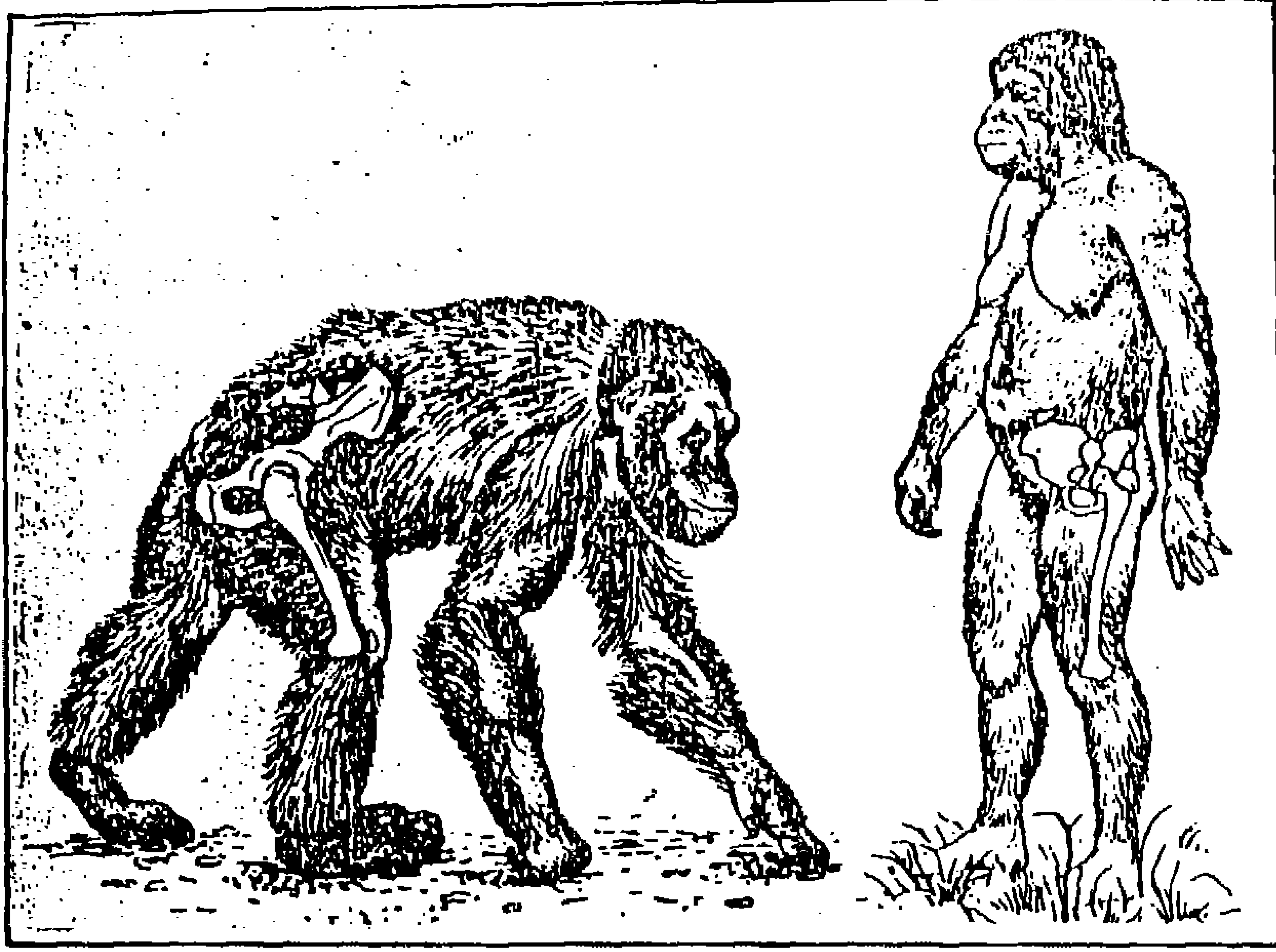




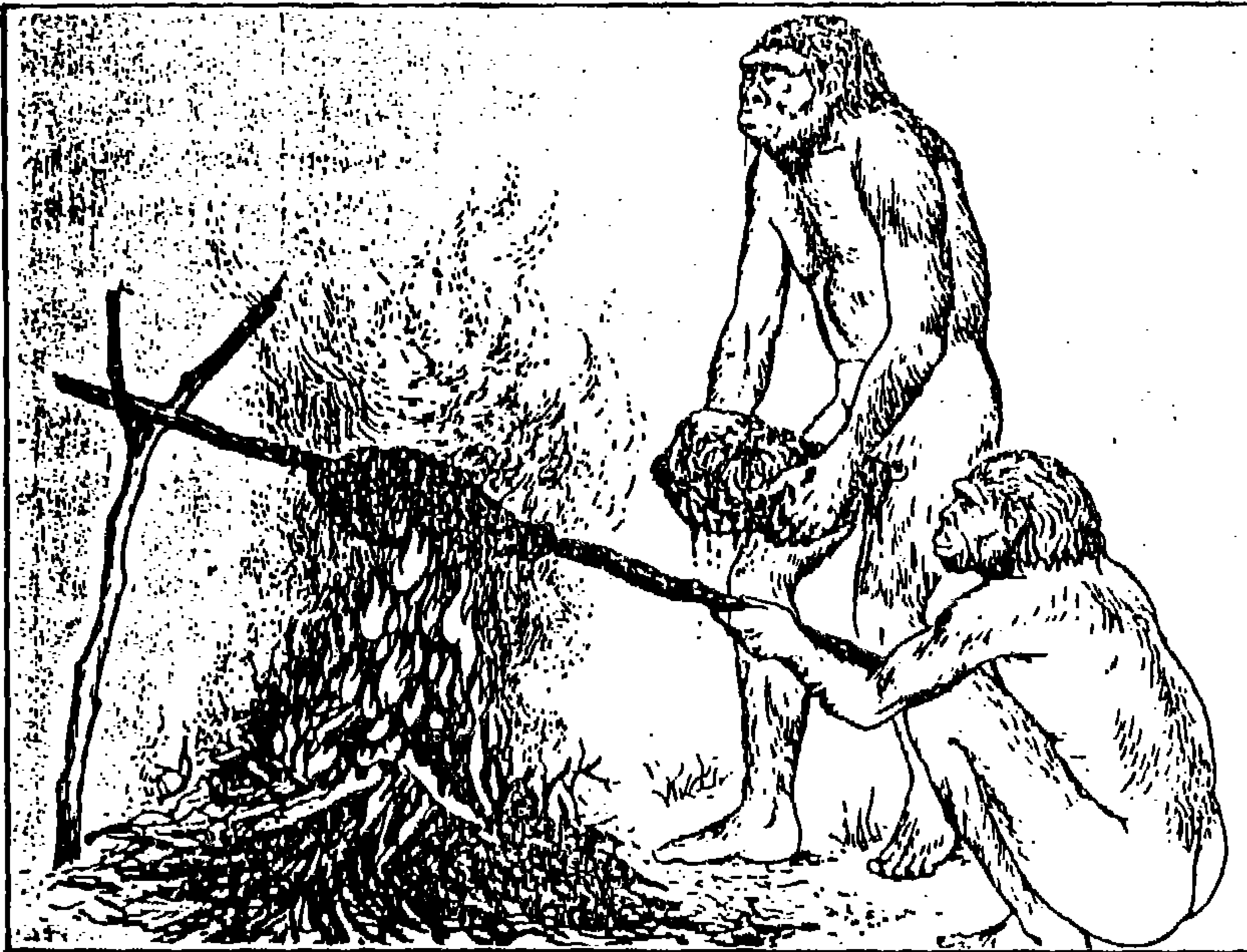




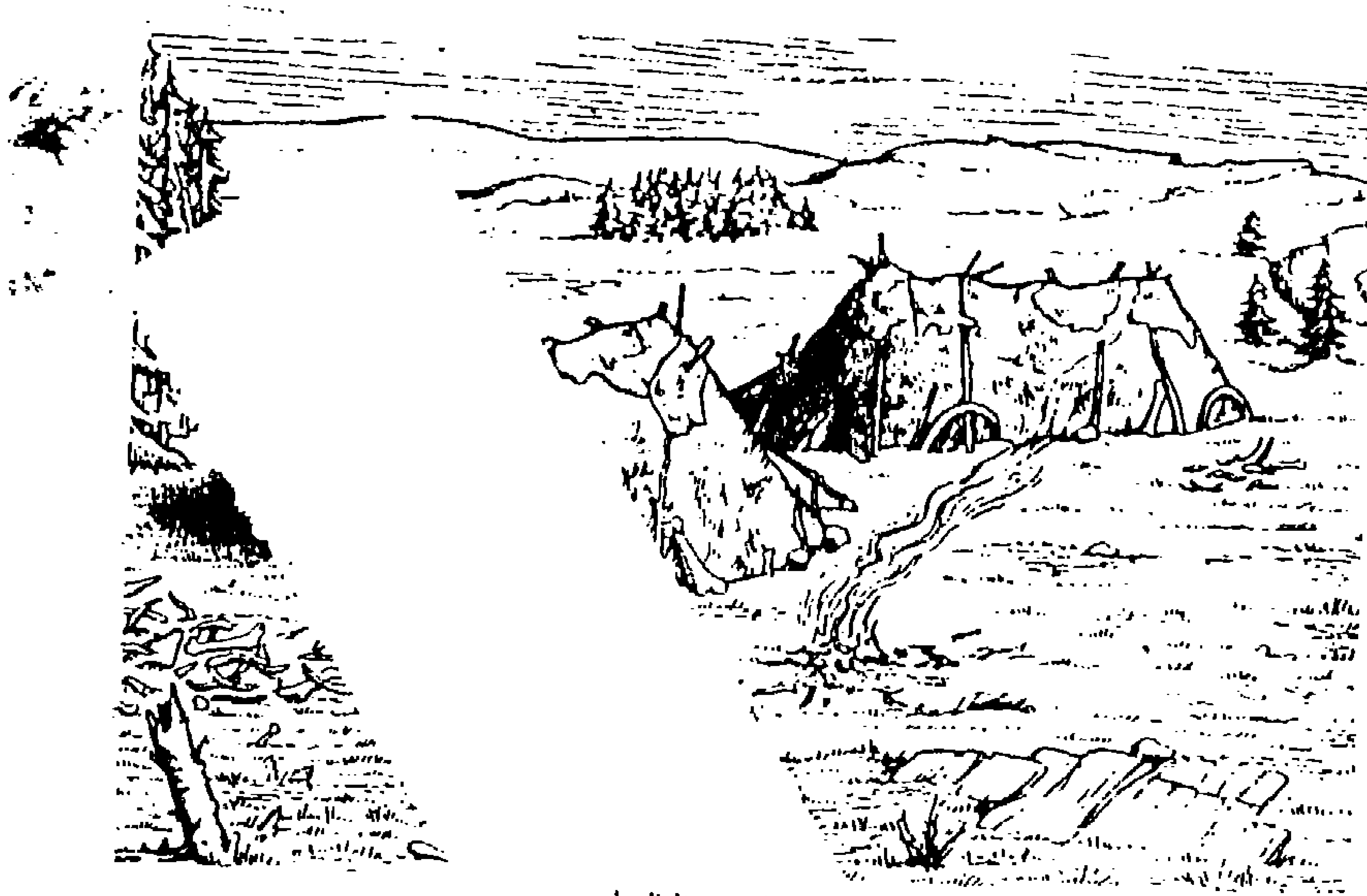
احتضان العديد من الجماجم لعبادتها



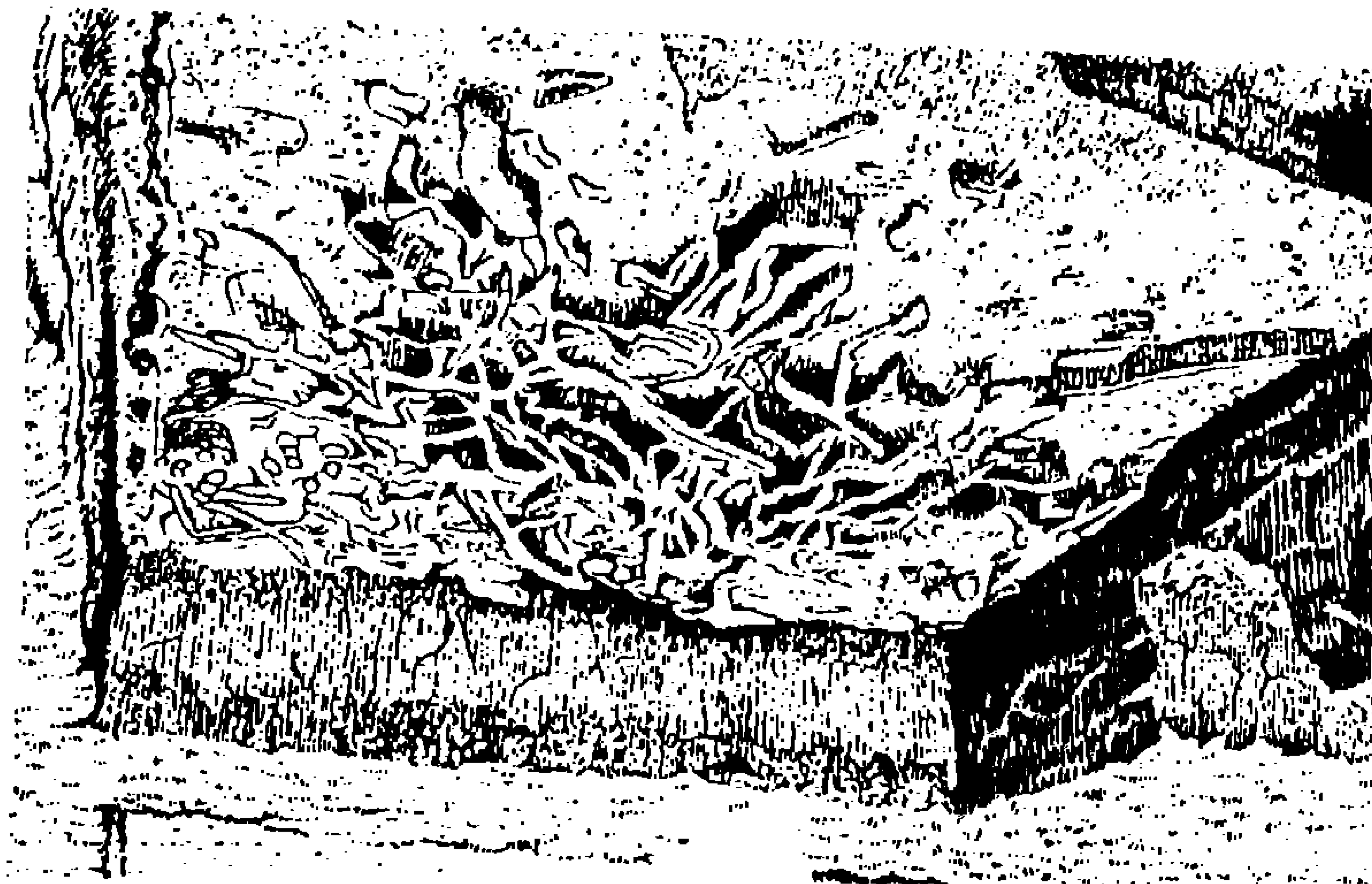
القرد الشمبنزي يقابله انسان الأحافير الإفريقية



إنسان باكين والنار



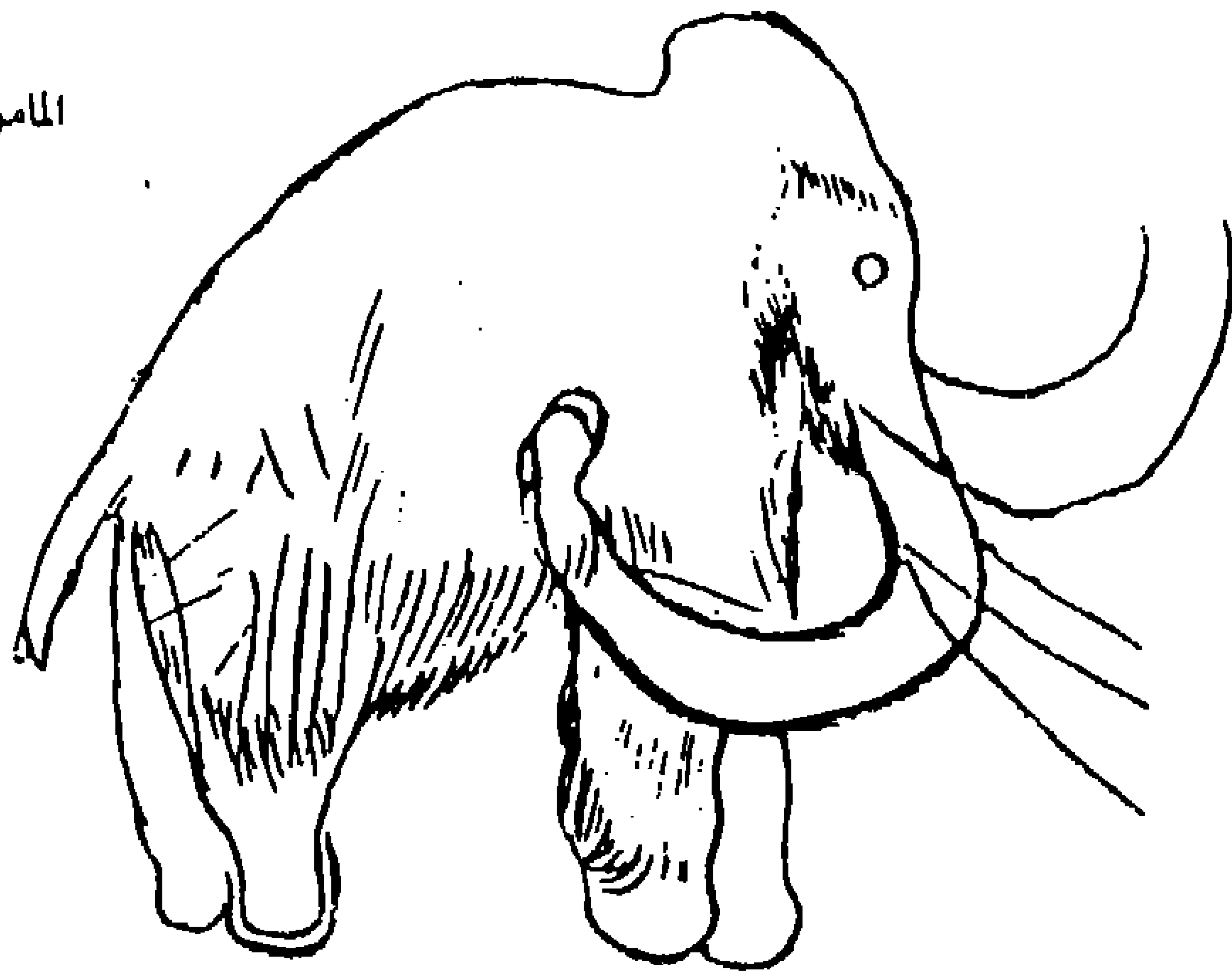
مساكن في العصر الباليوليتي



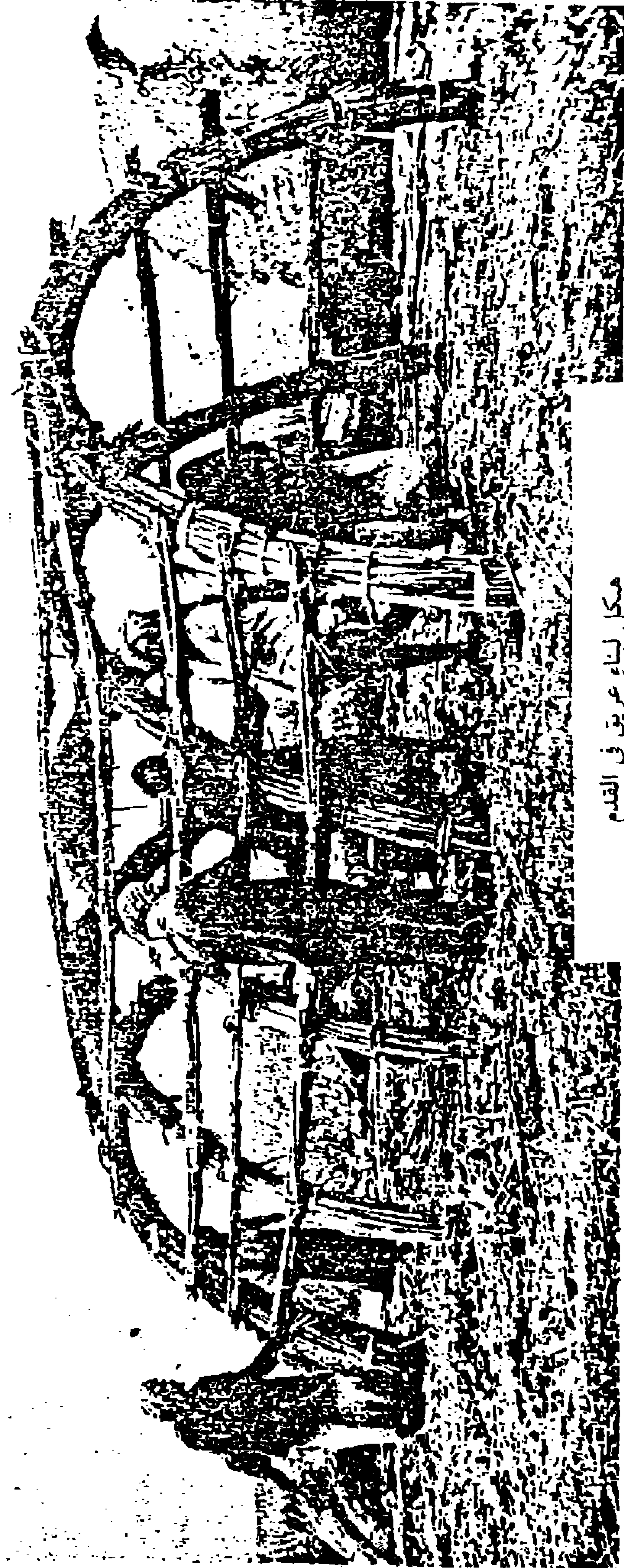
اثر لمسكن انيوليتي



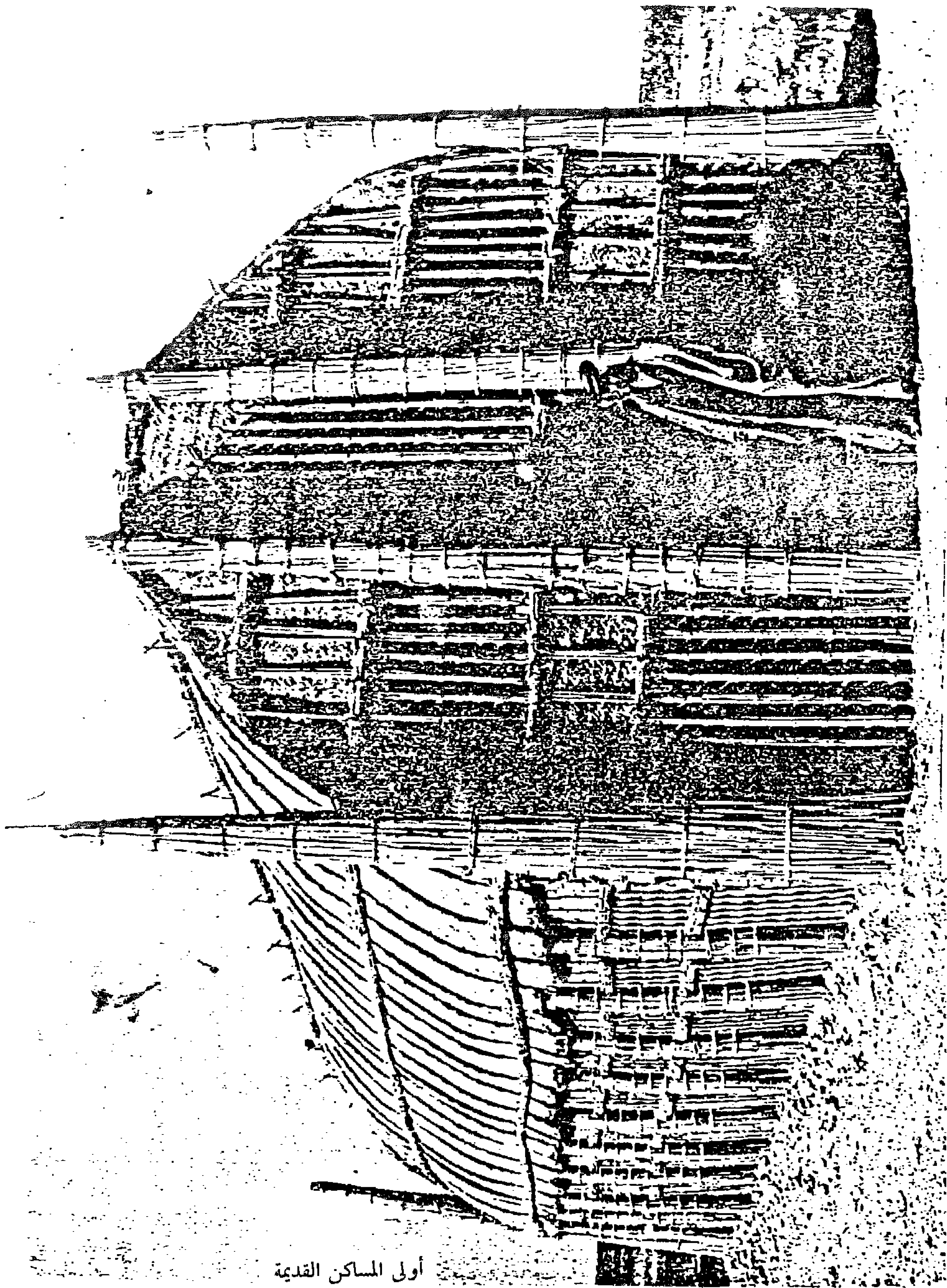
طائر الفانِكس (وقيل أنه أسطورة)



الماموث



هيكل لبناء عريق في القدم



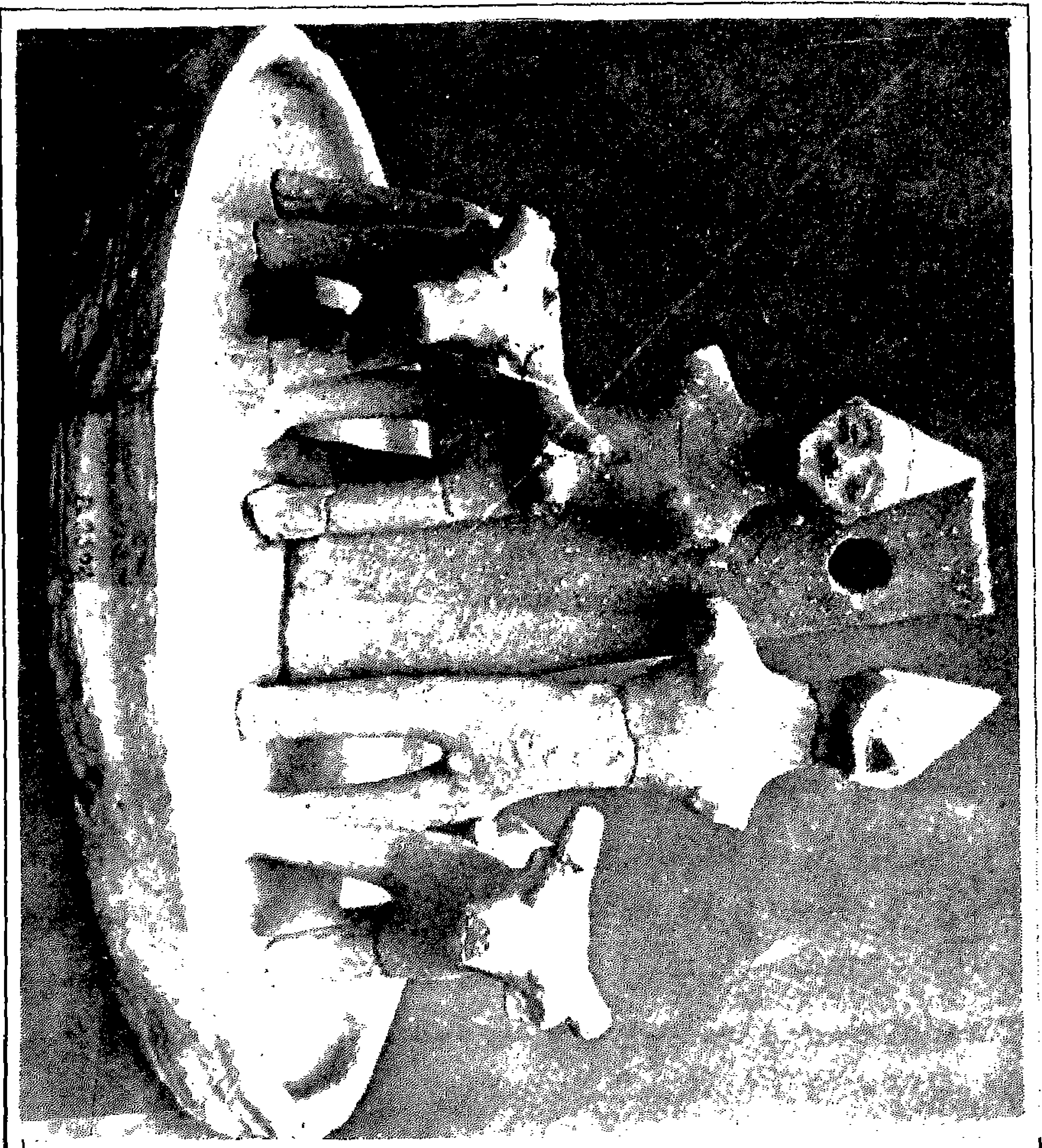
أولى المساكن القديمة



ابن الملك بعل شيلم مقدم لإله الشفاء في هيكل اشمون في صيدا حيث كانت تلقى تماثيل الأطفال في القناة المقدسة لإنقاذ الأطفال .



تعويذات لطرد الأرواح الشريرة
متحف بيروت الوطني



مزارعات من جبيل (بيبلوس) وحيوانات ومخزن للغلال الألف الثالث ق . م .

متحف بيروت الوطني

الباب الرابع

الفصل الأول

السومرية

لم تكن الحضارة السومرّية مقتصرة على مدينة (سومر) جنوبي العراق بل تعدتها إلى (أكاد وأشور) وسوريا العليا . إمتدّت جذور هذه الحضارة إلى الألف الرابع قبل الميلاد ، حيث عصر (أُوروك) إنها حضارة قوامها العلم والفكر والعقل لا النار والحديد . من مكتشفاتهم : الفخار المصفّى حيث رسموا عليه الرموز وخطوا اللوحات بواسطة محراق من قصب فبدا الخط شبه مسماري . وبعد خمسة قرون درجت مصر على استعمال تلك الصفائح التي اكتُشفتْ في (تلِّ العمارِنة) عام (٣٢٠٠) ق . م . يقول « جورج كوسا » إن المؤرخ الألماني «اشبانخر» صرح بعد دراسة مُستفيضة ، بأن ضبط حروف الهجاء ، قد تمَّ أولاً في « سومر » في الألف الرابع ق . م . وقال أن الملاحم بدأت منها . قبل اليونان بـ (١٥٠٠) سنة . وأن شاعراً سومرياً ناجى حبيبته بهذه العبارات : « إستحمي في جدول (نونبيردو) فيَمرُّ الكائن ذو العينَين المتألّقتين . . . الجبل الكبير . . . السيد « انليل . »

معتقداتهم :

في العراق يحتل الإله : (Anu ، أنو) أو(Anum ، أنوم) الصدارة بين المعبودات وهو

ثمرة التفكير السومري ، واعتبره شعبها أبا الآلهة . ثم ضاع اسم هذا الإله بضياع (سومر) عن المسرح الحضاري ، ليخلفه الإله : (مردوخ) البابلي . وبعد انطفاء هذا الإله لمع نجم الإله « أشور » ، حين أصبحت السيادة بيد شعبه الأشوري .

و (أنوم) كان إله السماء ومالكها ، ورسم زوجته : (أنتوم) وهي نفسها : (زرقاب وعشتار) كما كان الإله (أحبيجي) في السماء ، (وأنوناكي) : في الأرض . وكان للإله : (أنليل) معبد في مدينة (نيبور) ويُدعى : (E - Kur) أي معبد الجبل ، ترافقه زوجته : (رنن هورساج) . وكان (أنكي) إله الماء وهو أحد الثالوث ، يصحبه : أنليل إله الأرض العُليا ، (ونرجال) : إلهُ الأرض الوسطى ، ثم (أنكي) هذا إله الأرض السفلى وكان (أبسو) عُنصر التذكير و (تيامات) عنصر التأنيث . وكانت زوجة الإله (نرجال) تسمى : (أرشكيجال) وهي القائلة هذا المقطع لزوجها :

« كن زوجاً لي وسأكون لك زوجهْ
سأجعلك مالكاً لدولتي الواسعهْ
سأضعُ بين يديك ألْواحَ الحكمهْ
ستكون حاكماً وسأكون حاكمهْ » .

وكانت (ساريانيتوم) زوجة الإله مردوك تعتبر خالقة النطفة . ومن أناشيد السومريين الكثيرة ، هذا المقطع لعشتار :

« أقدسك ايتها العذراء الفائقة الروعة
وامتدحك بأغنية صادرة من جوارحي
مقدماً لك قرباناً : زبدة وكعكاً وعسلاً
أقدم لك على مائدة سومر العظمى
نبيذاً غامقاً وخمراً مشعشعة . . لتهدأي » .

(عن اسطورة الطوفان وجلغامش) .

ونرى مجلة دراسات الشرق الأدنى (١٩٤٦ ص ١٤٠) تحدثت عن الإله الأقدم قبل أن تكون (سومر) : أنكي ، سيد الأرض وإله المياه العذبة . ومما حفظ عنه التاريخ قولهم :

« عندما كان (أنكي ، Anki) ينهض ، كانت الأسماك تنهض ساجدة له .

كان يقف اعجوبة في عيني (أسو ، Essou) . (أي الأغوار) .

كانت تبدو على البحر دلائل المهابة .

وكأن الرعب يخيم بجناحيه على النهر العظيم .

في حين كانت الريح الجنوبية تحرك أعماق « الفرات » .

(المؤلف : ت . جاكبسن) .

بالرغم من إزدهار الحضارة السومرية وإبداع شعبها العميق القدم ، في كثير من الفنون والتطلعات ، فإن إيمانها الديني كان على مستوى متدن روحياً ، خاصة في البدء . رغم صلاتها بالشرق والغرب . كانت المادة هي الطاغية ، وكان همّ السومري تأمين الرفاهية والطمأنينة والصحة له ولعياله ، ولولا ذلك ، لما كان يحفل بالكهان والمحاريب ، والطقوس الدينية ، والإلهة المتعددة ، الطبيعية العنصر كما سنرى لاحقاً .

أولى عبادتهم :

أولى مظاهر معتقداتهم كانت الطوطمية ، بشكل غير كامل الوضوح ، وكثيراً ما يفترسون هذا الطوطم مرضاة لطوطم آخر . وأستمرت حالهم حتى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد ، حيث لا وجود لأثر ديني بارز ، يعتمد عليه في توضيح معتقدهم . خلا بعض التمائم والأدوات المتناولة .

كان أول الآلهة الذي ارتسم في خاطر السومريين ، واستولى على مشاعرهم هو : إله الخصب والإقبال . تظهر آلهتهم بأشكال الرجال منذ القديم السحيق ، حيث كانت تتشابك بالطواطم وتتخذ رمزاً لها الحيوان . وهكذا فإن « نين - سو » والدة « جلغامش » كانت تسمى « بقرة الأسطبل » يضم متحف بغداد اليوم ، أناء من الحجر ، أكتشف في (ورقا Orka) بالعصر الأوروكي القديم ، منقوش عليه ، فتيات في حفلة مقدسة ، يقدمن القربان لإلهة الخصب . والإلهة ترتدي ثوباً فضفاضاً حتى القدم ، تزين رأسها ضفائر من القصب . إسم هذه الإلهة : (إني - ني ، Inni - ni) أو (نيٌ ، Ninni) اسماها البابليون بعدئذ بـ : « عشتار » ولقبها : « الأرض الأم » .

أغدق السومريون بالأسماء المختلفة على آلهة المدينة ، منها : (أوروورو - Ororo ونينتود - Nintoud) بحيث كان للكرم إلهة أو إله ، ومثله للقطيع ، والمروج والحصاد ،

والمياه والسحر . وتبدو الإلهة الكبرى بشكل انثى عارية كلياً ، تحمل بين ذراعيها طفلها الرضيع . أما إله النمو فكان « أب ـ أو» وهو أبو النبات، ذو لحية كثه وشعر مسترسل . وقد يبدو معتلياً ثوراً ، وهو نفسه : (أداد Adad) البابلي و (تموز) .

من مميزات هذه الآلهة أنها تراعي بمظهرها الفصول . ومهماتها فيها : الشباب للأخصاب والنمو والشيخوخة ، للحصاد والشتاء .

إن الإله : « أب ـ أو » هو ابن الإله العظيم « أنليل » إله الريح والمطر والمسمى بأيل وهو شمس الصباح وشمس الربيع . وهناك إله السماء « آن » و « أنكي » إله الأرض وما تحتها من ينابيع عذبة متفجرة ، تحيي النبات والإنسان .

نلحظ مما تقدم ، مميزات السومريين في إتخاذ آلهتهم بخصائصها الآنفة الذكر . على أنهم مع الزمن ، اخذوا يستعيضون عن تلك الآلهة اسمى : كإله العواصف ، والمطر ثم الإلهة الشريرة التي يستعان بها في تقديم القربان ، والإبتهال لآلهة الصلاح .

قيمة الأضاحي :

للأضاحي قيمة كبرى في عرف السومريين ، هي التي ترضي الآلهة وتحببها بالبشر ، وترد عنها المكاره ، وتنزل الأمطار وتخصب الحقول وتشفى المرضى . أما بعد ذلك فيبطل عملها لأن هؤلاء يعتبرون الإنسان جسداً وحسب . وما بَعث عشتار إلا رمزاً لعودة الحياة إلى الأرض .

أم الآلهة أولاً :

اكتشف الباحثون في معبد مدينة العُبيد تمثالاً لِـ (نين هرْساجْ) الملقَّبة بأم الآلهةِ والبشر . مهمتها رعاية امراء المستقبل ، ورمزها « البقرة » وهي زوجة « نانار » إله مدينة « أور » . وقد جرت العادة عند أهالي « أور » خاصة في الألف الثالث (ق . م) أن يدفن المتوفى مصحوباً بأدوات كثيرة من خصوصياته ، وبمآكل متنوعة ، وبقارب صغير خارج التابوت ، تحسباً لضمان سفر الميت ، كل ميت ، للعالم السفلي . أما الملك فيحتاج إلى العديد من حاشيته يدفنونهم معه ، لقضاء حاجاته أين يحل .

وانتهى العصر السومري بحضارته الرائعة تاركاً للأجيال اللاحقة كنزاً من الأدب الرفيع ، ظفر به علماء الأحافير مؤخراً في جنوبي العراق (تل أبو صلانج) يعود إلى

(٢٥٠٠) عام ق . م هذا الكنزُ هُوَ أناشيد متنوّعة لآلهة (سومر) اظهرت اسماء آلهتها بأسلوب رفيع ، ينقصه عمق الروحانية المصرية ، وجهل مصير الروح ، بل جهل وجودها أصلاً ، بالمعنى الشامل للكلمة . أما المؤرخ « كرومر » فقد ذكر في كتابه : التاريخ يبدأ من « سومر » ما يلي : « منذ ثلاثة الآف سنة ق . م اكتشف نشيد سومري يوضح أنه في زمن الإله (أنليل أو أيل) نفسه ، لم يكن رعب ولا جوع ولا أسود وذئاب ، الكون كله يعبدون هذا الإله . ذلك اسطع دليل على عمق وصواب إيمانهم بوحدانية الله ، ولعل شعاع التوحيد المصري الفرعوني « الأتوني » قد نفذ إلى بصائر هذه الرقعة المتقدمة حضارة وسلوكاً . فاكتفى شعبها بإتخاذ إلهم مثالاً للخير والمحبة والسلام دونما تفكير بالماورائيات .

في عصر (العُبيد) كانت تزخر القبور بالمواد الغذائية وبتمثالٍ صغير لآلهة العالم .
ثم في عصر : (جَمْدَتَ نَصَّرَ) كانت تقدم الذبائح للآلهة ، وكان الملك معتبراً ممثلاً لها .
ومؤخراً أظهرت الحفريات مقابر لملوك تضمُّ : سَرية الملك وموسيقاه وخادمه المحبب وسواهم . وقد اعتبر كل هؤلاء مرافقين للملك لا ضحايا عنه .

استمرت هذه العادة في (أور) حتى الأسرة الثالثة ، إذ كانوا يزعمون العالم الآخر موضعاً مظلماً ومريعاً : « إنه البلاد التي لا عودة منها إلى الأرض » .

فإذا كان المؤرخ (سليمان مظهر) قد اعتبر آلهة الفرس ماديين ، لحاجة الشعب إلى الغذاء والطمأنينة ، فليس معنى ذلك إجتذاب المادة للعقول ولكن للجيرة حق تبادل المعتقدات والعادات وبخاصةٍ أن التاريخ قد علمنا منذ السلف البعيد للإنسان ، ماللروحانيات من تأثير في النفوس وفي تصرفات الشعوب اليومية . ودليلنا أن حضارة عصرنا الحالي ، مادية صرفاً، ولم يكن من أسبابها الرئيسية العوز وحده ، بل هناك فكر مجرد منطلق عالياً يقر المبادىء وينشرها .

أما بدء الخلق في عقيدة شعوب ما بين النهرين فيزعمونه على الشكل الآتي :

الخلق :

كان في الوجود (ألسُو) أي المحيط الأزلي و (تيمات) المياه المالحة ، قبل أن تكون سماء ولا أرض ولا آلهة ، سوى الفضاء المحيط الحالك : (أبو كل شيء) . وعلى تعاقب الأزمنة وإختلاط الماء بالفضاء ، خرجت الأشياء بأشكالها المتنوعة ، فكانت : إلهة النور . أوجستْ (تيمات) لأن النور مناقض لطبيعتها المتميزة بالفوضى والمشاكل . ولما كانت

السماء ترغب في الإستقرار والهدوء ، فقد حملت تيمات نار الضغينة ضد آلهة النور ، وأصرت على العداء فالحرب .

وكانت الحرب الطحون وكان (مَرْدوخ) الشاب الباسل الظافر والمدمِّر .

وانتهت الأسطورة بأن شق مردوخ عُدوَّته شطرين : أحدهما رفعه ليكون السماوات ، وخفض الثاني ليصبح الأرض . بعدئذ نثر الكواكب في سمائها منتظمةً ، وثبت عليها الآلهة . وقد فطن إلى أن الآلهة بعوزها عابدين ، فانبثق من هذا التفكير : (الإنسان) . عجين من دم مردوخ ومن التراب معاً ، خدمة للآلهة . بهذا غدا الإنسانُ مركباً من روح مقدسة ومن مادة .

ومع الزمن ساق مركب النقص في الإنسان ، إلى اللهو والعبث ونسيان واجباته نحو الآلهة ، فغضب (مردوخ) واصر على إفناء الجنس البشري أجمع . على أن إلهة الحكمة (أَيّ) دفعتها الرأفة على الجنس ، فانقذت منه رجلاً وأمرأة ليتناسلا ، وكان : (شمس بشتين) وزوجته . (وشمس) بدوره صنع فلكاً ، زخره بزوج من كل مخلوق . وكان الطَوف . وكانت الأسطورة المعهودة . . رضي أخيراً مردوخ على شمس ، وبارك الزوجين ، وقدم لهما سر الخلود ، ورفعه بموافقة الآلهةِ إلى مصافّها .

قال (هامرتون) أن أعظم معابد (أور) إتقاناً كان : (جيغ - بار - كو ، Gig - Par - Ku) بناه (بورسن ، Bur - Sin) عام (٢٣٤٥) قبل الميلاد ، لمعبودته (نين - غال ، Nin - Gal) وكان ذلك الملك يرسل لحيته مجعدة تشبهاً بالهتهم . وعشتروث واهبة الحب والخصب ، كانت تظهر كاشفة نهديها بصفتها إلهة الأمومة . سميت بـ « سومر » (إنيني ، Innini) أو (الزهرة) وبعد سقوط بابل أصبحت زوجة (تموز) ، وهو أدونيس الجميل . أما الإله الأكبر (مردوخ) فإنه يعني بالسومرية : السيد . كانت له شبكة يضيد بها العصاة . وقد ولد من الزوجين : (أنكي وننكي) سيِّد الأرض . ورث السِحر عن أبيه ، وله أربع عيون وأربع آذان وخمسون إسماً وَصِفه . له زوجة تسمى (ساربا نيتوم) أي الوضاءة كالفضة ، ولها تماثيل عدة : حظيت بها الحفريات حديثاً .

من طريف ما عثّر عليه علماء الآثار أغانٍ متنوعة ومعبرة منها : هذا المزمور البابلي للتكفير :

ألا لِيهدأ الغضب في صدر مولاي
لِيهدأ الإله غير المعروف من أحد
لِتهدأ الإلهة التي تغضب عليَّ
إنني اجهل الإثم الذي ارتكبت
وكل سيّآتي أجهلها إطلاقاً
فأنا لم أفطن إلى أكلة غير طاهرة .
واجهل أني وطئت ما ليس بطاهر
أيتها الإلهة المعروفة والمجهولة
اغفري خطاياي . . وسأتّضِعُ أمامكِ
لِيهدأ قلبُكِ الكبير . .
كقلب الأم التي رزقت بمولود » .

(حضارة العراق القديمة « الدكتور نجيب إبراهيم ») .

وتابع المؤلف في فيض من المعاني والوصف الدقيق مكتفين بما يلي :

يقول المرجع في صفحته الـ (٢٦٤) حول جلغامش ، أن ست لوحات كشفت منها خمس ، ترجع إلى القرن الخامس عشر (ق . م) في بلدة (نيبوره) ومآل الأسطورة تختلف عما سبق ، تقول : إن ملك (كِيشْ) المدعو (آجا) أرسل يدعو أهل الوركاء مقر (جَلْغامِش) لِخضوعه . وافق مجلس الشيوخ ، لكن جلغامش أبى ، فجنّدَ الشباب وقاتل حتى وقع أسيراً وأطلقه (آجا) رحمة منه .

ويتبع ذلك عبارات متفرقة ، معظمها ممحو ، لا يستدل منها على شيء يركن إليه .

أخيراً يروى المؤلف نفسه قطعة معبرة لأحد أدباء سومر ، تقول :

« لم تكد تتفتح عيناي على وميض الضياء
حتى طالعني شر مستطير
دعوت ربي فلم يستجب
توسلت إلى إلهتي فلم تُعِرني ألتِفاتاً
ولم يستطع الساحر أن يجلو قدري
ورائي شرٌّ متزايد يتتبّعُني

كأني لم أرفع قرباناً للإلهة
ولم اخلّد ذكراهم
فعجز الراقي عن معرفة دائي
قبري مفتوح أمامي ـ ومسكني ضاع مني
حتى قال الناس : كم هو مهدَّمْ
وسمع عدوي ذلك . . فتهلل بِشراً
وأضاء الفرحُ مُحياه » .

وبتقصِّيه ودراساته ، رأى الدكتور (رالف لنتون) في مؤلفه (شجرة الحضارة) ما موجزه :

« كان سكان ما بين النهرين يدفنون موتاهم تحت أرضية المساكن . والمعابد فسيحة وفخمة ومسوَّرة ، اسمها (الزقورة ، Ziggurat) وعلى قمتها هيكل لإلهة المدينة . وكانت الهياكل صغيرة ينقلونها أثناء أعيادهم . وعلى الملك أن يخصص منزلاً فخماً مفروشاً ، مع خدم وكاهن وزوجة هي ابنة أو نسيبة الحاكم ، زاعمين أن الإلهَ يزورها ليلاً ، وتبوح له بمشاكل الناس . وبواسطة الحلم يستقي الحاكم منه التعليمات . بهذا تمتَّنت الرابطة بين : حكومة وأُلوهة .

كان إسم هذه الزوجة (أَنْتُو ، Entu) وقد يكون للإله زوجات عدة ، ولكن طليقات . ومراعاةً لقانون المصلح (حمورابي) قد حرموا الخمر على الجميع ، وينزل الحريق بقانية .

مركز الإلهة في إرتفاع وإنخفاض بنظر الرعية . حسب الظرف السياسي للبلاد ، وحكمته في تدبير الأمور وتأمين النصر . وكانت المعابد مراكزاً للتعليم المختلط آنذاك . والعرافون مكانتهم أدنى من مرتبة الكهنة ، وشغلهم بالعلوم والغيبيات ، وإستخدام أحشاء الحيوان للإستدلال . وقد امعنوا وتوغلوا وتعمقوا في دراسة النجوم : حتى فاقوا المصرين بها ، وتنبأوا بالخسوف . ومعتقداتهم أن مدينة (سومر) هي تحت السيطرة والرعاية الإلهية ، والحاكم فيها هو الوكيل لتلك الدولة المقدسة ، ويلي الآلهة مرتبة .

لكن (تاريخ البشرية) قد مدَّنا بالدراسة التالية :

بـدأوا العبادة في (سـومر) للقصب ، لفـرط الحاجـة إليه ، منـهُ تصنع الأكـواخ ، والأقلام للكَتَبة ، وآلة الموسيقى للرعـاة . والإلهة ذات رمـز القصب هي (نيدابـا) وكأنما ينبت من كتفيها .

وكان عسيراً على السومري أن يتصور أن هنالك إلهاً بعيداً ، تصـوَّره الشعب أرضياً قريباً ومحبباً إليهم .

وأنليل في نظر المؤلف هو إله العواصف أولاً وهو حافظ النظام بحزم وعنف . قالـوا فيه :

« يا أبانا أنليل تطلق عيناك نظراتٍ مريعة ، متى تستعيدان سكينتهما » . وأنليل هـو كذلك صانع الخيرات ، وباعث الخصب والإقبال ، ومعلم الإنسان كيف يتعاطى الزراعـة والحرث . وكانت إلى جانب : نيدابا وأنليل : الأرض الأم وهي المعـطاء . وينبوع الحيـاة الدافق ابداً . اسمها (نين ماكَه ، Nin - Makh) ثم هنـاك (أنكي) سيد الأرض والعنصر الـذَكَر فيهـا . وكان (نـرغال) إلـه ما تحت الأرض . كـما كان هنـاك : القمـر والـزهـرة (فانوس وعشتار) و (إينانا) .

هـذه العبادات كـانت قبل عهـد شعوب (آل عُبيـد) . وبعدهـا تـطورت الحيـاة ، ووجدت المدن والقـرى وغدا بها لكل مـدينة وقـرية إلـه خاص ، هـو الباعث لخيـراتها ، وحارس شعبها ومليكها . ابتدعوه هم . وهم مؤمنون بعظيم عطائه وسلطانه .

كـان إسم إلهة مـدينة (أور) (أنُـو Anu) يخضع لهـا سائـر الآلهة بـالنظر لعـظمـة المدينة .

أخيراً أقرّت الآلهة بعظمة وسلطان (مردوخ) ، بعد قتله لـ (تيامـات) إلهة الشر، فمنحوه السلطة الكاملة ، بشراً وآلهة . وكـان إسم المبيت الذي ينـزله منفـرداً (أُو ، U) حتى عـام (٢١٠٠) ق . م حيث قامت الـ (الـزقورات) في الأبـراج الـرفيعـة . والآلهـة الصغار هي الصلة بين الآلهـة الأكبر وسـائر البشر . أليست هـذه الحال شـأنها في عصرنـا الحـالي ، حيث الأنبياء هم الصلة بـين البشر وإلههم الأحد ، في الـديانـات الظاهـرة ؟ أو ليست صفات هذا الإله ذات شبه كبير بربنـا نحن ؟؟ وبالعقـل الأعظم : مقتـدى العـالم وعلم الروح الحديث ؟؟ .

الفصل الثاني

الديانة الاكادية

وُجد الأكاديون (شمالي سومر) ، وما كانت لتفرق ديانتهم عن السومرية نظراً لقرب الديار ، وحسن الجوار ، والبيئة والمناخ ، والعصر الذي طبعهما بطابع خاص متشابه ، في ما يتعلق بالمعتقدات والطقوس الدينية ، وسلطة الكهنوت ، ومهامه ، والتنجيم والسحر .

من أبرز ما آمن به هؤلاء بجدية متناهية ، إعتقادُهم بأن العالم تكوَّن من « الماء » في نَوْعَيهِ : العذب ، المدعو الإله (أبْسو) والمِلح : الإلهة (تيماتْ) . بإقتران هذين الإلهين ، انبثقت الخليقة ، بما فيها من آلهة متعددة ، ومن بشر ومخلوقات .

ميزة الآلهة عندهم أنها مخلوقات سماوية = على نقيض آلهة سومر البشرية العنصر = وحياتها أبدية . تربطها بالبشر أحاسيس خاصة ، ودوافع خيرة مهمتها تثبيت دعائم الصلاح والسلام ، ومطاردة العناصر الشريرة المبثوثة بين الناس .

أما مهمة الناس تجاه آلهتهم فلخدمتها وعبادتها ، وتقديم القرابين إستعطافاً لها ، وحباً بها ، وفي نفس أولئك الناس طبيعة فاعلة لممارسة السحر ، وتلاوة التعاويذ ، والتبرك بالتمائم ، كله إحترازاً للنفس من شر المخلوقات المجرمة . أما السحر لديهم فأمضى سلاح وأوقى درع ، بوجه الأشباح المدمرة . وما هذه الأشباح إلا أرواح الظالمين بعد موتهم . والمتوفون الذين لم ينجدهم أهلهم بالقربان ، والنساء العوانس ، تنقلب كلها إلى شياطين حاقدين على الجنس البشري .

للإكاديين مثلثٌ إلهي أسمى هو (أنّو) إله السماء و (وأنليل) إله الهواء والأرض و (أنكي) إله البحار . ولهم آلهة ثانوية غيرها ، مشتركة بينهم وبين السومريين ، شرقي سوريا . والآله أنكي هو معلم السحر وراعيه .

أن طبيعة الأكاديين متشابهة مع طبائع السومريين ، من حيث الأيمان المادي . فلا يعيرون كبير إهتمام إلى الميت ، وفخامة ناووسه ، وعظم الإحتفال بدفنه . واجبهم تجاه موتاهم ، تزويدهم بالأطعمة ، ومركبة السفر والقربان للآلهة . وليس لديهم عودة

للتجسـد ، وخلودٌ للروح ، شـأن جيـرانهم ، فـالعـودة عنـدهم هي إستعـادة النمـو والإخصاب ، والإنجاب ، عاماً بعد عام . والحياة الأرضية عند السومريين والأكاديين هي الحياة الحقيقية . . بنعيمها وشقائهـا ، ولا سعادة ولا شقـاء بعدهـا . أين هذا المعتقـد من الفكر الديالكتيكي الماركسي المعاصر .

الفصل الثالث

الديانة الحثّية

كانت آسيـا الصغرى مرتع الحثّيين ، وعـاصمتهم « حتوس » فيهـا القصر الملكي ، اكتشفت فيهـا عام (١٩٠٦) نصـوص وأدلّة أفـاضت على دراسـة معتقدهم نـوراً ، جلا كثيراً من الشكوك ، والغوامض ، على رغم بساطة هذا المعتقد وتعدد آلهته .

آلهة الحثّيين لها أشكال بشرية ، يعايشون النـاس ، وعلى هؤلاء خـدمتها ، يقـال ان للحثّيين الهنـدوأوروبيين ألفَ إلهٍ . كلها متفوقـة على العـامة ، مشخصـة كالنـاس ، ذات نوازع خلقية رفيعة . لها عـائلاتهـا وابناؤهـا وزوجاتهـا . تمارس الصنـاعة والزراعة ، ولا ترتكب الشر . تموت لِتتقمص آلهةً بعد فترة وجيزة .

أعـظم هذه الآلهـة كانت الإلهـة « المجهولـة الإسم » التي اتحدت فيـها بعـد بـالإلهـة (حـابت) وهيكلهـا في مـدينـة (أرينـا) وفي المملكـة الحثّـية الحـديثـة ، اعـطيت اللقب الفخـري : « الشمس » . وكان إلـه العاصفـة (حداد) يلقب أحيـانـاً في « بعـل » بكـل المملكة ، وفي الدول المتاخمة .

وفي عهد الفرعون « أمنوفيس الرابع » شـاعت عبادة الشمس في الشـرق الأدنى حين وقع تحت سلطانه . والحقيقة هي أن أمنوفيس المدعو في التوراة بـ اخنوخ كان مؤمناً بـالقوة المبـدعة للشمس وحسب . وكـان الإلـه (تَلَبِينُـو ، Telepinou) مخصصـاً للخصب عـلى الأرض ، هو الذي يوقظ النحل . ومن معبودات الحثيين (وثن) بشكل ثور ، شبيه بالإله الأسيوي (تيزوب) سـلاحه الفـأس والصاعقـة كما لهم آلهـة وآلهات لا تحصى ، معـظمها للنمـو والإقبال ومسببـاتهـا . أطلع المحققـون عـلى صفـائح ، ثبت أن بعض معتقـداتهم كـانت سريـة عن سواد الشعب ، تحمـل رموزاً دينيـة لا يعرفهـا إلا الكهـان والأخيـار من

الناس ، وكان يتلقنه الشعب تلقيناً . ولكن ما تزال هذه الرموز مجهولة لدى المحققين . لعلها مشدودة لصلة روحية مع روحانيٍّ (التيبت) الذين أفردنا لهم فصلاً لاحقاً، أوهي امتداد للوحدانية الأتونية المصرية ، وللراماياناية الهندوأوروبية أرهب ما كان يقض مضاجع الحثيين هو : الشر المتربص لكل إنسان . شر فردي وآخر جماعي . أما الفردي فمصدره : إما خطأ ارتكبه هذا الفرد ، أو سلطة خارجية أوقعته به مرغماً . والشر الجماعي هو : إما غزاة أشداء ، أو وباء فاتك ، أو فيض أو قحط ، أو زلزال .

بين الآلهة والبشر طبقة متوسطة هي : إما صالحة وإما شريرة . وكلاهما له تأثير عميق ومباشر بالإنسان ، كلٌّ حسب عنصره وهناك أساطير مختلفة تظهر فيها قدرات المخلوقات الخيرة وكفاحها في سبيل راحة الجماعة والفرد ، وصد المخلوقات الشريرة وأحياناً قتلها : كأسد وأفعى .

مساكن آلهتهم :

مساكن آلهتهم كلها في السماء ، وعلى الأرض ، حيث تشاء هي . وحين تنزل الأرض تتطلب اللباس والغذاء الذي يتطلبه كل إنسان ، كذلك المسكن الفخم ، له ولعائلته وخَدَمه . في النهار ، يمارس الإلهُ صلاحياته كملك ، يحضر الحفلات والألعاب، ويزور الإلهة . أما هيكله فعلى غاية الإتقان والفخامة ببنائه ،ومحتواه . وكثيراً ما يعتبر الحثيون : الينبوع والجبل والغيوم ، آلهة وأنصاف آلهه ، تقدم لها القرابين والأضاحي ، وقد أسفَّ الحثيون فاتخذوا من هيكل الإله ، ونافذته وبابه وأدواته ، رمز القداسة فتقدم لها القرابين كذلك . وعلى قدر مستوى الإله ، وعظمته يُعنى به : مسكناً وملبساً وتغذية . هذا المعتقد الذي كان ظاهراً للباحثين ، أما الباطن الذي غمزوا إليه فظل مجهولاً لأنه كله بعيدٌ عن متناول العامة لغموض تياره الفكري وبعد الزمن .

أعيادهم الدينية :

ليس لدى الحثي دافع روحي يحثه على إقامة الأعياد والحفلات الدينية ، لكنه يقوم بها ، حين يجهده عناء العمل اليومي ، وحين يجد متسعاً من وقته ، فيصرفه في تلك المظاهر . علماً بأن الشعب الحثي مجموعة من مزارعين ورعاة ، وآلهتهم مثلهم ، يتعاطون العمل نفسه في النهار ، وليسوا بكسالى ، وكأنما عملهم هذا قدوة فضلى للمتوانين من

كـانت مهمة الملك الحثي الصلة بـين الآلهة والشعب ، ولا يحمـل صفة الألـوهة في شيء ، كما للفراعنـة . لكنه بعـد الموت يغـدو إلهاً . قَـدْرُه قدر مـا اسلف من خـدمـات وتضحيات لشعبه وآلهته . وليس على الملك إعلان الحروب ، إنما يعلنها الإله ذو العلاقة ، ويتقدم بنفسه الجيوش لساحة القتال . وعادةً كل ملك هـو كاهن منـطقته ، وحـين يقع في خطيئة كبرى ، تتحمل تبعة خطيئته الرعية بأسرها . كذلك الحال في رب العائلة ، بالنسبة إلى زوجته وأبنائـه . كما أن خـطيئة الشعب بـأسره تـطال الملك نفسه ، لأنـه المسؤول عن شعبه . ومن المنفِّذ لعقاب المخلوقات الشريرة ؟ إنها الآلهة المتربصة لكل نافلة .

ولا تنفذ الأعمال الخطيرة بغـير مشورة الإله ، وإفصاحـه بالجـواب سلباً أو إيجـاباً . وكثيراً ما تصدر الأجوبة في حلمٍ ليلي ، من القدرة العليا .

أما السحر فله في نفوس الحثّين التأثير البـالغ . أنـه يوطِّـد الإستقرار في النفـوس ، لأنه يبعد يد الشر عن الناس ، وينزل الأذية بالمعتدين ، ولا يتعـاطى السحر ، إلا الكهنـة المختصـون والكاهنـات ، ولهم فيـه طـرائق شتى ، وتعـازيم ورقى وإبتهـالات ، يعـرفهـا الأخصائيون وحدهم .

وخلاصة نفسية الشعب الحثي أنه ، من أكبـر إله لأحقـر فلاح ، دَيـدنُها : الصدق والصراحة والإلتزام بالعهود مهما سـاقت لهم من متاعب وخسـائر ، ونقض العهـد خطيئـة كبرى ، ومثلها القسم الكاذب ، وقد يؤدي ذلك للموت ، أية إنسانية تلك ؟! .

آلهتهم :

كانت عبادة الحثّين والحوريين ، في العصر البرونزي ، خلا ما ألمحنا إلـ . (الآلهة الأم) وكـان يرمـز إليها بـآلـة (الكمـان) المـوسيقيـة . وهنـاك الأم الأفعى . وكـان رمـز (الشمس) المعبودة : (ثور أو وعل) ، يعنون بها : الآلهة المختصة بالحيوانات وحمايتها . وبمجاورتهم (لسومر) فقد عبدوا (حداد) و (زابابا) . ثم غـدت عندهم عشتـار ، بعد الأمبراطوريـة الجديـدة ، آلهة القصر الملكي . وكـان لكل منـطقة حثّيـة إله خـاص ، وقد سجل الكتبة الحثّيون لهم مئات الإلهة على رأسها (الشمس) وتعني (أرِنّا ، Arinna) .

وبعـد دخول الآريـين بلادهم قبسـوا عنهم عبادة (ميتـرا وأنْدْرا) وذلـك في القـرن الخامس عشر (ق . م) كان الملك رئيس الكهنة ، وهم يعيشون في منـازلهم لا في الهيكل

قط . وكانت الملوك عناصر بشرية لا إلهية ، والآلهة رحيمة وعنيفة حسب الظرف الموجب . وهذا إبتهال لهم نقلهُ تاريخ البشرية :

« أنتِ يا إلهة الشمس يا أرينًا
أنتِ المُحصَّنة العَطوف .
نرى الرجل عزيزاً عليكِ ، فأحرسيه
وأمنحيه رحمتك وعطفكْ
فأنت نور السماء والأرض معاً
وأنت الأم والأب لكل الشعوب » .

ويتابع المرجع موضحاً :

« كانت إلهة الحثّيين تحمِّل الأبناء اخطاء آبائهم ، والأعنف هو : أن يعمد الإله ، في حال خطأ رب العائلة ، إلى إهلاكه فوراً مع زوجته وذريته وخدمه ومواشيه ومزروعاته .

وكان الشعب يردِّد : « هكذا تتصرف الآلهة مع الخُطاة ، فحذار من مخالفة وصاياها » .

مقابل هذا الضراء في الإنتقام ، أوجدت الآلهة مجالاً للصفح ، يغفر ذلك العنف البالغ . كانت توجب أن يعترف بالخطأ الخدم لمولاهم على الفور ، والشعب لمليكه ، وهذا بدوره يقول بخضوع : « هكذا حدث ، لقد اقترفنا كذا وكذا » . وُبعد التوبة الخلوص يغفر كل إثم مهما بلغ .

الأحلام :

واعتبر التاريخ الحثّي بعمق أن الحلم وسيلة للإتصال بالآلهة مباشرة . وأثناء الحروب يطلب الملك من كهنته الإيحاء . يرقدون في غرفة واحدة بعد صلوات وإبتهالات ، ثم أي حلمٍ يتراءى لهم يفسرونه للملك . وعلى ضوئه يتصرف بإيمان . كما آمنوا بإشارات الطيور وبأدلة في أحشاء الضحايا .

وأكدّ المرجع نفسه أن أدلة جمة مَفادها : إعتقاد لفيف من الحثّيين بمباديء باطنية . تسوق للإيمان بحياة أخرى . ولعل الموحي بذلك هو التيارات الشرقية ، والجنوبية بواسطة التجارة المتواصلة بين تلك الحضارات .

الباب الخامس

الفصل الأول

ديانات بابل وأشور والكلدانيين

الديانة الأشوبابليّة :

قلما نحسّ فارقاً رئيسياً بين ديانات آسيا الصغيرة في حقبة ما قبل التاريخ . فلا نجد تعلقاً روحياً بإله ما ، وذلك مرده للحظوة بالشفاعة والمغفرة بعد الموت ، وتأمين الخلود والنعيم للنفس .

آلهتهم آباء رحماء واعون مدبرون ، ساهرون على حسن صحة وطمأنينة وإزدهار البلدة أو البلاد جمعاء .

يتخلل هؤلاء الآلهة الكثيرين ، آلهة وأنصاف آلهة شريرة حقودة .

شغلت هؤلاء الشعوب ، الحياة بعد الموت ، لكنهم لم يجدوا لها أمل إستمرارية البقاء . كانت أحاسيسهم مادية صرفا ، وعلاقاتهم بآلهتهم وكهنتهم كلها مادية ، على ما تحمل من محبة وحنان وإشفاق . عدا ما تضمر الباطنية من مباديء روحية مناقضة لهذه المادية الخالصة .

آمن هذا الشعب بآلالهة وبقدراتها ، وبالقدر وقضائه وبالسحر والتنجيم ، كله لخدمة المصالح اليومية وضمانة الجسد والعائلة من الأذى والمرض والجوع .

كان الإله الأكبر والأقدم (أشور) شمسي الطبيعة ، عقبه (مردوخ وأنو) وسواهما .

وإيمان الشعب بها عن رهبة أكثر منه عن محبة ، لإطَالة أعمار البشر وحسب ، ولا هَمَّ يشغلهم بالآخرة عن دنياهم . ولا هُمّ يعبأون بطقوس الموتى : إيمانهم مطلق بالتنجيم ، يخافون الشياطين هنا على الأرض لأبعدها . ولكي يرضوا نوازعهم النفسية فقد تصوروا معارك طاحنة بين إلهيّ الخير والشر ، ينتصر فيها إله الخير ، فيشبع رغباتهم ، ويقضي على وساوسهم ومخاوفهم . لذا كانت هذه الأسطورة منتشرة في أرجاء البلاد ، تلقَّفها الشعبِ بنهم لأنها آنست مشاعره ، وطمأنت هواجسه .

أما أشور ، فكان يمثل شعبه الشياطين في أشباح بشر ، وهو في رعب دائم منها ، ولم يعبدها قط . يقاومها الكهنة المدعوون (أسْفيبو كْلاس ، Asphipu - Class) يطردونها بواسطة السحر فيريحون الأطفال من شرها . وُجِدَ هذا النشيد وفيه تعبير صادق عن تأثير تلك الآلهة :

« إنها سبعة حقاً . . إنها سبعة
تسكن قرار المحيط وهي سبعة
وليست بالذكور ولا بالإناث
إنها الريح الجارفة والوباء العضال
ليس لها أولاد ولا لها زوجات
ولا تعرف الرحمة ولا تُحسُّ بالحَنان
ولا مرةً أصغتْ لِتوسل ولا لِضَراعة . . » .

واعتقد الأشوريون أن هناك أنصاف شياطين وأنصاف بشر ، وأنصاف آلهة ، الأولى وليدة الغيلان ، والثانية ولّدت بقرانها من عذراوات بشرية . وكان الكاهن يستعوذ بأحد الآلهة لطرد الشيطان ، ويقدم لها أحياناً بعض الذبائح ، قائلاً :

« قدّموا لها الخنزير بدل الإنسان ، وليكن لحم عن لحم ، ودم عن دم » .

كل ذلك يدل على الخط الإنساني السليم الذي يعتبره ويقدره معتنقو الديانات القديمة . ألم يقل التاريخ البابلي : « إذا لم يعبأ الملك (ممثل الإله) بالقانون هلك شعبه وأزيلت دولته ؟ » .

وقال بوحي من قانون حمورابي : « إذا أصغى الملك إلى المسيء حلّت الفوضى ،

وإذا أصغى إلى (أيا ، Ea) أعانته الآلهة على اصدار المراسيم والقرارات العادلة .

كانت تنزل هذه التعليمات على الملك بواسطة وسطاء ، بينهم وبين الآلهة نفسها . وكانت تلمح إلى إعتقادٍ بوجود عالم آخر عند بعضهم ، أما البابليون أنفسهم فيؤمنون برحلةٍ لا رجعة بعدها . تروي أسطورة بابلية كيف أن (أدايا ، Adapa) أضاع فرصة الفوز بالخلود لبني الإنسان ، وإن الآلهة وحدها هي الخالدة بتجدد حياتها شأن (تموز) في بابل خاصة . كان الدين سلوكاً أكثر منه عقيدة ، إذ كان يعتبر كل ما يحيق بالإنسان من خير وشر هو من وحي الآلهة .

وهذه نسخة أشورية يعود تاريخها إلى أول القرن السابع (ق . م) ويظن أنها بابلية ، موجزها :

لا تغتبْ أحداً ، وكن عَفَّ اللسان ـ لا تنطق بالشر ، وإلا يصبُّ الإله (شماس) غضبه على رأسك .

وروت الأنسيكلوبيديا البريطانية أنه في معبد الشمس في (بابل) توجد مَرْكبة شمسيَّة ، وخيول مخصصة للآلهة وأختامٌ تصور الشمس إلهاً . . من توصياتهم :

« عليك بالصلاة والإستغفار كل صباح ، تسعدُ بمعونة الإله فمخافة الإله تجلب الرضى » عن : (آلهة السِحر : ستانلي كوك المرجع السابق) .

فالديانة « الأشوبابلية » اعتبرها الأستاذ البحاثة البريطاني (س . لانْغْدونْ ، S. Langdon) تكملةً للسومرية بفضل الساميين النازحين من جنوبي الجزيرة العربية ، قبل الألف الثالث (ق . م) ولم تكن تلك الجزيرة لتخضع لفتوح الملك « سرجون » (٢٧٣٢) ق . م رغم إمتداد فتوحه .

وكان إلى جانب الطقوس الدينية المعبرة بالسامرية ، أدب (أشوبابلي) رفيع ، وكانت صلوات وترانيم عذبة أخاذة . ولا عجب فالكاثوليكية حتى اليوم تقيم صلواتها باللاتينية وتعير الترانيم الكنسية كل عناية كذلك شأن الإسلام في تجويد آيات كتابه المنزل .

ولما كان الأدب على أنواعه ، يصور حقيقة الشعوب بحياتها الظاهرة ، وباطنها ، وبسيكولوجية أفرادها ، فقد رأيت توضيحاً للقارىء الكريم ، أن أعرب مجموعة من

المقاطع في شعر منثور ، تتضح فيه للمطالع الصورة الصادقة لأولئك الشعوب ، ولعلاقتهم الحميمة بآلهتهم .

هذا مقطع من قصيدة الخلق :

« حين لم تكن بعد في الأعالي سماء
ولا كانت انبسطت أرض
كان « المحيط الأقدمُ » أبا البشر
وكانت « تيامات » الرعناء أم الجميع
قبل أن يوجد إله وتبرز أشياء
وقبل أن تنبسط يمين الأقدار
كان « لاهمو » وكانت « لاهوما » مخلوقين » .

هذان المخلوقان هما : المحيط والبحر ، ويعني بهما الشاعر : المياه العذبة والمالحة حيث خرج (أنْشارْ وكيشار » أي السماء والأرض ، عقبهما إله الأولى « أنو » وإله الثانية «بال» ثم «أيا» إله الماء جمعاء . وتناسلت وكانت معركة «تيامات» التي مرَّ بنا مقتضبها .

كانت الديانة « الأشوبابلية » مرتكزة على العديد العديد من الآلهة ، منها الرئيسية المدبرة ، ومنها الثانوية . وكان لكل مهنة وحرفةٍ إلهها ، ولكل صناعة وفنٍّ إلههُ ، وللنبات ، والمياه والجبال آلهة، وكانت آلهة للعدالة والموق . وكان إله لشمس الغروب ، يتربع على عربة تدفعها أربعة أحصنة ، يجوب بها السموات ، إنه الإله : (بونان ، Bonan) وعن جانبي هذا الإله ، يجثم إلها الإستقامة والعدالة . يصحبها موسيقيون ستة ، ينقرون على الكيتار . وقد بلغ عد تلك الآلهة خمسة آلاف، بين عظيم ومتواضع .

بعد دراسات واسعة أكد الباحثان البريطاني : (أندرو ـ لانغ ، Andrew Lang) ، والنمساوي : (وِلْهَلْم شْميتّ ، Welhelm shmitt) أنه منذ الغابر السحيق ، ظهرت بوارق إيمان بقدرة عليا واحدة مدبرة خلاقة ، تتهامس بها الحضارات ، فتبدو ثابتةً حينا ، وحينا غامضة ، تطفو عليها قوافل الآلهة . بين الإخصائيين الذين سلموا بهذا الرأي : (لَيوپولد ڤون شرودر ، Léopold Von Sehroeder) و (فُوركارت ، Fourcart) و (هرمَن جونكر ، Herman Junker) وفي قصيدة الخلق البابلية المنبثقة عن السومرية يُعتبر (أبسو ، Apsou) هو خالق الآلهة .

وما يعنينا بحثه بشيء من التفصيل هنا الآلهة التي كان يؤمن بها (الأشـوبابليـون) ، التي تتصدر المجمع الإلهي الأعظم . معظمهـا آمن به السـومريـون ، حامـلاً الإسم نفسه مثل : « أنليل ، أنكي ، سِين ، أداد ، مردوخ وتموز » . وهناك المثلث الإلهي الأشوبابـلي أنه : « أنو » إله السماء وأبو الآلهة ، وعشتـار ابنته وعشيقـة الإله « تمـوز » ، « وبال » إلـه الأرض ، ومُقر الأقدار ، له تبعات الإله « مردوخ » . وكثير من الآلهة تتوافق مسؤولياتها .

على أن الإله « أنليل » هو الأحبُّ والأودُّ إلى النـاس . صلاحيـاته جمـة منها : سيـد الأرض وأبـوها ، وراعي الشعـوب ، الخالق لحكمتـه العليـا ، والـراقـد المطمئن ، وإلـه الروح ، والريح ، وسيد المجمع الإلهي .

وهو ذلك الراعي الصالح الذي أغنى بحسناته خيال الشعراء . ولنا بالمقاطع الموجزة في إبتهال موجـه إليه من أحـد أفراد العـامة ، تصـويرٌ صـادق لمكانتـه وخاصـةً عند شعب بابل :

« ذلك المتربع على عرش السماء والأرض جمعاء
الإله المفاجيء الحكيم
المسيطر على كافة المناطق ، ذو القول الفصل
« أنليل » السيد الممجد
ما تنفثه شفتاه ، لا يقوى على نقضه إله
سيد الأسيادِ وملك الملوك ، وناسل الآلهة العظام » .

* * * * *

رحماك إلهي !! بك وثقت وإليك ابتهلْ
يا من صوتك مالىء مسمعي !! يا مقرراً قدَرَ حياتي !!
لتكن مشيئتك صيانة إسمي !
وذُدْ عني الأذى ، وزوِّدني بِعَدلكْ
وظلِّلني بعظيم جبروتكْ
فيقدرُني الملك ويحترمني الإلهْ » .

* * * * *

يتبين من هذا التضرّع ، مقدار توق الإنسان لعطف إلهه الأعظم ، كما يتضح أن هذا الخلق صدر عن « كلمة » الإله مباشرة .

في هذا المعتقد إلهتان بارزتان هما : ١ ـ « غولا » الإلهة العظمى والشافية . شعارها أنها تبدو جالسة على العرش ، ذات قرون ، مصحوبة دائماً « بكلب » يحرس المنزل . مهمتها الدفاع عن الصالحين ومعاقبة الأشرار .

٢ ـ « عشتار » الإلهة العذراء ، إلهة السماوات ومعشوقة الإله « تموز » إله النبات أنها شفيعة الحب والجمال والدعارة والزواج ، كما هي أحياناً ، إلهة المعارك وإلهة الشفاء .

إتحدت « عشتار » بنجمة « الزُهرة » ورمزها نجمة ذات أشعة سبعة ، وهي ابنة « سين » إله القمر . ولها نحيب وأسىً عميق على حبيبها المفقود « تموز » ، تناقلته المناطق المجاورة بألم عميق ، تظهر منتصبة على ظهر أسد تتألق على جبهتها « الزهرة » وبيدها باقة زهر أو فرع غار . إلهة تنطوي جوارحها على إحساس بشري عارم ورهيف : إنها تحب وتتألم وتدمع شأن كل العاشقين .

والإله « نرغال » رمزه « الأسد المجنح » ، هو الإله المحارب والناسخ ، وإله الوباء ، شارك في خلق العالم .

لكن الإله « مردوخ » فإنه الأقدم . وبطل معركة « تيامات » . كان إله « أشور » خاصة ، ثم غدا ندا للإله « أنليل » وبعدها أمسى إله الشمس الأكبر وطبقت شهرته المملكتين . ومعاد الفضل في هذه الشهرة لرغبة المشترع الكبير « حمورابي » ، الذي أوعز للشعراء بنسج الأساطير حوله . وقيل أن له أربع أعين وأربع آذان وهو الابن البكر للإله « أيا » ، واعتبر أعقل العقلاء بين الآلهة وأمهر الساحرين . كوكبه في السماء « المشتري » .

وكان من آلهتهم : « أداد » و « ونابو » والإله « أشور » وهو الإله القومي الأكبر ، وخالق البشر في أذهان الأشوريين ، الذين يؤمنون بأن النجوم ثقوب يمر من خلالها النور الظاهر القادم إلينا من صور السماء . وحمورابي : هو الملك الإله (١٧٢٨) ق . م حكم ثلاثين عاماً نص قانونه المشهور عين بعين وسن بسن . كان رؤوفاً وشفيعاً بالشَعب والأرامل .

في المقاطع الشعرية الجمة ، التي نوجز القليل منها هنا ، تلميح يكشف عن سرائر

العامة ، ونوازعهم تجاه أي إله يعبدون . وهذه خلاصة صلاة إلى « النـور » لحراسـة الإله « مردوخ »

التزم مردوخ بإله الضياء الأعم
وأشرع أمام مردوخ كل سبيل
وانجز من أجله كل حكم
ولْتنزل بركات المشرق والمغرب على . . « مردوخ »
مردوخ ! !
يتقدَّس منزل كل مريض تلألأ بنورهْ
فليبدد كل شر عن كل مريض
وليدخل الوئام إلى كل مضجع
ولتدخل القوة والتفوق والإلهة الواقية
ويعم الصفاء والإقبال والرفاهية
ولينهمرفي حضرته الغنى والرحمة والوفاق
ولتنقذ الآلهة العظام أوامر « مردوخ »
وليدم مردوخ السيد في الكون ابدا
تعالي يا آلهة النور ورسخي ما هو صالح
ولتنبعث من فمك الحياة
وليترقرق على شفتيك السلام
لأتملأ حياةً منك يا ضياء » .

* * * * *

صلاة إلى (نيزابا ، Nizaba) إلهة الحبوب :
« يا إلهة الرحمة يا « نيزابا » ! !
يا من صنعت الآلهة والملوك والناس
أنت يا من تسكِّنين غضب كل إلهة وإله
وفِّقيني مع إلهي الغضوب
لكي أمجد بجرأة عظمة لاهوتك » .

وحين اكتسح الأشوريون بلاد ما بين النهرين ، وامتدتُ فتوحاتهم ، رفعوا الإله أشور « إلى اسمى المراتب وسمي أبا الآلهة .يبتهلون إليه كل صباح .

الفصل الثاني

منازل الالهة

كبار آلهة (الأشوبابليين) لها هياكل خاصة ، تتفاوت فخامة وإرتفاعاً بتفاوت مقام آلهتها . أما الآلهة الصغرى ، فلها مذابح ، تقدم فيها الصلاة والتعْزيم والمثال على ذلك :

١ ـ لإلهة السماء : (أنيني ، Anini) المسماة « عشتار » هيكل يسمى « بيت السماء » .

٢ ـ وهيكل في (نيبهور ، Nibhour) للإله « أنليل » . تقع هذه الهياكل وسط المُدُن محاطةً ببرج شاهقٍ .

٣ ـ وفي « بابل » هيكل عظيم للإله « مردوخ » يسمى : « هيكل الرأس الشامخ » يجاوره مذبح يدعى : « البيت الذي يمجد الحكمة » . ومردوخ نفسه إله الكفاح والإخصاب .

وفي بابل وأشور إلهة ذات مكانة رفيعة جداً هي : (نيبْهُورْسِغْ ، Nibhoursig) . إنها إلهة الأرض . اعتبرت خالقةَ الإنسان من صلصال ، لها تماثيل عدة تظهر فيها مع طفل على صدرها .

أما الأبراج التي تتوسط الهياكل ، فمنها ذو أربعة طوابق ، ومنها ذو سبعة . أشهرها برج (أزاجيلا ، Azagila) الذي اسمته اسطورة في التوراة بإسم : « بُرج بابل » . إرتفاعه ثمانون متراً ، ومحيط قاعدته تسعون متراً ، وهو مؤلف من سبعة طوابق . الأخير منها « محراب » . وهياكل آشور من المرمر الأبيض ، ذات أربعة طوابق ، أشهرها برج « نينوى » والبرج الأفخم تطلى جدرانه الخارجية بالذهب ويخصص بالشمس .

ماذا تعني هذه الأعداد في الطوابق بالأبراج ، العدد « أربعة » ثم سبعة ؟؟ لعلها تشير إلى بعض آلهتهم ، أو إنها رمز للإله « جبل الأرض » أو « الأرض المغلقة » حيث تستريح « أبسو » نسمة الحياة ، محاطةً بالبحر المالح ، الذي يضم العالم السفلي ، دنيا أرواحِ المتوفين .

وهيكل « أنليل » في أشور يلقب بـ « بيت الجبل الشامخ » . وكل برج لكل إله كبير يدعى « بيتا » لشيء ما .

غير أن الباحثين والإنتروبولوجيين اكتشفوا أنـه بعد الألف الثاني (ق . م) تحولت الأبراج كلها إلى طـوابق سبعة . سبب ذلـك ، شيوع علم التنجيم والفلك ، وممـارسته في كـل منزل ، مـع إيمـان راسخ بقـوة تـأثير الكـواكب عـلى البشر وعـلى صحتهم ورزقهم ومصيـرهم . لذا فقـد اعتبر (الأشـوبابليـون) الكواكب السبعـة ترمـز لآلهة سبعـة هي : (المشتري لمردوخ ، والمريخ لنرغال ، والشمس للإله شمس ، والـزهرة لعشتـار ، وعطارد لنابو ، والقمر للإله سين ، وزُحل لنينورتا .

هذه الأبراج كانت مدهونة ، كل طابق بلون خاص ولإله خـاص أما الأسفـل فلونه الأسود دائماً ، ويرمز إلى « زحل » ومن الطقوس المتأصلة في الشعوب « الأشوبابلية » نظافة الأجسام وتطهيرها قبل الولوج في أي مذبـح أو هيكل . بمـاذا يتطهـرون ؟ بالمـاء الزلال ، فإنه يطرد الأرواح الشريرة ويطهر الناس ويؤهلها لتقديم النذور والتسابيح .

الكهنوت :

كانت مهمة الكهنوت ، صيانة الهياكل ، وتدبيرها ، والتقـديس للآلهـة ، ثم أخيراً تفسير « الأحلام » للعامة . إذ أن الحلم هو الطريق الأوضح للتفاهم بين الآلهة والنـاس . وكثيراً ما يتعاطي الكهنة السحر ، لشدة إيمان الناس بسلطانـه ، على القـوى الشريـرة غير المنـظورة . ونجاح السحـر بالتعـزيم ، حيث تمثل أمـام ناظـر معركـة « مردوخ وتيـامات » وإنتصـار الأول . والسحر في نـظرهم معـركـة صغـرى بـين إلـه وشيـطان ، ينتحـر فيهـا الشيطان .

وهنـاك التنجيم إذ المعتقد عنـد هؤلاء بـأنهم يتوصلون بواسـطته إلى معـرفـة الإرادة الإلهيـة ، فيعرف المنجم مـا يمكن أن يحـدث لـلإنسـان ، ولكـل امـرىءٍ نجم خـاص بـه وحده .

والمهـام الجليلة اليوميـة للكهنوت هي التفنن في ألـوان المآكـل والمشارب والـطيـوب والأفاويه ، لتقدم على مائدة الآلهة المعنيين . من هذه المآكل : الخبز غير المخمر ، والسمن والعسل والخمر وأنواع الفواكه .

وبعد الدراسات المتواصلة التي قام بها المؤرخ (دْهـورْم ، Dhorm) وجد أن آلهة هؤلاء يعوزهم الغذاء اليومي ، لأنهم بشر كامل الخلقة .

الأضاحي

إنها لا تتعدى الحيوانات ، وهي للتكفير والإرضاء . ومواقيتها أيام الأعياد وبخاصة في نيسان وتشرين . ولعل الشجرة التي تقدم في ظلها الضحية تصبح ذات قداسة ، لأنها احتوت روح الإله . فلغة التقديس هذه هي سومرية في أشور وبابل ، وكل صلاة يرافقها عزف رخيم على « العِثيار » في أيام معينة من كل شهر وهي الـ : الأول منه والـ : ٢ و ٧ و ١٤ و ١٥ منه .

الطقوس

كان اليوم الأول من نيسان ، هو أول العام في عرفهم ، عيد الإله « انليل في الدولتين وعيده في أول كل شهر من السنة ، والثاني من كل شهر عيد الآلهة « عشتار » . هذه الأعياد والطقوس الكبرى ، لا تقام إلا لقلائل من آلهتهم أمثال : « أنليل وعشتار ونرغال والإلهة الأم دنجرما » الغاية من إقامة هذه الطقوس هي : التوسل إلى الآلهة ، لكبح جماح الشر ، ولإرضائها بالتقديس والذبائح والود المستمر بينهما . ومن خصائص يوم « عشتار » أي الثاني من كل شهر ، إنتشار الحزن والتخوف بين الناس ، فلا يجازفون في المرور بالشوارع ، ولا يحادثون عابراً ، ولا يأكلون فيه السمك ، وعلى عكسه اليوم السابع منه فإنه يوم « عشتار » يوم الرقص والمرح والغناء . وعشتار هذه عشيقة المثلث (أونو ، أنليل ، أشور » .

وما يجب توضيحه هو أن الموسيقى المقدسة الصادرة من « لِيْلِيْسُّو ، Lilissus) تعني رمز أنليل ، النجمَ للإله « الثور السماوي » ، وما يتبعه من مثلثات ورموز يشير ، كله إلى باطن في عقيدة : الأشوبابليين لم تُقِرَّه البحوث بصراحة وعسر عليهم سبر غور كل باطنية عالمية . سُمي بـ : عقائد (كالو ، Kalou) السرِّية . فسرَّها الباحثون ، بأنها دور إله الأرض والنبات حيث يسقط بهما إلى الجحيم ، وعلى شرف « كالو » تتلى في الهياكل أناشيد الحزن والتضرع ، ويرجى المثاب والغفران .

من أناشيد التوبة والندامة نقتصر على هذه الأبيات المؤثرة ، التي يستظل غصون

خميلتها : التوحيد المنزه المتعالي السليم :

ها أنذا إلهي أوقظ الصخب ، لأبصر نقاءك الأزلي .

أنا لا أعرف إثماً موجهاً إليك

كيف لي أن أتذكر إثمي .

فعلام تشيح عني بسناكْ

أبحث ولم أجد أحداً يبادلني الولاء

فآسف وأصرخ فهل من سميَعْ ؟؟

فيا إلهي الظاهر والمجهولْ

متى يحين لي سماع حديث قلبكْ

البشرية خرساء ، والعلم تافِهْ

بماذا يحددان الإنسان

متى كنت يا إلهي ، لتنبذ من أخلص إليك ؟؟

هو في حمأةٍ ، اردتَها له ، فتداركْهُ

واسمح بملامسة اليد المبسوطة إليكْ

أزحْ إثمي عني ، تجدني صوتاً داوياً بلاهوتك .

* * * * *

الفصل الثالث

دور الإنسان في هذا المعتقد

الخلق :

تروي اسطورة « مردوخ » أن الإنسان تكون من الصلصال مجبولاً بدم « مردوخ » أو دَم « تيامات » . وإن مردوخ هو ابن « أيا » وهو « نور » الإله الذي نسله ، مسيِّر الأقدار . وفي ملحمة « جلكامش » نجد « أُرورو » يخلق (أباني ، Abani) فتخرج منهُ بيضة الكون : السماء والأرض ، قبل أن يكون إنسان متجسداً .

و « أيَا » نفسها صنعت الإنسان من صَلصال ، فكان الإله الخزَّاف . ونرى نحن في ذلك ، الإنسان صورة أو ظلاً للإله . لذا فمن واجب هذا الإنسان تقدير إلهة لأن ذاك من

أجله وجد . وإذا كان الإنسان ظل إلهـهِ ، فالملك هـو مشابـهٌ للإلـه ، وهو كـاهن عنده ، وصلة بينه وبين رعيته ، وخاضع لسلطانه ، مـطيع لتعـاليمه ، معـاقب على تمـرده ، مسير بقدر من لدنه .

الأب الرحيم والقدر :

كان أكثرَ شعوب الأرض قديماً ، إيماناً بالقدر « الأشوبابليون » بلا منازع . يعتبـرون الأحداث كلها مسجلة في صفائح ، على كل إنسان ، والإله بيده القلم والممحاة ، ولا مَردَّ لحكمـه ، فهو ينـزل سيف القدر ويـرده . وبالقـربان والصلوات والصـلاح يتغلَّل نَصلهُ ، فيَلفح الأرواح الشريرة التي تسعى جاهدة إلى الفتك والترويع .

ذلك الإنسان ، متأبط بمبدأ راسخ ، هو ان إلهه بمثابة أبيه . يحمل له الحنان والرحمة والعون لدى الضيق ، ويحتضنه من أيدي الشر ، ولا شيء يبعده عنه إلا خطاياهُ . ويغتفـر للخطايا إذا صحت النـوايا ، وصـدقت الصلاة . وإلا فيغـدو فريسـة الأرواح الشريـرة ، المنتشـرة على طـول الأرض ، أو يصبح هـالكـاً بـواسـطة أرواح المتـوفَّين التي طـاشت في الفضاء ، بغير رمس تأوي إليه ، عقاباً على أهمالها وإهمال ذويها الأحياء لـطقوس الـدين . والصلاة في مبدأهم هي المسيِّرة لقدر كل إنسان .

ولنا في هذه الأبيات الحزينة المختارة من نشيـد مستفيض ، عبرة بمـا للصلاة من أثـر عميق في نفوس : أ ـ أولئك القدامى المُعسرين :

« منذ تراءى لعيني وميض الحياة ، واجتزت بعض السنينْ
انكفأتُ مرتداً ، إذ طالعني الشر كل الشرْ
فضاقت أنفاسي ، وتهت عن طريق الصوابْ
إبتهلت لإلهي ، فما أراني قط مُحّياهْ
إستغثتُ بإلاهتي ، فلم ترفع رأسها إليْ
ب ـ أي أحداث تكتنف هذا العالمْ
نظرتُ ورائي إذا بالشقاء ملازمي
علامَ شقائي ؟؟ أكانت كاذبة صلواتي لِلإلهْ ؟

ألم اخفض له جناحَ كبريائي ؟ أما سمع ضِراعتي ؟؟
لِيكُنْ . .
وها أنذا مسترسل بالصلاة ، فهي شغلي وتوجُّدي
والقربان الأقدس . . صُراخُ الفرح في قلبي
يوم كَبُرت الآلهةُ ، يوم شريعتي
يوم يتحبَّبون للإلهات ، يوم كسبي وغنايْ
يوم يتضرعون لِلملكِ ، هو انبثاق لبهجتي
بلادي . . لقنْتُها كيف تحفظ آسم إلهي
وشعبي . . علمتهُ كيف يمجد إلهتي
وكيف يتخذ من مَلَكي مَثَله الأسمى في الحياهْ .

* * *

ج ـ أيُّنا مُتاحٌ له أن يدرك مقاصد الإلهة ؟؟
أي كائن ترابي يعي سريرة الإله ؟؟
ذلك الحي لدى المغيب ، والميتُ في الصباحْ
تراه فجأة في ضيق ، وفجأة هو في أمانْ
في آن هو ينشد ، وفي آن يعزِفْ
وفي ومضة طرف ، يُجلجل بصوت رهيبْ . .

* * *

د ـ في عيني العَبرَى ، أمسى منزلي كسجن رهيبْ
وساعداي تغوَّرتا في غضون جسمي
وفي أحشائي . . تسارعتِ لتستقرَّ قدمايْ
حين يتتبع خُطاي الكسلى ، مُضطَهدٌ عنيفْ

* * *

هـ ـ ما أنجدني إلهي ، ولا أخذ بزمامي

ولا الرأفة لامست قلب إلهتي لتمشي بجانبي
. هي ذي مشرعة للرياح ، أبواب قبري
ومضجعي فيهِ مشاعٌ . . مشاعْ
قبل أنطفائي . . لم أظفر بهمس نُواحْ
وكل لسان دمدمْ : . . أدبَر وتدمَّرْ . . »

وفي هذا النشيد : « لمردوخ » يحاول المصلي طلب الحياة لنفسه ، والحمايه كما يتمنى العظمة للآلهه فلْنسمعْهُ :

و- يا حافظ أشور !!

يا واقي البلاد ، ومنقذ الشعب ، والمُهيمن على المحاريب
على فم الشعب أجمع ، اسمك هو المحبوبْ
وبأمرك الأقوى ، وهبتني الحياة ، أيها السيد الأعظم « مردوخ »
دع الصدقَ يسكن فمي ، فأحوزَ ما اتمناه إذا تعطفت برحمتي
ليأخذ بيمناي ويساري : إلهي وإلهتي ، وليحفظا بلادي !!
يا سيد كل حياة !! يا مردوخ !!
قُلْها كلمةْ . .
لِتكنْ حياتي بين يديك في اليوم العظيمْ
ليتنعَّم بكَ « بالُ » ويتهلل مُحيّا « أي »
وكل آلهة الدنيا تمنحك الإجلالْ
وكبرى الآلهة تجهد لتبهج قلبك »

* * *

- وهذه الإلهة « عشتار » تتبجح :
« ها أنا انهضُ لأُنجز تفاؤلي ، أُنهض بكمالي
أنا ذي « عشتار » إلهة المساء والصباحْ
« عشتار » التي تفتح مغالق السماوات
تفتحها لِتتألَق إجلالاً لي
تُشيع عظمتي السكينة في الأرض والسماء »

ح ـ وهذا مُصلٍّ مخلص يقدم الضراعة للإلهة بهذا الأسلوب الناعم :

« ليكن قلبكِ وروحكِ في راحة وإطمئنانْ !!
ليسكن هواجسك السيد الإله « أنو »
ويروحْ عن نفسك الإله « بالْ »
أيتها الإلهة ، يا مالكة السماوات ، لِتنزلْ على قلبك السكينة !! »

* * *

ط ـ إليكِ أبتهل يا حاكمة كل حاكم وإلهة كل إلهْ !!

« عشتار !! يا من بيدكِ مصيرُ الناس وزِمامهم
أيّانَ تتلفتي ، كل ميت يَحيَ ويشف كل مريضْ
وبإطلالتك الباطلُ يستحيلْ حقاً
بعطفكِ اشمليني ، وتقبّلي صلاتي
وانظري إليّ بعمقٍ ، وأصغي لِتوّسلاتي »
مُري بِخلاصي . .
خلاصِ جسمي الحزينِ المُضعضعْ :
خلاصِ قلبي الغريقِ بِدمع الآسى والزفيرْ » .

ويتابع مستغيثاً :

« إني مالكةَ أمري !! حتام يرافقُني الشقاءُ ، ويرتّد إليّ
الضعفاء استقووا وأنا تراخيتْ
إرتفعتُ كموجٍ حرّكتْهُ ريح شرسةْ
وطار قلبي ، طار كعصفورِ السماءْ
ازفرُ ليلَ نهار . . زفيرَ اليَمامْ
أنا شقيٌّ ، أنا بمرارةٍ أبكي
وفي واحةِ العناءِ والعذاب تتخبَّطُ روحي
إلهي !! إلهتي !! أي ذنب أتيتُ ؟ » .

* * *

وهذا توسل متواضع

ي - « تلطَّفي بِقبولِ خشوعي ، وسماع صلواتي

وانظري إليَّ بِيقين . .

فإلى متى ؟ يا مالكة زمامي تغضبين ؟

إلى متى تشيحين بوجهك عني ؟؟ »

هذه زفرات عبر بها ناظموها عما كانوا يتحسسون من خشوع وتضرع وعميق مشاعر تجاه آلهتهم كذلك نرى في الدين « الأشوبابلي » طبقة من المخلوقات المتفوِّقة ، اختصتها الآلهة لتكون وسيطاً بينها وبين البشر ، وهي ساهرة يقظة وصالحة خيرة . هي دائماً في خصام مع الأرواح الشريرة ، بغية وقاية الإنسان ونصرة الحق على الباطل . إنها تحرس الأفراد والمنازل والهياكل والمدن ، من كل يد آثمة . يطلق عليها إسم : (أُوتوكو ، Otoukou) وقيل أن الثيران المجنَّحة المنتصبةَ على مدخل قصر الملك « سرجون » كانت من بعض هذه الأرواح الطيِّبة .

الفصل الرابع

بقاء الروح

يطلق الأشوبابليون على الروح إسم (مآن) لا يجدون لها راحة إلا حين يستقر الجسم في مدفنه . هذه « المآن » لها مستقر على الأرض المُسماة : (كيغال ، Kigal) أي بلاد الظلال. ووجودها الثابت المبهم، تحسَّسناه في هبوط « عشتار » للجحيم، وفي ملحمة « جلغامش » حين حدَّثه رفيقه « إيباني » عن نوع الأقدار المختلفة التي تحيق بالروح بعد الموت . ونرى مصير روح « عشتار » كان سيئاً بحيث كانت تنبت الديدان في الظلّ ، وتتغذى بالغبار والوحول حولها . وحين توفي « إيباني » بكاه « جلغامش » ثُمَّ تذكر نفسه بمصيبته، وودّ أن يعرف نهاية الإنسان بعد الموت . قصد جدَّهُ « أوتابشتيم » بطل الطوفان ليبوح له بهذا السر . أجابه جده : القدر يقرر الموت والبقاء ، ونفوذ القضاء مجهول الموعد . وهذا مقطع دال معبر للإله « شمس » :

« إستاء « شمس » لسوآل جلغامش ، وقال :

« جلغامش » إلى متى تتخبط هنا وهناك

حين خلقت الآلهة البشر . . وضعتِ الموت أمامها
وقبضت على الحياة بِكِلْتَي يديها » .

الحياة بعد الموت :

مشكلة البقاء بعد الموت في هذه الديانة ما برحت تكتنفها غوامض عسيرة . غير أن الأب : (لاغْرَنْج ، Lagrange) لحظ أن القدر غير متساو لدى الجميع ، إذ بتوجب وجود قضاة ، وحكمها غير إختياري ، معتبرة في حسابها الحياة السابقة . أما ساعة الوفاة فهي محددة لكنها غير معروفة . مفروض أن تعقبها حياة اخرى، وتلك إشارة إلى التقمص الذي يقره الباطن العالمي . فهل هنالك تخصيص وإنعام لبعضهم ، أو أن هنالك قيامة عامة ؟؟ .

موجز جلغامش :

وعاد الجد يقص على حفيده « جلغامش » اسطورة الطوفان التي عاشها الجد نفسه ثم منحه « النبتة » التي تديم الشباب . فسلبتها منه افعى . أخيراً أعاد إله الجحيم إلى جلغامش صديقه (أيباني ، Eabani) وأفاده هذا ، أن الأبطال الذين يضحون بحياتهم ، في سبيل بلادهم ، يجتازون عتبة الموت .

المصير شجرة الحياة :

من خلال هذا الغموض حول المصير النهائي للإنسانية ، وبعد دراسة الأناشيد والنصوص المأثورة عن هاتين الديانتَين ، استمرت على الأزمنة اللاحقة ظلال مبهمة تكتنفها . فلسنا على يقين من وجود مكافأة أبدية ، والأبطال الذين جدوا في طلب شجرة الحياة ، وينبوع الحياة لم يجدوهما ، وإن وجدا فسرعان ما يختفيان .

كل ما ألمعت إليه النصوص المكتشفة هو أن المخلصين لدعوة الآلهة بوسعهم إقتسام حياة آلهتهم ، فيخلدون ويغمرهم النور . لكنَّ تناقضاً مستمراً يسجله باحث ويمحوه آخر .

وظل كل إجتهاد وتنقيب ، في موضعه ، كما ظل بقاء الأرواح في هذا الميدان وبهذه الديانة لغزا في خاطر الأحقاب .

وما يلفت الإنتباه هو : قيمة (النور) وصلته الوثقى بالخلق في الديانة الأشوبابلية . هذه الجذور أفرخت وأينعت لدى علماء الروح المعاصرين : التفصيل : كتاب في « نافذة على علم الروح الحديث » للمؤلف سامي أبو شقرا ولنلق الضوء لاحقاً على الديانة الكلدانية .

الباب السادس

الفصل الأول

الديانة الكلدانية

في المعتقدات الإيرانية تشابه عميق غالباً ، معظمه يعود إلى الفرس القديمة ، بعد أن أمحت آثار العبادات البائدة وأساطيرها وأصبح (أهورا مَزدا) إله الخير هو السيد الأعلى .

هذا ما عنيناه في البحث السابق ، حين تركزت الديانة على أسس أخلاقية صرفاً . يقول : (ب . م . أورسيل ، P. M. Oursel) في فلسفة الشرق ما يفسر : « إن قوة مسيطرة على الآلهة تدعى (ألآشا ، Alacha) أوحت بإتحاد (أهورا) ذو المركز الأعلى مع (مَزْدا) الحكيم ، للكفاح ضد (أهرمان) الشرِّير .

وكان (ميترا) الإله الصانع والمنقذ ، شأن (العقل الكلي) و (الكائن الأول) و (طريق النجاة) الـ (طاو ، Tao) في الباطنية . و (ميترا) في عرف الكلدان سيترأسّ احتراق العالم بنار يستحيل مقاومتها ، بغية محو كل دنس على الأرض ، وفي النفوس ، ومحو ظلام (أهرمان) .

كل هذا ، لسيادة الروح الخيرة على الأرض ، وللإستغناء عن الطوفان وأساطيره . كان ميترا إله الشمس في عقيدة الكلدانيين ، و (أنيتا ، Anita) إلهة الخصب . كما كان (هوما ، Homma) « الثور المقدس » ، قد مات ثم بعث حيا ليهبَ الجنس البشري دمه فيسبغ على الجنس الخلود .

ما أكثر شبه هذه الأُسطورة بالأساطير اللاحق ذكرها ، مثل (أوزيرس) المصري و (ديونيسوس) اليوناني وسواهما . إن إله الشمس لدى الفرس هو (ميترا) بنفسه . وهو الذي يُنضج المحاصيل . وقليل منهم ظل مؤمناً بقوة السحاب والريح والمطر واسموها بالروح الخيرة : « دايفا ، Déva) . لدى الإيمان بكل تلك المعتقدات المختلفة . وجب أن يكون هنالك كهنة يدبرون أمر البشر ويكونون الصلات بينهم وبين آلهتهم ، فغالى الإيرانيون في إجلالهم قبل أن يكون السحر مسيطراً على العقول . وبعدها غدا هو المسيطر وانتشرت الأصنام بإيعاز من الكهنوت . كل ذلك للحد من سلطان الشر . والديانة (المِترانيَّة) كانت ترفع سلطان الملوك إلى السماء ، لهذا سادت في إيطاليا القيصرية ونافست المسيحية زمناً .

(ميترا) في نظر أتباعه : إله الشمس وفي الزرادشتية هو مَلَك موكّل بهداية الصالحين . لا يسبقه في الوجود غير الأبد والزمان (زِرفان ، Zirvan) خالقُ الإنسان وقاهر (أهرمان) . وأرواح الأبرار تصعد إلى السماء السابعة حيث كلمة الإله الخالقة .

بدء الخلق :

باتحاد إلهي الخير (أهورا مزدا) بإله الشر (أهرمان) ولد الزمان اللامتناهي المسمّى : (زِرفان) . وقد خرج العالم من ذات الله بواسطة إشراقات دائمة ، أوْسَمُها تجليات ، منها العالم الروحي الأسمى ، وعالم الماديات الأخير والأدنى .

وقال بعض المؤرخين أن (زرڤان) هو إله العالم أجمع ، وقد ولد منه إلهي الخير والشر معاً . وأشار الشهرستاني إلى أن النور أبدع أشخاصاً نورانية روحانية لكن الأعظم فيها هو (زرڤان) ، الذي شك في شيء (ولم يوضح المؤرخ مضمون هذا الشك في من اسمته الباطنية بالعقل الأعظم ، ومن هذا الشك حدث (أهرمان) ، ينبوع المفاسد وموقد الحروب .

كِيومَرْث :

زعم الكلدانيون (كيومرث) هو السابق الأول في الخليقة البشرية ، (شأننا في آدم وشأن الباطنين في العقل الكلي) . وأثبتوا أن (يزدان هو زرفان نفسه) وهم يزعمون أن إله النور كان قد خير العباد ، وهم في عالم الأرواح بين أن يرفعهم ، أو أن يلبسهم

أجساداً ، ويحاربون معه في معركة الخلاص من الشر ، فيكافأون بالجنّة ، ذات الخير والنعم والضياء الغامر . نلحظ شبهاً بيِّنا بين نظرة هؤلاء الإيرانيين في بدء الخلق ، وبين الباطنية في الإسلام ، مع اختلاف في الأعلام ، وفي بعض الظواهر ، حيث سنقف عندها مفصلاً لدى بحث تلك الباطنية .

إن (زرفان) هو أبو الفكر الفارسي للخير والشر ، وهو ديمومة الخلق ، حيث كل ثلاث آلاف سنة تتبدل الأدوار بين خير وشر . والباطن العالمي يسمى هذا التبدل بـ : (أدوار وأكوار) يرافق الأزمنة والإنسان .

وأكدّ المؤرخ نفسه ما ألمحنا إليه من أن الفرس القدامى كانوا يضعون جثة الميت في أعلى الجبل لتنهشها العقبان ، وما كانت هذه الجثث لتحرق أو لتدفن أو لتلقى في الماء .

هذه الطريقة توضح مقدار عناية الفرس في التخلص من جثث موتاهم ، كيلا يحمل التراب منها أي أثر . وهناك رواية تشير إلى أن (كيومرث) هو أول البشر ، كما أسلفنا ، خلقه (أهورا مزدا) بعد خلقه النور الأول على الأرض ، عندها قام أهرمان فخلق الحشرات والزواحف ، ثم عاد فقتل (الثور وكيومرث) معاً . واستمرت بذور القتيل مخابأة في الأرض حتى أربعين عاماً ، حيث أفرخت شجرة خرج منها أول زوجين من بني البشر . وهكذا بدأت فترة إختلاط الخير بالشر ، وإن إنتصار الخير محتم ، لأن آلهه يعلم ما مضى وما سيأتي .

آمن الفرس يومذاك بحرية المعتقد وبالحساب ، وهو يوم يقع النجم المذنب على الأرض . وللخلاص : الصدق قولاً وعملاً مع أفكار طيبة ، وكلام طيب ، وأعمال طيبة ، ومع طهارة في الجسد والروح ونشاط في العمل اليومي .

ودارت عجلة الزمان ، وتكاثر الإنسان ، وبرزت بوادر التنافس ، فالصراع والإقتتال . وعاد الشر ليسود ويستشري .

الفصل الثاني

الطوفان

اتخذ « مردوخ » قراراً بإنزال طوفان ما حق . غير أن إله الحكمة « آي » رأى وجوب

إنقاذ رجل وامرأة لحفظ نسل البشر . وكان المحظوظان : « شمس نَبِشْتين » وزوجته .

في الليل ، استيقظ « شمس » على حلم ينبئه بالخبر ، ويوعز إليه أن ينقل معه واحدة من كل أنواع الحبوب ، وزوجاً من الحيوان ، وأن يبني له فُلكاً . أنصاع لوحي الإله ، وطلى بالقطران جوانب الفلك . وتهاطلت السيول ، وتعالت المياه ، وأُبيدتِ المخلوقات عن جانبي الفلك . واستمرت الحال ستة أيام طوال ، لا تُرى سوى السماء واللجة الصاخبة .

بعدئذ توقفت السيول وأخذت الأرض تبتلع ماءها . لكن « شمس » عاوده قلق مريع ، فارسل غراباً يستطلع وعقبه بعصفور ولم يرجعا . أخيراً أطلق يمامة ، فعادت تحمل غصن « الزيتون » فافرج عن كَرْبه . وحين استقرت قدما « شمس » على التراب ، بادر إلى بناء مذبح للآلهه ، وأحرق فيه البخور ، فتكوكبت على عبيره. مِن بينها « عشتار » ربة الحب فأعجبت بشمس ، وبذوقه الرهيف .

ودار حوار حاد بين « مردوخ » وزملائه ، انتهى بالوفاق وبمباركة « شمس » و « سر الخلود » مع رفعهِ إلى مرتبة الآلهة .

اعترف علماء الآثار والتاريخ . بحدوث طوفان شمل أرض « ما بين النهرين » جمعاء ، وأعتبروه فيضاً لنهري « دجلة والفرات » أما طوفان المحظوظ « شمس » فما عرفه الباحثون قط ، لكنهم لم ينفوا حدوث طواف مدمر في الألف الرابع قبل الميلاد ، والأرجح خلال الألف الثاني على رأي البحاثة المصري الدكتور « عبد المنعم أبو بكر » (قصة الديانات) .

ينفي العلم الحديث أن يكون قد حصل طوفان شامل ، منذ عشرات آلاف السنين ، كما تدعي الأساطير الدينية . ولكن هنالك أماكن متعددة في أميركا الجنوبية وآسيا عرفت فيضانات مهلكة ، غمرت مساحات شاسعة وهذا ما يسلم به العقل النابه .

نتائجه

أما أسطورة هذا الطوفان ، فإنها تلقي وميضاً على الفكر البابلي والأشوري معاً ، وعلى تصرف آلهتهم وكفاحها للمخلوقات الشريرة ، في نصرة الخير ، وضمان الطمأنينة

للعباد . هـذه كانت أولى البذور التي نجمت في النفـوس ، وأمرعت في كنفهـا السكينة ، والإرتياح لقوى جبارة خارقة تصد المكـاره ، وتبيد الآفـات والوحـوش التي كانت تتعـرض لبني الإنسان ، في تلك الرقعة من الأرض وبذلك الزمان .

من هنا ، ارتسمت في خاطر البابـلي والأشوري ، كـما كانت قـد ارتسمت في أفكار الجيرة المتاخمة ، صورة متألقة ، وإيمان صادق بأبوة وأمومة تلك الآلهـة ، إلى أبعد مضمـون الكلمتين .

هذه النظرة للآلهة شملت آسيا الغربيـة جمعاء ، وعـرّفنا بهـا ما أكتشفَ من أسـاطير ونصوص ، وأناشيد رائعة معبّرة .

ديانة هؤلاء « ساميّة » تمتُّ بصلة إلى العبرية . ولغة الطقوس الدينية كلها سومرية ، مصدرها الأصيـل الكلدانية الأولى . كـان أول من عني بجمع ونسـخ تلك المأثـورات من نصـوص وأساطـير وصلوات وأناشيـد الملك « أشور بني بعـل » عام (٦٧٦ ـ ٦١٨) قبـل الميلاد ، منها خرافة « أُتانا » التي ترجع إلى الألف الثالث ق . م .

وماذا سنرى من عقيدة زرادشت ؟ هل تنير لنا طريق الحق ؟ لنمعن في قراءتها :

الباب السابع

الفصل الأول

الديانة الزرادشتية

لفارس أساطير شائعة متناقلة تشير إلى أن النبي زارادشت (زارا) كان قبل المسيح بأجيال طوال . أوجدته القدرة السماوية بالشكل الآتي : دخل الإلهُ الحارس في نبتة الـ (هاوما ، Haoma) ومشى في النسغ إلى جسد راهب ، حين كان هذا يقوم بتقديم القربان المقدس . في الآن نفسه دخل في صدر فتاة نبيلة شعاع سماوي ممجد . وحين تزوج الكاهن من تلك الفتاة ، اقترن الملاك السجين بالشعاع الحبيس فظهر للوجود (زرادشت) المدعو تخفيفاً : (زارا ، Zradsht) . يوم مولده، أخذ (زارا) بالضحك عالياً فتبعثرت من حوله الأرواح الشريرة ، ولدى كبره ، اعتزل في جبل بعيد يقتات بالجبن والتمر وحسب . حاول الشيطان اغراءه ففشل .

كان (زارا) مخلصاً للإله (أهورا مزدا) وقد تجلى له ، واضعاً بين يديه كتاب الـ (أفَسْتْها ، L'Avesta) مُجَمِّع العلمِ والحكمةِ ، موعزاً إليه التبشير في مضمون الكتاب ، بالعالَمِ أجمع .

استمرت دعوة (زارا) مغبونة زمناً حتى عهد الملك الإيراني (فيشْتاسْبا ، Vishtaspa) الذي أصغى إلى تعاليمه واستوعبها فرِحاً بها ، وعهد بنشرها ، ووفى بعهده . هذا الملك هو والد (داريوس الأول) .

اعتبر الإيرانيون هذه الدعوة قد انبثقت في القرن الخامس والخمسين (ق . م) عن (بيروز ، Berose) والتاريخ البابلي أعادها إلى عشرين قرناً (ق . م) . ووجدها الباحثون المحدثون بين القرن العاشر والسادس (ق . م) .

ولما كان الفرس يعبدون الآلهة القديمة التي سبقت (إله الخير) فقد ثار عليهم (زارا) بجرأة وبعنف منادياً بـ (أهورا مزدا) الإله الحق المنقذ . وكل إله سواه ليس إلا أحد تجلياته . وقد حذا (داريوس) مبدأ أبيه ، واعتنق مبدأ (الأفستها) ، وهي مؤلفة من واحد وعشرين مؤلفاً تسمى (ناشس ، Nashs) . في شريعة (زارا) كان (إله الخير) هو الدائرة الكاملة للسماوات : النور جسده ، والشمس والقمر عيناه ، وهو المهيمن على كل المخلوقات الأرضية والسماوية وهذا نشيد موجه لذلك الإله :

« اجبني بصراحة يا أهرمزدا العظيم
من رسم لك الشمس والنجوم
من جعل القمر يشرق ثم يتلاشى
من الذي منع أن يطبق الفضاء على الأرضين
ومن تعهد المياه والأغراس
ومن ؟؟ ومن كل هذا ؟
أليست هي الروح الخيرة ، يا أهرمزدا » .

اعتبر (زارا) تلك الروح الخيرة هي (الكلمة، Logos) في الديانات الظاهرة وهي العقل الأعظم في الباطنية . وقد تمثل (زارا) بحمورابي فسن قانوناً روحياً دامت ممارسته حتى الفتح الإسلامي . من بنوده البارزة :

١ ـ الـ (ياسنا ، Yasna) ويتضمن فصولاً حول كهنة زارا وواجباتهم العامة ، ثم إظهار نبوءته .
٢ ـ الـ (فيسبرد ، Vispéred) في تنسيق الطقوس الدينية .
٣ ـ الـ (فانديداد ، Vendidad) يحوي على اللاهوت والتشريع الخلقي .
٤ ـ الـ (ياشتس ، Yaschts) كله تسابيح موجهة للملائكة ، ونبوءة حول نهاية العالم .

٥ ـ الـ (خارداه ، Khardah) يتضمن صلوات لمختلف أوضاع الحياة .

في صلب تشريـع (زارا) ، صراع مستمـر بـين قـوتي الخـير والشر في الكـون وللإنسان الحق في إختيار أحد طريقي الخير أو الشر (الصدق أو الكذب) .

الأفستها :

إن النـداء الـذي كـانت (الأفستهـا) تعلنـه هـو: «أن نجعـل من العـدو صـديقـاً ، ومن الشرير خيراً ، ومن الجاهل رجلاً مثقفاً » . وعلى رأس الفضائل عندها : التقـوى وهي : العبـادة والطهـارة والقربـان والصلاة . رفضت الشـريعـة كـل إيمـان بتمثـال أو هيكـل . ومعابدهم مذابح صغيرة متواضعة .

كـان (زارا) مؤمناً بـأن (أهرمـان) هو الـذي خلق الحشرات الضـارة وأنمى الآثام والبلواط ، ليفسد الجنة كذلك كان « ميترا » يعتبر رأس ملائكة إنه : (أهرمزد) ، وكـانت عقيـدته مشـابهة (للهـرمسية) وهي تتضمن أسمى القيم الإنسـانية : المرء حر بـأعمالـه وإعتقاداته ، وهو المسؤول عن كل ما جنتْ يداه ، لدى البعث . وما النـار التي كان يـظن أنها تعبد إلا رمزاً ظاهراً للخير والنور معـاً . وما كـان أكثر وأروع أنـاشيد (الأفستهـا) ، تمجيداً لإله الخير والصدق والحق (أهورا مزدا) . وقد أثبت هذا الرأي الأثرُ البـارز الذي نقشه (داريوس الأول) والمسمى بـ (بهشتوم ، Behustum) مضمون هذا الأثر : « ولهذا مـدَّ (أهورامـزدا) لي يد المسـاعدة . . لأني لم أكن شـريراً . . ولم أكن كـذوباً . . ولم أكن طاغيةً » . عن (تاريخ الشرق القديم هـ . برستد ، H. Boeursted) ص : (٢٥٩) .

ويقول الدكتور (أحمد محمد الخشّاب) : كانت تنادي الـزرادشتية بـالشمس والقمر لا لعبـادتها ، إنمـا لعبادة قـوة الخير التي تمثلهـا وهي في (أهورا مـزدا) . فالشمس كـائن مخلوق والنار عنصر أزلي مطهر . ذكَّرنا هذا التصريح الجريء بشرعة أخناتون فرعون مصر وبنظرتها للشمس المخلوقة .

فـالزرادشتيـة بمضمونها ديـانة خـير عام ، محـرضة عـلى التناسـل والتعمـير والعمـل المخلص .

أما أسطورة خلق (الأفستها) فتتخلص بما يلي :

حسـدت السحرة (زارا) عـلى حظوتـه عند مليـك البلاد ، فـأوشوا عليـه طـالبـين

إعجـازه ، ولم يظفـروا . عندهـا زاد الملك (كشتاسب) في تكـريمه وفي تصـديق دعوتـه ، والعمل على نشرها و (كشتاسب) هو نفسه داريوس الأول الذي ألمحنا إليه آنفاً . وكـانت هديته لـ (زارا) إثنتي عشرة ألف بقرة مذبوحة ومشدودة بخيوط من الذهب ، كَتب النبيُّ على جُلودها تعاليمه فكانت : (الأفستها) .

الفصل الثاني

النظرة الميتافيزيكية للمصير

آمنت الـزرادشتية بـأن العالم الأرضي يتَّصـل بـالعـالم الآخـر في قنـطرة (شنغـال ، Shingal) وهي جسر الإنفصال ، حيث في طرفـه الأعلى عـذراء جميلة تقود الـروح الخيرة إلى حيث الإله الأعظم والسعادة الغامرة . والروح الشريرة لدى مرورها على هـذه القنطرة تـرتعش وتنهار ، وتحـطها مـوبقاتُهـا إلى الدرك الأسفـل ، حيث الأشرار . وكـل من قلت سيئاتُه ورجحت حسناته مقَره النعيم والجحيم محدد بإثني عشر ألف عام ، وفي كلا النعيم أو الجحيم ، خلود ، خلود .

الملائكة والشياطين :

لم يؤمن (زارا) بمـلائكة وشيـاطين ذات أشكـال مختلفة مجنحـة أو مربعـة ، أثيـريـة المادة . كان إيمانه : بالعقل والنور والخير والتقوى والخلود . ولكن بعد وفاته . أباح الكهنة لخيالهم الجنوح عن المعتقد الصحيح فنادوا بملائكة مجنحة ، موآزرة ساهرة ، وبشياطين كثر وسود . وقالوا : أن نهاية العالم سوف تتم بظهور ولد من نسل (زارا) ينقذ العالم . موعد ظهور هذا المولود بعد ثلاث آلاف سنة من وفاة نبيِّهم هذا .

وهنا ظاهرة تبنَّتها معـظم الديـانات البـاطنية في الإسـلام بشكل أوضـح ، وهي أن المولود من أبوين غير زرادشتيين ، كليهما ، لا يحق له بتسلم ديانته . ولا يسأل عن تقـديم ذبائح ولا مشروبات بل عليه بـ : تفكير سليم وكلام سليم وعمـل سليم . وقال الـدكتور « عادل إسماعيل » كان إعتقاد زارا بأن الموت نتيجة تغلب الأرواح الشـريرة ، فحـرّم لمس الميتَ وأوجب إلقاءهُ للطير النواهش .

طلي الميت بالشمع :

ويقول « العقاد » في مؤلفه : (الله) : إن زرادشت كان قد آمن بإلـه واحد منـزِّهٍ ،

قـد خلق الروح قبـل الجسد . وصفـات الله ، من أرفع مـا عرفـه ابناء عصـره من سمو ،عظمة وسلطان . وكان زارا هذا يناجي ربه في (الأفستها) قائـلاً : « أنا وحـدي صفيك الأمين ، وكل من عداي خصيمٌ لَدود » .

وقال المرجع نفسه : إن مذهب (زارا) يعتبر الأنبياء قد قاموا بـدعوة الحق محـذرين ومذكِّرين ، كيلا تبقى على الله حجة في الناس أجمعين .

أما التاريخ العام للديانات فيوجز الحديث عن (زارا) بهذه العبارات :

« يقـول هيرودوتس » إنـه في القـرن الخـامس (ق . م) ، كـان تشـابـه بـارز بـين الديانتين (الڤيدية) و (الأفستيه) . أما عقيدة زارا فتؤمن بالوحـدانية بـ (السيـد العارف اعني أهـورا مزدا) وبـأن حولـه ستة خيـرين يوآزرونـه في محاربـة الشر : (أهرمـان عنصر كذب) .

كـان من عداد هؤلاء الخيـرين في نظر « زارا » : (ميتـرا) . واستمر معظم الشعب الفـارسي يدين بـالزرادشتيـة حتى انبثق وانطلق ضيـاء الإسلام ، فأحتضن إلـه الشمس ، و(أنا هينا) إله الخصب و (فرافاسي ، Fravasi) أي أرواح الأسلاف الواقية . أما الأرواح الشريرة موآزرة (أهرمان) فكانت : (ديافا ، Deava ـ اندرا ، Indra ـ سورو، Sauru) ص (٣٠٨) . وللشهـرستـاني في فصـل (إيـران) رأي يقـول بـأن الـزرادشتيـة تعـاكس الزرڤانيـة إذ تقول بـأن النور والـظلام هما من ضـرورة الوجـود ، وأن الإله ليس بنـور ولا بـظلام ولا بكليهما . إنـه القوة العليـا المدبـرة لجميـع مـا في العـالم . وإسم هـذه القـوة : (مشـاس بنـد) أي المـدبـر الأقـرب . وقـد اعتبـر المتـرجم (للملل والنحـل) المؤرخ (عبد العزيز وكيل) أن هذا المدبر ليس الله نفسه إنما هو العقـل الفعال أو هـو نفسه رأس الأرواح الطيبة في (المانوية) أو أبو الملائكة في الديانات السماويـة وهنا يحصـل اللبس بين أن يكـون (مشـاس بنـد) هـو الإلـه الأحـد أو هـو أسبق مخلوقـاتـه وأصفـاهم عنـده . كـما يـرى البـاطن العـام . إنـه إقـتراب ، ولكن يمـازجـه التبـاس وشـك لعـدم التعمق في تلك الديانـة وللعجز عن حـل ما تتضمن من النازيشتية في مغازيها . وأختصـرت الأنسكلوبيديـا البريطانية ديانة (زارا) بقولهـا : إن (يازاتا) هو قوة من النور الـدائم تخدم وتعضد الإله : (أهورا مزدا) . معبود أهل فارس .

واستمر معظم الشعب الفارسي يدين بالزرادشتية حتى تألق فجر الإسلام فاحتضنها جميعاً وهنالك معتقدات روحية سنسلم بها لاحقاً .

الفصل الثالث

لمحة حول المزدكية

قامت هذه الديانة على الإيمان (بأهورا مزدا) سيداً للعالم أجمع ، وكان مقامه في المزدكية شأنه في الزرادشتية ، إخضاع كل إنسان إلى الإختيار بين طريقي : الخير أو الشر ، بإنتظار الحساب الأخير ، حيث يتغلب الخير نهائياً . (الأنسكلوبيديا الفرنسية بتلخيص) .

يؤمن أتباع هذه الديانة بأن أرواح المتوفين تحملها الرياح إلى قضاة ثلاثة مارةً على جسر (Crnvat) أي القاسم . هذا الجسر يتسع تحت أقدام النفوس النورانية حيث السعادة الغامرة . والنفوس الشريرة تجده يتلاشى حتى يصبح كالخيط الدقيق فتسقط في لجَّة الجحيم . وبعد تطهيرها بنار هَائلة يعود الناس إلى حياة أبدية بعد تمام تطهيرهم بهذه النار .

آلهتها :

آمنت العقيدة بـ (أهورا مزدا وبميترا وأناهانا) وكل هؤلاء يدعونَ إلى الخير العام ، وكلهم أرواح نورانية مهمتها إنقاذ البشرية من مفاسد (أهرمان) : إله الشر والظلام . وبعد تتابع الحسنات والصلوات وإعادة تطهير النفوس الفاسدة ، يتسع النور ليعم الكائنات . وقد ترفعت آلهة المزدكية عن طلب التضحيات ، وإشادة الهياكل لها ، قانعة من الإنسان بالإيمان الصحيح الصادق وبالخير على أوسع معانيه .

على أن للمؤرخين الشرقيين آراء مختلفة إزاء هذه العقيدة . فالشهرستاني يقول : أن المزدكية قريبة من المانوية ، غير أنها تبيح المال والمرأة ، لأنهما سبب الشرور . وأن هذه العقيدة تقوم على ثلاثة عناصر : الماء والأرض والنار . بإختلاط هذه العناصر الثلاثة يتولد : الخير والشر . فما صفا منها ، فخير وما كدر فشر .. وآمن أشياعها بالملائكة وبتعالي إلههم . (تحقيق عبد العزيز وكيل) . وأضاف الدكتور حسوني مؤكداً إباحة المال والمرأة للسبب نفسه . ولعل الدكتور قد تأثر بالشهرستاني من غير أن يمعن ويتحقق ويأتي بأدلة

محسوسة . لكنْ (أرثر كريستنسن) أعار الموضوع عناية خاصة وجاء بأدلة تثبت أن هذه العقيدة تقوم على الإيمان الصحيح بأن الإله الخير قد اغدق خيراته على الناس ليقسموها بالتساوي . وكيف يمكن أن يكون هناك إباحة رزق ونساء ، طالما أن المذهب يوجب الزهد والعفّة .

وأضاف في الصفحة (٣٢٩) أن ما أشيع عن هؤلاء من إباحيات فباطل أساساً . وكفى المذهب حكمة أنه اقنع الملك (قباد) بوجوب العناية بعامة الشعب ، وإنقاذه من الحرمان والفقر المدقع . لكن الدعايات المغرضة قد شوهت مذهبه الأصيل . ولنا تفصيل أوضح لهذا المذهب في باب « الإسلام » .

الباب الثامن

الفصل الأول

فينيقيا القديمة في أساطيرها

موطن فينيقيا شاطىء المتوسط ، الممتد من مصب « العاصي » شمالاً حتى « الكرمل » جنوباً ، ومن البحر إلى مسقط الثلوج من جبال لبنان . كانت هذه المنطقة على علاقة طيبة « ببابل » في عهد « حمورابي » وبمدينة « ماري » الشهيرة على « الفرات » . لم تكن فينيقيا في يوم دولة ، بل كلُّ مدينة فيها تشكل مملكة صغرى ، ابتداء من صور جنوباً ، حتى (رودس) واللاذقية شمالاً . كشفت النصوص التي عثر عليها في « رأس شمرا » وكلها صفائح من الفخّار ، غوامض وعمايات ، حول التراث الروحي والمادي لشعوب المنطقة جمعاء .

أرشدتنا هذه المكتشفات إلى لائحة بأسماء آلهة فينيقيا. لقد جعلت الاله « ايل » في المقدمة وانه أكبر الهة الكنعانيين. بعده « بعل » يليهما (مُوْت ، Moott) ابن « أيل » وهو البطل المحارب ، (وألَيَنْ ، Aleyin) « ابن بعل » .

لهذه الآلهة الأربعة أسطورة لا تخلو من شيء من الطرافة والجدية ، لكنها على بُعد شاسع من أسطورة (أوزيرس) ومما تحمل من نوازع إنسانية أصيلة . تقول الأسطورة الفينيقية بلسان « فيلون الجبلي » ما يلي :

لقد شيد الشعب للإله « ايل » هيكلاً بالحجر الفخم ، بينما كان هيكـل « بعل » من القرميد وخشب الأرز . وحين كمل بناء الهيكل الثاني ، أقام « بعل » احتفالاً رائعاً للآلهة ، قدمت فيه المشارب والمآكل الشهية ، واعتبر نفسه متميزاً على الإله « موت » فدفعته عنجهيته ليصيح :

« من سواي إله ، في خدمته كلُّ إله
وحيداً اسمن الآلهة واشبع الإنسان
وحيداً أغذي مخلوقات هذه الحياة »

ولكن فجأة اقبل الصيف بحره ، فانتهى دور « بعل » على الأرض ليندس تحتها :

« تغلغل « بعل » في صدر الأرض
تغلغل حين غدت الأشجار وثمارها
خاضعة لسعير الشمس اللاهب »

في حين أن الإله « مُوْت » قد اشتد ساعده على الإله (أُليين ، Aleyin) . طلب بعل أن يلتحق به فلم يلبِّ على الفور أباه ، لأن عليه مهمة صيانة الحيوانات المولود . أما الإله (ليبتون ، Lipton) فقد تعمَّق حزنه على هذا المصاب ، وسقط عن عرشه السماوي منتحباً ، ممزِّقا رداءه وهو يقول :

« أمات بَعْل ؟؟

ما مصيرك يا شعب الإله (داغون)
كيف حالك بعده أيتها الإلهة (أنات)» .

غير أن الإلهة (أنات) أُخته ، لم تقنع بذرف الدموع وأقبلت على (مُوتَ) تستعطفه ، فأبى . فارتدَّتْ ثانية عليه، تقاتله، فصرعته. لكن الموت لدى هذه الإلهة ، استراحت برهةً لتتجدد بعدها الحياة . شأن البذور في التراب ، ومقاطع (أنات) هذه تمثل صورة صادقة عن مسيرة حبة القمح المشابهه لحالها هي . فلنسمعها تنشد بألم :

« قبضت « أنات » على الإله « موت »
وفي المنجل حصدته والقته
وفي المِذْراة على الثرى بعثرته
وتحت حجر الرحى سحقَتْهُ

وعلى النار اللاهبة بسطتهُ
وفي الحقل الفسيح بعثرت لحمه
ليكون الغذاء لكل ذات جَناحْ»

ويهبط « موت » إلى أعماق الحضيض ، ويعتلي « بعل » أما أليين ، فاعتلت بحر الجبل في غفلة الإله « ايل » عن ابنه « موت » .

وتنتهي الأسطورة على هذا المنوال ، كما كل أسطورة فينيقية الأصل ، ومثلها أسطورة (دانيل ، Danel) وابنهُ (أكهات ، Aqhat) وأسطورة ملك صيدون : الرجل الصالح (كيرات kéret) .

من خلال تلك الأجيال السحيقة ، وقع المؤرخون في بعض التناقضات العابرة وما يتوجب علينا إثباته ما نقلته المراجع الكبرى أمثال : التاريخ العام للأديان ، وتاريخ البشرية .

يقول المرجع الأول بلسان البرفسور (كاكات ، CaQuat) ص (٦١٠) :

« إن الإله الأكبر (أيل) ، قد تزوج من امرأة أرضية ، وأن الإلهين (بعل وبال) ليسا غير مردوخ نفسه ، الذي غدا في العهد الهليني : « إله الشمس » .

وتابع المؤلف : « إن المهد الأول للفينيقين هو : شواطىء (الخليج العربي) وانهم كانوا يقدمون الذبائح لآلهتهم : الأبناء البكور من كل عائلة . وقد حذاهم في القدس (يافت ، Yéphté) فقدم ابنته بحجة جوع قد انتاب الإلهة ، فيحلُّ للبشر هذا الإقتراف الوحشي .

ثم أكمل المرجع : إن الصفائح التي اكتُشفت في (اوغاريت) تشير كلها إلى أن ديانة الفينيقيين لا تحمل اطلاقاً أيَّ مضمونٍ أدبي أو أخلاقي . « كانوا تجاراً مجازفين منطلقين ، جاؤوا بمكتشفات ذات قيمة مادية غير أن المادة وحسب كانت ركيزة حضارتهم ، وما تضحياتهم بأبنائهم قرباناً لآلهتهم إلا اغراء للكسب المادي . وهذا تاريخ البشرية يقول :

« منذ مطلع الألف الثالث قبل الميلاد كانت سوريا مقراً للمهابيين والأدوميين كما كانت للكنعانيين والفينيقيين ، وكلهم ساميون معتقداتهم متقاربة . » ويتابع :

من عبادة عوامل الطبيعة ومظاهرها عبد الفينيقيون الإله الأعظم (أيل) مع زوجته

(أنـات ، Anat) أي إلهة الأرض . وكـان (لإيـل) ابن يـدعى (بعـل ، Baal) إلـه الشمس وملك السماء والقاضي الأرفع . ثم اتّحد (بعل) مع (حداد) إله الـزوابع . أما عـرش ابنـه (اليـين بعـل ، Alyn Baal) فكـان تحت جبـال لبنـان وبـالضبط عـلى جبـل (الكرمل) .

واردف المرجع نفسـه : « لقد لـطخ هؤلاء الفينيقيون الأرض بـدماء من اهـرقوا من أبنـائهم وبناتهم مَـرْضاةً لـلآلهة . ولِـوَفرة مـا أُريق من دمـاء ، اعتبـر المجـاورون لفينيقيـا بلادَها ، ملطخةً موبوءة . وشملت هذه العادة الشرسة ضواحي سوريا وفلسطين بالإقتداء الوخيم ، (ص : ٦١١ ج : ١) .

الفصل الثاني

فينيقيا في الألف الأول (ق . م)

رغم امتـداد الزمـان ، استمرت فينيقيـا مجزأة إلى دويـلات ، يحكم كُلاً منهـا نـظام خاص على رغم صغر مساحتها . أشهر حكوماتهـا ، ابتداء من الجنـوب : صور صيـدا ، بيروت ، بيبلوس (جبيل) أفقا ، طرطوس أرواد واللاذقية .

وابتداء من الألف الثالث قبل الميلاد ، نزل هذه السواحل قوافل من ضـواحي الهند واستقروا فيها ، أطلق عليهم اليونانيون اسم (فْوينيقَسْ ، Phoinikes) اشتهروا بالتجـارة البحـرية ، وزرعـوا في آسيا الغـربية أولى عنـاصر الحضـارة ، وعبـادة القـوى الناميـة في الطبيعة . من هذه العبادات : إلـه ذو ثلاث أعـين ، وثلاثة أنياب ، والإلـه الثور والإلـه الراقص الخ . . كل هذه الآلهة ذات طبيعة ديونيسية ، أي انها تحمل جذور الباطنية . أما الآلهات فمنها : الإلهة الأم ، والعذراء والمرضع ، وإلهة الحيوانات . .

اتسمت عبادة هؤلاء المهاجـرين بطابـع الزراعـة . ولم يصرح الباحثـون ولا اتصلت بهم أيّة مؤشرات عن تلك الديانات الباطنية الشرقية . أما يحتمل أن تكون هذه المعتقدات ومضات من عقيدة ضواحي (التيبت)اللاحق ذكرها ؟

أشـارت الآثار المكتشفـة في « رأس شمرا » إلى أن قبـائـل من الجـزيـرة العـربيـة ، استوطنت في الشمال الغربي من سوريا ، في ضواحي « أوغاريت » مروراً بصحراء سيناء . كانت لغة هؤلاء على شيء من الشبه بالعبرية والفينيقية ، انها لغـة القبائـل الجنوبيـة ، من

شبه الجزيرة العربية . وهم من الأصل « السامي » . وقد نشر هذه المعلومات العالم الأثري (ڤيرولّود ، Virollaud) وحققه (دوسود ، Dussaud) : التاريخ العام للديانات : (البير ڤنسان ، Albert Vincent) ج ١ ص (٣٠٤) .

إن هذا التفاوت في النظرة إلى معتقدات الفينيقيين معاده إلى تلك المراجع الكبرى التي سبق ذكرها ولعل مكتشفات رأس شمرا هي الأصدق .

ونرى أن مدينة « أوغاريت » كانت قد تدمرت في فتوح الفرعون « امينوفيس الرابع » عام (١٣٥٨ - ١٣٧٥) ق . م . لكن في عام (١٢٥٠) ق . م أقام « رعمسيس الثاني » صلات ودية مع الملك حيرام ، وانتشرت منذ ذلك الحين الكتابة الكنعانية الفينيقية ، في أحرفها الهجائية البالغة : إثني وعشرين حرفاً .

وفي احتلال الساحل الجنوبي من « الكرمل » حتى غزّة ، من شعب بحري غريب ، انطبعت هذه المنطقة باسم فلسطين . وما لبث سكانها أن هاجموا « صيدا » ودمروها ، وغدت بعدها فينيقيا « كنعانية » ، مع من وفد إليها ، من قبائل قليلة تنتمي إلى الأصل : « الأيجي ذاتها » جاءت من شاطىء بحر (ايجا) شمالي فينيقيا .

ديانة الفينيقيين :

أوثق المراجع لدراسة صحيحة لديانة الفينيقيين كانت مؤلفات « فيلون الجبيلي » بعد الخطوط المبهمة التي أشار إليها الكتاب المقدس « العهد القديم » . لكن المخطوطات المكتشفة في رأس شمرا في العام (١٩٢٩) م ، لم تبق أثراً للشك والإبهام ، فيما يتعلق بمعتقدات هؤلاء . يعود الفضل الأكبر في هذه الكشوف لدراسات الأثري الفرنسي (شارل ڤيرولّود ، Ch. Virollaud) . عندها تبيّن لعلماء الآثار والمؤرخين أن لفينيقيا ديانة عريقة كونية فلسفية ، ولها مجمع آلهة كبار ، منها : بعل ساميم ، وملاك بعل ، وبان بعل وسواهم كل هذه الآلهة سماوية وأرضية .

وقد جاءنا سابقاً المؤرخ الجبيلي « فيلون » بالصورة الآتية ، قال :

« في البدء لم يكن إلا الهواء الصاخب والعدم المظلم . تبعهما : الريح والرغبة اللذين أوجدا « موت » على شكل « بيضة » . تكونت في هذه البيضة كل المخلوقات ، ولدى انفتاحها بانت الشمس والقمر والنجوم ثم بتأثير النور انفصلت المياه عن السماء .

بينما روى المؤرخ « داماسكيوس » عن الصيداويين ما يلي :

يعتبر الصيداويـون أول المخلوقات هـو الزمن ، عقبته الرغبة والظلمة . وفي اقتران الرغبة بالظلمة ، وجد : الهواء (Aër) والنفخة الأنثى (أورا ، Aura) . كان الهواء يمثل العقل والوعي ، والنفخة هي الشكل الحي المتحرك . ومن هذه المجموعة تكونت البيضة الكونية ، متوافقة مع الروح المدركة .

كثير من آلهة فينيقيا قد استعـاره اليونـانيون واضفـوا عليه اسـماً جديـداً . لكن أبرز الآلهة التي أشارت إليها كشوف « رأس شمرا » هي :

١ - الإله ايل ، إله أرض كنعان جمعـاء ، وهو الملقب بـ « إلـه الرحمـة » وأبو الآلهة وخالق الكون . اتحد بالإلـه : « حداد » ، إلـه العواصف والأمـطار ، ولهذا الإلـه المكانة الفائقة في « سومر » كما رأينا وله ابن يسمى « موت » يعتبرونه : روح الغلال .

٢ - الإلـه (بعل أو داغـون ، Baal - Dagon) وهـو الإلـه السيـد ، زاد بـاعتبـاره سكان بيروت والجبل وصور وحرمون . هو ابن الإلهة (اشيرات ، Ashirat) إلهة البحر . ورمزه : منتصب على ظهر ثور وبيده الصاعقة . لكن المصريين قد اظهروا حقيقـة « بعل » حين وحدوه بالإله الشرير : « سات » . ثم نجد العبرانيـين قد اضفـوا على « بعـل » لقب الههم الأعظم « يهوه » . كذلك الـرومان فقـد اسموه نفسـه : « جوبيـتر » . وتوحـد الإله (مولوك ، Molouk) مـع الإله « بعـل » ذلك الـذي كانت تقـدم له الأولاد ، قـرابين ، وخاصة أبناء الأعيان . (عادل اسماعيل) .

٣ - الإله (ملكارت ، Milkart) المتحد مع « بعل » وهو معبود « آل صور » .

٤ - (ادونيس ، Adonis) الإلـه الذي جمع مهام الإلهـين : أيـل وابنـه « مـوت » ورمـزه : النهـر والسنبلة . انـه (ادون ، Adon) اليـونـاني السيـد . هـو روح الحبـوب والنبات . جرح خلال رحلة صيد ، وبكته عشتروت بـدمع حـار وتلهف . معظم عبـادته كانت على امتداد الساحل السوري الفينيقي .

ومن أشهر الإلهات الفينيقية كانت :

١ ـ (عشيرات ، Ashirat) نسيبة الإلـه (أيل) كـذلـك هي أم الإلـه (موت ، Moat) .

٢ ـ عشتروت إلهة مدينة (صيدا ، Sidon) خاصة . بدت لها تماثيل متعددة في رأس شمرا » معظمها عارية كلياً ، وأحياناً ممسكة بنهديها . انها إلهة الحبوب والنمو ، على غرار الإلهة البابلية « عشتار » ذات الرداء الكامل وإلهة المعارك والموت . فقد اتحدت عشتروت بإلهة اليونانيين « افروديت » يشاكلتها طبائع ومهام . وكثيراً ما كانت النساء يقدمن شعورهن المرسلة قرباناً للآلهة « عشتروت » .

٣ ـ أنات ولقبها الإلهة المنجدة . سميت كذلك لسرعة استجابتها للملهوفين . هي التي قتلت الإله « موت » في الأسطورة السابقة ، لكنه قتل بالظاهر منبعثاً من جديد مع الفصل المقبل .

الفصل الثالث
الهة الفينيقيين

كان الهمُّ الأول لآلهة الفينيقيين على أنواعها ، واختلاف نزعاتها هو : النمو والاخصاب : بشراً وحيواناً نباتاً ، كما أن للطبيعة بجبالها وأنهارها مقاماً مقدساً لديهم أجمعين . عبدوا « حرمون » « والكرمل » « ونهر إبراهيم » « والبحر والشمس والقمر و و » . كما كانوا على صلة وثقى بالطبيعة الحيَّة الظاهرة ، بل كانوا جزءاً لا يتجزأ منها ، يعيشون ويكدحون لتأمين رغادتهم اليومية .

أما ما بعد الحياة وما بعد الموت فلا يأبهون لـه إطلاقاً ، رغم الصلات الوثيقة التي كانت تشدهم بالفاتحين المصريين ، الذين تفانوا في تقديس وتكريم موتاهم . إيمانهم هذا يثبت تأثرهم المباشر بالشعوب الشرقية المجاورة من سومريِّين وحثِّيين وسواهم .

أغلب ما تشاد معابد الفينيقيين ، على قمم الجبال ، وتلك عادة سامية متوارثة ، يحوي المعبد العديد من الكهان والكاهنات ويشرف عليهم رئيس مباشر . تعاطوا السحر وأعوزهم عرافون من الكهان . لكن معاطاة القران غير الشرعي كانت شائعة بينهم ، بخاصة لدى العاملات في الهياكل ، على أمل الإخصاب الدائم لقد نَبَذَ أنبياؤهم تلك العادة ، لكنها ظلت مستمرة في أنحاء البلاد جمعاء ، ولوقت طويل جداً .

وأكد المؤرخ « فيلون البيبلسي » كذلك (لوسيان) و « ديودور » أكدوا كلهم على أن الفينيقيين ، حين تنتابهم مخاطر وأوباء فتّاكة يقدِّمون أحبَّ أبنائهم ضحايا للإلهة ، ارضاءً لها لإِزالة هذا الشرّ .

اثبتت الحفريات أن الفينيقيين ما تعودوا على إحراق موتاهم بل يقبرونهم في توابيت بعناية ، زاعمين أن كل متوفٍ ، ستعوده حياة واهية هزيلة ، في عالم آخر ، يُجدِّدونه. لكن ومضة الحياة (نافَاشْ ، Nephesh) تلازم المتوفى حتى يستقر في مدفنه . وما الأضاحي التي تقدم للموتى ، إلا للآلهة نفسها ، ولا حق لغير أولئك بها اطلاقاً . بهذه التضحيات للآلهة تتضمن الملاحم عبر التاريخ ، أنواع ديانات شعبها ، وطقوسها الممارسة يومياً . أقدم الملاحم : ملحمة جلغامش ، الأشوبابلية ، وهي تحوي اثني عشر نشيداً ، وكل نشيد فيه ثلاثماية بيت من الشعر ، يعود تاريخ هذه الملحمة إلى زهاء الفي عام قبل الميلاد .

وفيما نحن موجزين هذه الملاحم فجدير بنا ذكر ، ولو أسماء معظم ملاحم التاريخ القديم فهناك خلا : (الألياذة والأوديسة لهوميروس) وخلا : « أنابيد » (ڤرجيل) الروماني ، هناك ملاحم ضخمة شرقية سبقت هذه كلها بقرون طوال من أبرزها : الڤيدا والبرهمانا ثم هنالك المهابهارتا ، والرامايانا . وهذه الأخيرة هي أطول ملحمة في العالم تحوي أربع مئة ألف بيت من الشعر مُتضمنّة حياة (راما) الهندو اوربي الأقدس . ثم كانت الأوبانيشاد الباطنية الهندية ، وهي جزءٌ من الڤيدانتا الهندوكية ، وتأليفها كان بين : (٨٠٠ ـ ٦٠٠) عام ق . م . إنها باطنية النزعة .

كل هذه الملاحم تشير إلى عمق تأثير التيارات الدينية من ظاهرة وباطنة ، في شعوبها الشرقية والغربية ، كما انها تمثل لوحة بارزة الألوان لأبرز الطقوس ولأعمال الكهان والآلهة ، وتقربهما من البشر وسخطهما عليهم وحبهما بعضهما وعطفهما وعنفهما . إن الملاحم لأصدَقُ تاريخ تناول الحضارات الغابرة، على ما فيها من شطحات خيال، يتنكر لها العلم والتاريخ والمنطق . غير أنها كانت مصباحاً أنار طريق التعرف على تلك المجاهل الموغلة في القِدم والغموض .

أما فيما يتعلق بـ « رأس شمرا » على الساحل الفينيقي الشمالي ، فقد عثر عُلماء الآثار

مؤخراً على ألواح من الطين منقوش عليها بالمسمارية ، ما يعـود تاريخـه إلى أربعة عشر قـرناً قبل الميلاد ، منها أساطير دينية شعرية تشير إلى اصطباغ ديانـة السكان المجـاورين للبـابلية والأشـورية . وإن آلهـة تلك القبائـل تبدأ من (أليـون وبيروت) ومنهـا جاء (أورانـوس) اعني) السـماء ثم (جي) الأرض ، ومنها جـاء ميلكارت) . وكـان لقب آلهتهم : (أيل وبعـل) أو (ادون) . وإن الإلهين : بعـل وعناة همـا : (إيـزيس وأوزيـرس) المصريـان الفـرعونيـان . في هذه المجـامـع تـدور الأفكـار حـول عبـادة : الجنس ، للخصب والاخصـاب . وأكبر معابـدهم : (هيرابـوليس) . ثم سادت في جبيـل عبادة : عشـتروت . كما عُبـد في فينيقيا عضو التذكير وفي فلسطين الإله : (داغون ، Dagon) . وليثق المطالع الباحث أن آراء كثير من المؤرخين حول هذه المعتقدات . كانت متناقضة لسبب النزعات البـاطنية التي اعياهم كُنهها فشطحوا في تفسيراتهم لها .

ومن معتقدات هؤلاء : بعث الآلهة ، أما البشر فلا . غير أن أرواحهم تلبث حول الجداول حتى تتلاشى نهائياً وتلقائياً . وكان يزود المتوفى بالطعـام تأكيـداً على زعمهم بخلود روحه ردحاً من الزمن بعد وفاته .

أما إله الآراميين بجوارهم فكان (حدد أو أدَدُ) . وهو إله الأمطار والزوابع .

امتزجت عبادته بعبادة الشمس . وزوجة الإله ، (حدد) هي : (انّار جاتس) وهي نفسهـا : (عشتار) إلهـة الأمومـة ، يصحبهـا عـادة بـالصـورة رسم الأسـد . كـما التفت الآراميون إلى الإلهين الفينيقيين (شمس و دْشُون) . ولا عجب في أن يتأثر هـذا وذاك من الشعوب ، حيث كانت وزمان وجدت ، بالتيارات الفكرية المختلفة الدخيلة من قـريب أو بعيد ، بواسطة الروابط الإجتماعية والصلات التجارية .

فالتقليد والتبشير قائـمان منذ القـدم ومستمران . يغنم المتوفي رضا هـذه الآلهة وهي تقدِّر مكانـة المتوفى عنـدها . أمـا فائـدة هذا التقـدير ، والـدور الذي تلعبـه الآلهة لخدمة المتوفى ، فلم يفصح عنه أي مؤرخ بشكل مضمـون ، والمرجَّـح . بما أن هؤلاء لا يؤمنـون بخلود أرواحهم فعلى الآلهة : الضمانة في هيمنة السكينة والراحة للمتوفى أولاً ، ثم القضاء على ومضة الحياة فيه ، قبل أن تغادر القـبر ، فتصبح ظـلاً عابـراً شرِّيراً ، يسـوق المتاعب والتعاسة للأحياء .

وأفصح المؤرخ الفرنسي (البير قنساك ، [illegible]) في مؤلفه « [illegible] الحضري » صفحة ([illegible]) عما لا يعرفه الدارسون [illegible] الحضارية ، حين قال : « بغاية الأسف أنه على مر القرون كان الحيثيون يستعملون [illegible] والمحش ، باعتباره مقدساً ، وكان [illegible] يقدمون الضحايا [illegible] قرابين [illegible] (بعل) الذي يعشق الدماء » .

من تلك الضحايا ، وضع طفل حياً تحت إحدى [illegible] ([illegible]) [illegible] المعاصر . في حين [illegible] بالحيوانات عن الإنسان ، ولزمت [illegible] في معظم الحضارات الكبرى [illegible] نصوص للشرق الأقصى . [illegible] هذه النقائض الخلقية في حضارة هؤلاء ، [illegible] الشاعر [illegible] اللاتيني ([illegible]) [illegible] [illegible] وحول [illegible] إلى [illegible] التيبر (نهر يخترق روما) .

معظم هذه المراجع اعتمدها المؤرخون المحدثون . بناء على مكتشفات « رأس شمرا » ، وهي لوحات من الفخار المعقى ، كما مرّ ذكره ، وعقبها ورق « البردي » الذي يسّر الإشارات وسهل الكتابة بالحبر . وقد تبين أخيراً من هذه المكتشفات أن لمدينة (صور) ، مثلاً الهيا ، شأن مثلثات عصر الفرعونية ، يضم : « ادونيس وعشتروت وملقرت » واتضحت ملحمة « جلغامش » وهي بإيجاز :

« كان للبطل جلغامش رفيق إسمه « أنكيدو » . مات هذا الرفيق فذهل رعباً لموته جلغامش ، كأنما هو لأول مرة يرى ميتاً . فهرع يبحث عن النبتة التي تهب الخلود على رشده . اهتدى إليها وما لبث أن ردها . وعلى الأثر ، استدعت الإلهة (آدابا) وقدمت له طعام الخلود . من سوء طالعه ، انه رفض الطعام . هذا الرفض الحازم سبب الخطأ الذي يتحمل الإنسان عواقبه ومغباته . كأنما هو « تفاحة حوا » وحين سئل « جلغامش » عن هذا الموت ، أجاب بداهةً : « انه مصير حزين فاجع يحل بصاحبه » . كانت تلك الملحمة من أشهر الملاحم القديمة ، وعما ترمز إليه

وسافرت العقيدة إلى قرطاجة فكيف تطورت ؟

الفصل الرابع

ديانة القرطاجيين

نقل أهالي (قرطاجة) عن فينيقيا كثيراً من آلهتها ، وأعاروها الاعتبار الفائق. بادىء الأمر كانت عشتروت : الربة العذراء وهي نفسها : الهلال ، ولها أشكال كثيرة غيرها كما أن لها تمثالاً ، وهي تبدو منتصبةً ، تضغط بيديها على ثدييها ، وهي كاملة العراء . وكان (بعل) إله الشمس صاحب المرتبة الثانية بعدها ، وهو واحد من الثالوث مع القمر ، و (أشمون ، Eshmun) سيِّد المدينة وحاميها . وقيل أنه قُدِّم لبعل (هامان) ، في يوم واحد ، ثلاثماية قربان ضحايا له ، وهم من اعرق أسر قرطاجة ، لأنه كان بعلاً غيوراً ترضيه الأضاحي .

كانت معظم هذه الأضاحي من أسرى الحرب يضحون بها حرقاً . وكانت كذلك تحرق جثث الموتى من الأهالي. أما الأطفال المتوفون فتوضع جثثهم في أواني فخارية تحت الأرض . ولهم نواويس فاخرة بمقدار ثراء أهلهم .

قال المؤرخ السير هامرتون : « كانت شوارع قرطاجة مـلأى بالتماثيل الاغريقية . ولهم تماثيل صلصالية صغيرة ، كتمثال الربة (تانيت ، Tanit) ، ربة القمر ، وأفخم معابدهم يدعى : (أشمون) ولهم بين الأرباب الكثيرة ربَّتان هما : (ديمتر وبرسفون) ، كما انهم عبدوا آلهةً مصرية ، أشهرها : (ايزس وأوزيرس) . ليس لديهم تماثيل بالمعنى الصحيح ، لأنهم ما كانوا يتقنون الحفر ، بل كانت هناك الواح حجرية ، دلت عليها الآثار الظاهرة في مقابرهم وقصورهم . وأكد المؤرخ نفسه على أن القرطاجيين كانوا يعبدون عنصري الذكور والأنوثة . وكان : (مولوخ) وعشتروت هما الأسمين اللذين اطلقها الفينيقيون على هاتين القوتين. تعبدان في المجتمع القرطاجي باسم : بعل هامان.

يستدل مما عثر عليه من آثار للآلهة والبستها ، انها خليط من الحضارات الأخرى . أما الإله الأقدم (ملكارت) فهو صورة عن إله الشمس . وأصبح شعار الوحدة القومية للجنس الفينيقي المشتت .

كانت السفن القادمة تحمل لـ « ملكارت » مختلف الهدايا الثمينة دونما قرابين .

تلخيص لديانات الشرق الأوسط وفينيقيا وقرطاجة :

أ ـ أن تألّق الحضارة السومرية في الغابر السحيق ، لم يقترن بمستوى ديني رفيع . كانت المادة هي المهيمنة على الناس ، وكانت غاية هؤلاء السعادة في الدنيا وحسب . اعتقدوا بالطوطمية أولاً ثم بإله الخصب والإقبال فمنحوه القاباً عدة . الهم العظيم غدا : انليل ، وهو شمس الصباح وشمس الربيع . ولهم إله في السماء وآخر مختص بعالم الأرض ، ثم تعددت مع الزمن آلهتهم . يقدمون الأضاحي غير البشرية إرضاء للآلهة كي تسعدهم في الدنيا . من أبرز آلهتهم : الإلهة الأم . يزوّدون موتاهم بالمآكل والملابس وتقديم الذبائح مؤخراً ، معتبرين العالم الآخر موضعاً مظلماً ومريعاً لا عودة منه . وأخيراً كان مردوخ وتيامات وكانت معابد مدينة (أور) الفخمة معادها لمنتصف الألف الثالث قبل الميلاد تقريباً . اسم الواحدة منها : (الزقُّورة) .

ب ـ الديانة الأكادية لا تفترق في مضمونها عن السومرية المجاورة . اعتبر شعبها العالم مكوناً من المياه العذبة والمالحة . وباقترانها انبثقت الخليقة . مارسوا السحر وتبركوا بالتمائم . لهم مثلث الهي هو : انو (إله السماء) وانليل (إله الأرض) وانكي (إله البحار) وهو مُعلم السحر .

ج ـ للحثيين آلهة تعايش الناس وعلى هؤلاء خدمتها . أعظم هذه الآلهة : (المجهولة الأسم) ثم (حابت) التي منحوها أخيراً لقب : الشمس . ويعوّلون على آلهة الخصب والإقبال . بين الآلهة والبشر طبقة صالحة أخرى شريرة ، لها تأثير عميق على الناس ومصيرهم . يمارس الإله صلاحياته نهاراً كملك ، فيُقدَّم له اللباس والغذاء . أغدق هؤلاء الحثيّون واسرفوا بتقديم القرابين لآلهتهم وإنصاف الآلهة . حتى لأدواتها . ويتعاطى آلهتهم أعمال الناس من زراعةٍ وحرث وحصاد و و . ولهم أعيادهم الموقوتة . أما مهمة الملك فكانت الصلة بين الشعب والآلهة . وهذه تحاسب رب العائلة على خطأ ارتكبه أحد أفرادها . وظهر للباحثين أن هناك تياراً روحياً باطنياً تسرَّى لبعض النفوس . مصدره الشرق الأقصى وفارس .

د ـ كان الأشوبابليون والكلدان يعتبرون آلهتهم مصدراً لاسعادهم في الدنيا ، فيرضونها بالقرابين المختلفة . آمنوا وأسرفوا بالسحر والتنجيم . أبرز آلهتهم : أشور ثم مردوخ وأنو .

دارت معارك طاحنة بين آلهة الخير والشر ، لانقاذ البشر من البلايا . قدموا الذبائح بدلاً من الإنسان فكان الخنزير وكان سواه من الحيوان . وكانوا يزعمون أنّ الملك حين يخالف القانون تزول مملكته . ومن أقوالهم المأثورة : « لا تَغْتَبْ أحداً ، كن عفَّ اللسان ولا تنطق بالشر ، كيلا يصب الإله (شماس) غضبة على رأسك . »

لكبار الآلهة أمثال : عشتار ومردوخ وانليل هياكل فخمةٌ جداً ، ولسواها من الآلهة معابد تتفاوت فخامتها بمقدار نفع هذا وذاك . لهم أعيادهم وطقوسهم وكهنتهم . آمنوا بالسحر إلى حدّ بعيد ، كما آمنوا بالقدر ، وبأن الإله في يده القلم والمحاة يُحصي أعمال الناس .

هـ ـ كان ميترا في المعتقد الكلداني هو الإله المنقذ ، وانه سيحرق العالم كيلا يبقى فيه أثر للدنس ، كما سيمحو ظلام (أهرمان) إله الشر . وكان مردوخ على رأس الآلهة .

آمن هذا الشعب بإلهي النور والظلام : أهرمزدا وأهرمان . إلهتُهم (أنيتا) كانت رمز الخصب . لهم أساطير مختلفة ومغازيها تعليميّة رادعة .

ثمَّ كانت الميترانية ترفع سلطان الملوك إلى السماء . لذا غدا الملك مقدساً معبوداً . شأن ما حدث في مصر الفرعونية ، وما سيحدث في روما الإمبراطورية . اعتبروا (كيومرت) هو المخلوق الأول وزرفان أبا للخير والشر معاً . كانما الأول هو آدم الصفاء والثاني هو المبدع في عرف الباطنية . وهناك روايات مختلفة حول هذه الآلهة وسلطانها .

وكان الطوفان حيث نجا بحكمة الإله (أني) الرجلان : شمس ونبشتين وزوجته .

و ـ تعود الديانة الزرداشتية إلى النبي زرادشت (زارا) واعتبر هذا النبي شريعتَهُ عريقة في قدمها . لحياته أسطورة طويلة ومثلها لمعاناته في بث دعوته .

نادى زرادشت بـ « اهورا ـ مزدا » إلهاً اسمى للعباد ، واوحى هذا إليه بكتاب (الأفستها) . اعتنق عقيدته الملك داريوس وأبوه . معتبراً إله الخير هو الدائرة الكاملة للسماوات ، وهو المهيمن على كل المخلوقات . سن قانوناً روحياً دام حتى الفتح الإسلامي ، مضمونه : لاهوت وملائكة وتسابيح وصلوات ، معتبراً ميترا رأس الملائكة . وتضمنت عقديته اسمى المبادىء الإنسانية . ذكر الشمس والقمر والنار ، ولكن لا لِعبادتها بل لعبادة باعثها ، على مثال « الأتونيَّة الفرعونية » . اعتقد زرادشت بأن الموت هو نتيجة

تغلُّب الأرواح الشريرة ، فحرَّم لمس الميت وأُلقي للطيور النواهش .

أمن : زرادشت أوزارا » بالوحدانية وبان حوله ستّة خيرين بينهم ميترا .

ز ـ كذلك كان ايمان المزدكية بـ « أهورا مزدا وميترا وأناهانا » . كلهم يدعون للخير والصلاح .

اتهم هذا المعتقد كثير من المؤرخين باشاعة المال والمرأة ، باعتبارهما سبب الشرور. كما اعتقدوا بأله اسمى وبالملائكة . وآمنوا وعاشوا في زهد وتقشف وعفة .

ج ـ في مقدمة آلهة فينيقيا : « ايل » وبعده « بعل وموت واليين » . زعم بعض المؤرخين ان هذا الشعب كان يقدم الذبائح من الأبناء البكور بحجة جوع ينتاب الآلهة . وفي الألف الأول قبل الميلاد كانت أشهر آلهته : « ادونيس ، عشتروت ، انات وعشيرات » تقبر موتاهم في توابيت ولا تحرق .

في مكتشفات رأس شمرا (اوغاريت) تبينت للباحثين كل الملابسات حول معتقدات فينيقيا القديمة والمتأخرة ، مما لا يدع أي ابهام حولها . وما ذكرته المكتشفات : المثلث الالهي الصوري : « ادونيس عشتروت وميلقارت » . ولقرطاجة آلهتها نفسها مضافةً إليها الربة « تانيت وديمتر وبرسفون » وبعض الآلهة اليونانية والمصرية . وكان ملقارت شعار الوحدة القومية ، وزارع النخوة والمغامرات والصمود في الرجال والنساء على السواء . اثبت هذه الخلال الحميدة ، تاريخ وقائعهم : مهاجمين ومحاصرين .

[illegible]

[illegible] :

١ - عبد الكريم الخطيب : قضية الألوهية ، ط (١٩٦٢) ص (٢٠ - ٦٤) .

٢ - جورج كونتو : المدنيات القديمة ، ترجمة متري شماس (ماذا أعرف رقم ٤) ص (٣٢ - ٤٨)

٣ - رالف لنتون : شجرة الحضارة ، ص ([illegible] - [illegible])

٤ - (هنري فرانكفورت) : فجر الحضارة في الشرق الأدنى ، ترجمة : ميخائيل خوري ، بيروت مكتبة الحياة ، ص (٥٦ - ٥٩) - (٦٤ - ٧٤) .

٥ - الدكتور [illegible] ، مصر والشرق الأدنى القديم ، جـ (١) [illegible] (١٩[illegible]) ص (١٦٣ - ١٦٤) - (٢٦٤ - ٢٦٥) .

٦ - تاريخ العالم : جـ (١) ص (٤٤٥ - ٦٦٣) ، أسرة [illegible] ، وزارة التربية [illegible] ط ٢ .

مراجع الديانة الزرادشتية

١ - المراجع العربية :المذاهب الكبرى في التاريخ ص (١١١ - ١١٩) . قرقوط (١٩٧٢) .

برستد : تاريخ الشرق القديم ص (٢٥٩ - ٢٦٧) . ط ١ .

٣ - عبد الكريم الخطيب : قضية الالوهة ص (٧١ - ١١٣) . (١٩٦٢) .

٤ - الدكتور أحمد محمد حسونة : التيارات المذهبية بين الفرس والعرب ص (٢١ - ٣٥) .

٥ - كريستنسن : ايران في عهد الساسانيين ص (٤١ - ١٤٢) . (١٩٥٧) .

٦ - سليمان مظهر : قصة الديانات ص (٢٨٠ - ٣٢٠) .

٧ - عباس محمود العقاد : الله ص (٩٢ - ٩٣) - و (٩٥ - ٩٨) . (١٩٦٤) .

٨ - بعلبكي جحا وعثمان : حضارات العالم في العصور القديمة ص (٧٢ - ٧٣) . بيروت ط ١ .

مراجع الديانتين : الحثية والأكادية

بالعربية :

أ ـ

١ ـ المدنيات القديمة : ص (٣٨ ـ ٤١) . (ماذا اعرف رقم ٤) .

٢ ـ تاريخ العالم : جـ (١) ص (٦٢١ ـ ٦٢٤) جـ (٢) ص (١٤ ـ ٢٣) . (هامرتون ط ٢) .

. . . .

مراجع ديانات : فارس بابل وأشور والكلدان

بالعربية :

ب ـ

١ ـ تاريخ العالم : جـ (١) ص (٢٦٤ ـ ٢٧١) ـ (٦١١ ـ ٦١٩) . ط ٢ .

٢ ـ أرثر كريستنسن : ترجمة خشّاب : ايران في عهد الساسانيين والكدان ١٩٥٧) ص (١٦ ـ ٢٥) ـ (٢٧ ـ ٤١) . (٨٠ و ١٤١ ـ ١٨٣) .

٣ ـ الدكتور أحمد محمد الحسوني : التيارات المذهبية بين الفرس والعرب . القاهرة ص (٢١ ـ ٥٧) ط ١ .

٤ ـ **الدكتور أحمد فخري** : دراسات التاريخ القديم عام (١٩٥٨) ص (٤٧ ـ ٥٣) ـ (٦٧ ـ ١٠٨) .

٥ ـ **تاريخ الشرق القديم** : ص (١٦٥ ـ ١٧٢) ـ (١٩٠ ـ ٢١٢) ـ (٢١٩ ـ ٢٥٦) .

٦ ـ **عبد الكريم الخطيب** : قضية الالوهة ، ط (١٩٦٢) ص (٢٥ ـ ٦٤) (٩٦٢) .

٧ ـ **الدكتور نجيب مخايل ابراهيم** : مصر والشرق الأدنى القديم ، ص (١١٣ ـ ١٦٤) ـ (١٩٦١) .

٨ ـ **س . مظهر** : قصة الديانات ، ص (٢٧٨ ـ ٢٨٠) . بلا تاريخ ط ١ .

٩ ـ **العقاد** : الله ، ص (٩١ ـ ١٠٤) ـ (١٠٥ ـ ١٠٨) . (١٩٦٤) .

١٠ ـ **حضارات العالم في العصور القديمة** : ص (٦٥ ـ ٧١) . بيروت ط ١ .

مراجع ديانات : فينيقيا وقرطاجة

بالعربية

١ ـ تـاريخ العـالم : جـ (٢) ص (٩٧ ـ ٩٩) وجـ (٣) ص (٢٥٣ ـ ٢٦٢) . ط ٢ وزراة التربية المصرية .

٢ ـ جـورج كونتنو : المدنيـات القديمـة ، ص (٤١ ـ ٤٤) . (مـاذا أعـرف رقم ٤) .

٣ ـ نجيب مخايل ابراهيم : مصر والشرق الأدنى ورأس شمرا ، مصر ط (١٩٦٤) جـ (٣) ص (٤٧ ـ ٧٨) ـ (١٩٦٤) .

المراجع الموجزة :

١ ـ عادل اسماعيل : التاريخ الجديد ط (١) بيروت .

٢ ـ يوسف حوراني : العهد الفينيقي بيروت ط (١٩٧٢) .

٣ ـ جحا بعلبكي وعثمان : حضارات العالم في العصور القديمة ط ١ .

أ ـ المراجع الأجنبية : للديانة السومرية :

1 - Contenau : Hist. Général des Religions, Tome 1 p : (271 - 280) (1960).

2 – Will Durant ,Trad: Mourrey, tome 1; p: (209– 215). Hist. de la Civilisation (1962).

3 - Hawekes et Woalley, trad: R. Laffont; Hist de L'Humanité, (577 - 626) (1969).

4- Edmond Jacob: Ras shamra, Rep. syrienne (968)- (détaillé).

5- Ed. Rochedieu: Les grandes Religions du Monde p: (121- 131) (1966).

ب ـ للديانات الحثية والأكادية :

1 - Encyclopedie La Rausse, tome (5) P: (912) (1968).

2- Edmond Jacob: RasShamra. (détaillé) (1968).

3- L. Delaporte: Hist. Génerale des Religions, tome 1, p: (284- 290)- (1960).

4- Hawekes et Woolley: Hist. de l'Humanite´, tome 2:P (603 — 610); (1969).

ج ـ للديانة الزرادشتية :

1- Ch. et J. Palau: La Perse Antique, (collect. Que sias- je) Paris (967) p: (106- 113).

2- P. M. Oursel: Hist. Générale des Religions: Tome (4), p: (31- 33) (1960).

3- Ed. Rochedieu: Les grandes Religions du Mondes: 3ème partie, p: (261- 271). (1966).

4- Durant: Hist. de la Civilisationa, p: (102- 108). (1962).

د ـ لديانات : بابل ، أشور ، كلدان :

1- S. Langdon: Hist. générale des Rel. tome (1) p: (313- 336). tome (4); p: (29- 37) (1960).

2- Durant: Hist. de la Civilisation tome (1) p: (108- 120)- (365- 382). (1962).

3- Ed. Rochedieu: Les grandes Rel. du Monde, 2ème partie. p: (161- 179)- (243- 251). (1966).

Références détaillés:

1 - Y. Butters: La Rel. Babylonienne; Paris (1953).

2 - R. Rabat: Le problème Babylonien; paris (1935).

3- H. Massé:Croyances et Coutumes persane; paris (938) 2ème Vol.

هـ ـ للديانة الفينيقية ولقرطاجة :

1- Encyc. La Rousse: Tome (8) p: (404) (1968).

2 — R. Dussaud — Alb. Vincent.Histoire Ge´ne´rale des Rel. Tome (1) P: (291 — 300) —(303) —310). (1960).

3- Hawekes- Woolley: Hist. de L'Humanité. Tome (2) p: (610- 613) (1969).

4- Paul Masson Oursel: La Philosophie en Orient. Ras Chamra; p: (45- 56)- (1968).

Réf. détaillées:

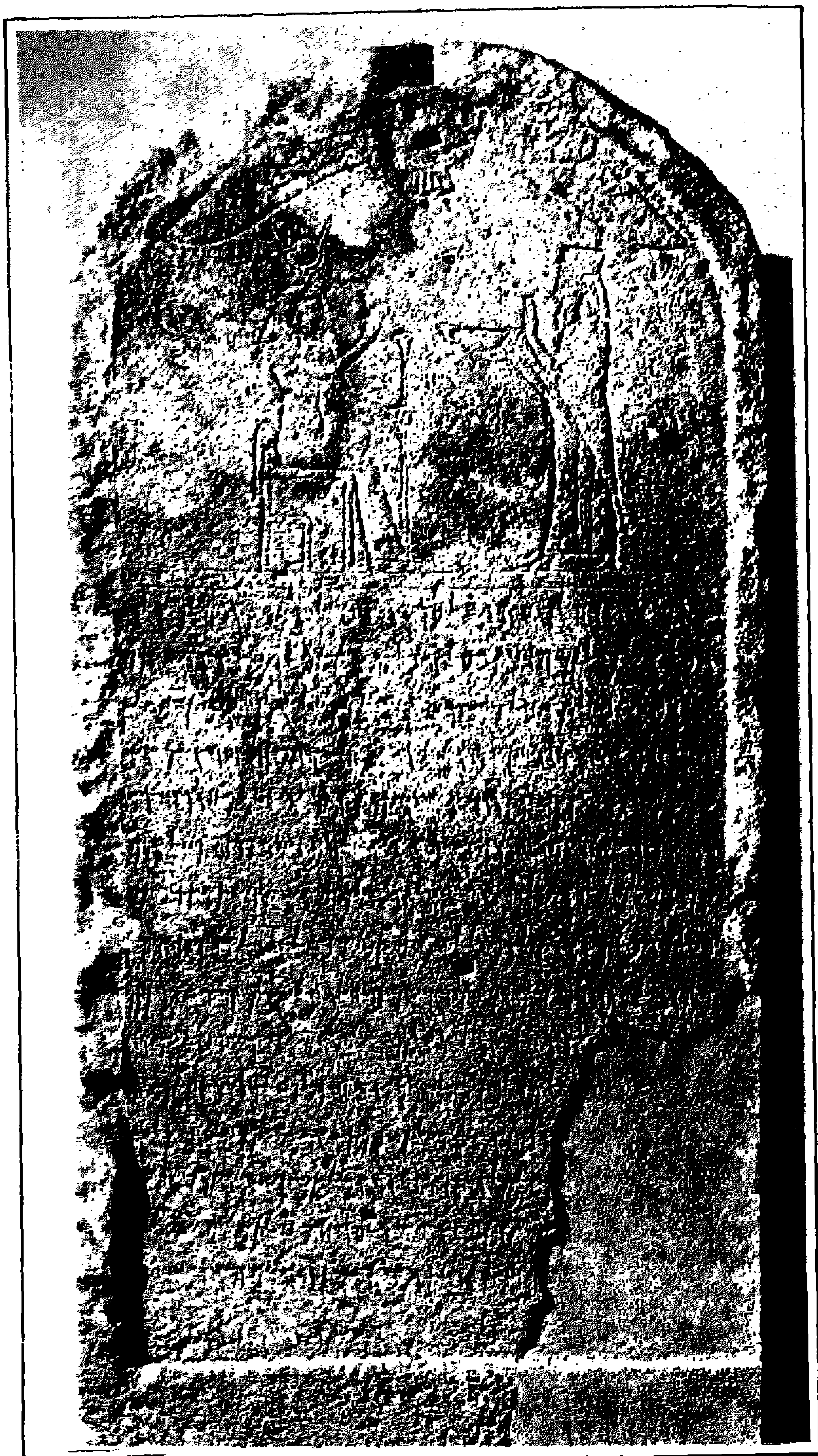
1- C. Autran: Dieux Indo- Europiens et Phéniciens: Paris (1955).

2- C. Toussaint: Les Phéniciens. (croyances); paris (920).

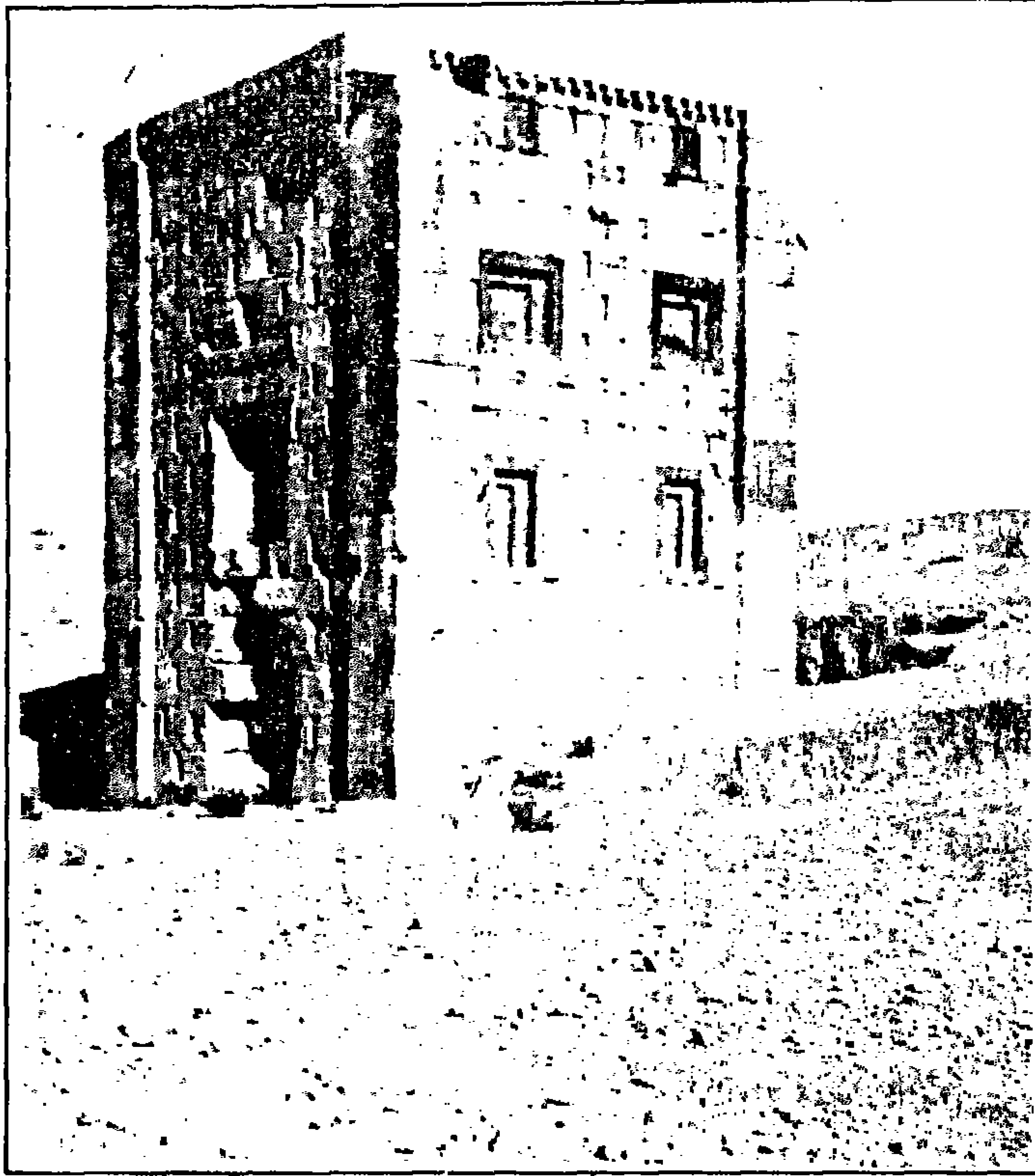
3- G. Contenau: LaCivil. Phénécienne (Croyances); paris (949) 2ème édition.

4- Edmond Jacob: Ras Shamara, Beyrouth (1968).

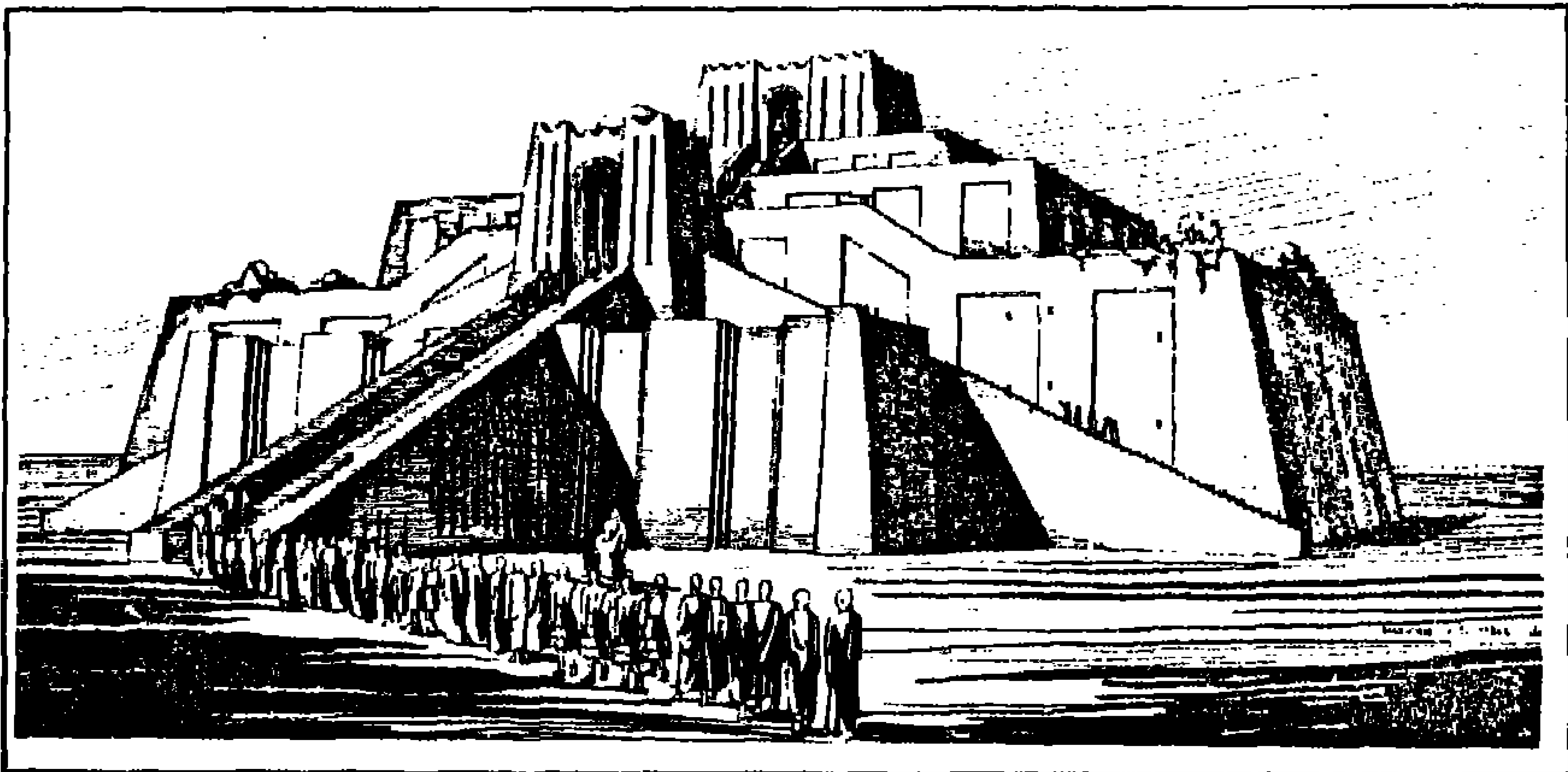
5- Will Ernest: Histoire de la Phénicie; (Manuscrits d'Ougarit, Beyrouth) (1965).



لوحة تمثل دخول الفرس إلى حوض البحر الأبيض المتوسط في القرن الخامس ق . م .



بقايا أحد ابراج الصمت التي لا تزال قائمة في أرض إيران . . حيث توضع في قمتها جثث الموتى لتنهشها جوارح الطير حتى لا تدنس الأرض المقدسة .



برج المعبد المقدس الذي انشأه أورنامو ملك أور في عام ٢١١٠ قبل الميلاد حيث تقدم العبادة للإلهة . .



نَبيشْتيم .. الذي انجته الالهة من الطوفان في الحقبة البابلية يقدم قرابين للالهة بعد أن رست سفينته على الأرض بعد انتهاء الطوفان ..

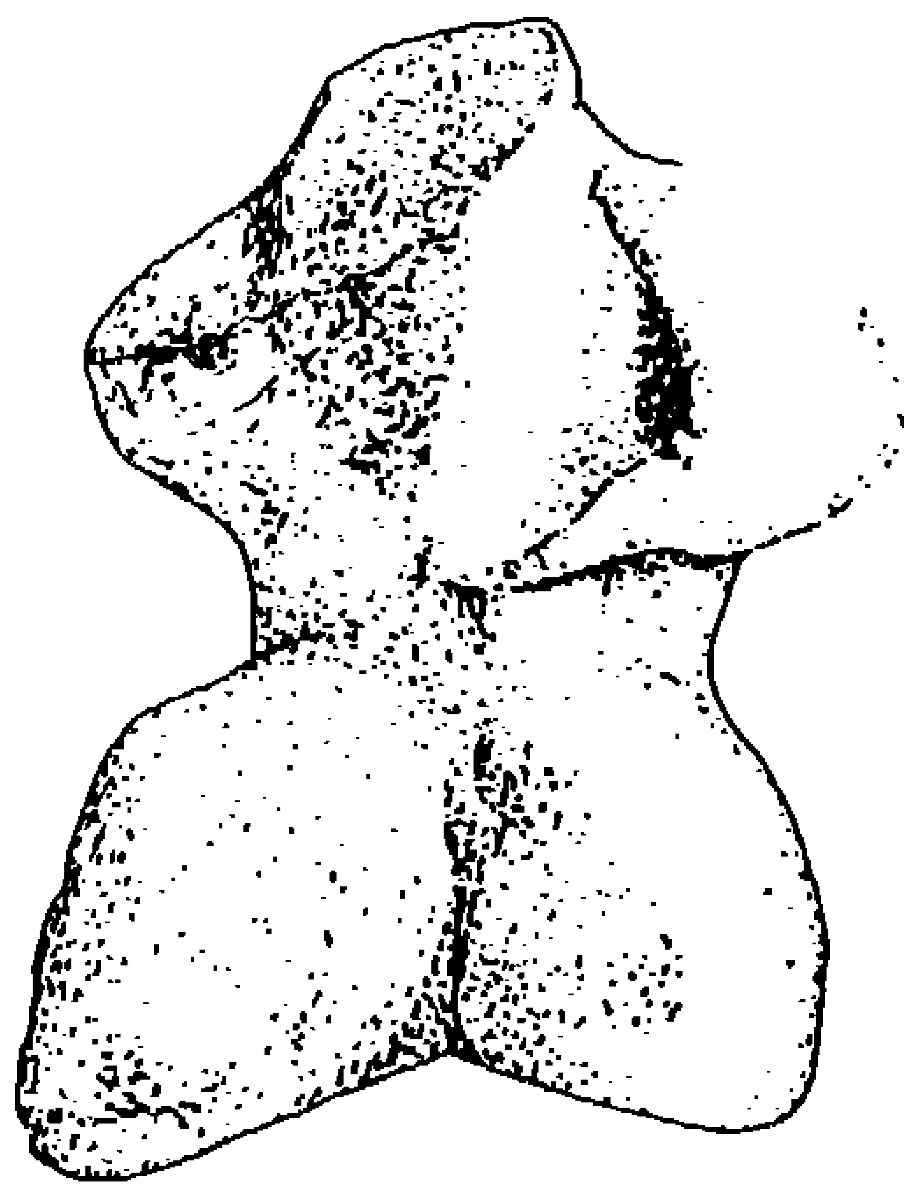
بداکه گفت او باید زجفت | نبشته بود ایا اسپید این گفت
بود هست رنج هر جنبش در | [illegible] روزی که کیهان قضا و قدر
گنش رنج دیگر همی تو بدان | بود رنج در اختر مردان
ز کوهر و دیگر جنبش باشد کوی | بیفتاد گر جنبش باشد نخوری
که این هست رنجهت یاردان | [illegible] باد و دیگر رنج دان
جهان زندگانی و صحت و مرض | [illegible] و زمان هم عرض
گنش از همه رنج دیگر بود | [illegible] گیسو اختر بود
سوی زنان و دیگر شش اختیار | [illegible] روزی از روزگار
گنشی بود این نه از اختر است | [illegible] کوشش که بر دیگر است
ازین رنج از آز بیش آید جای | [illegible] همی گفتند و رای
بود خوردن و رفتن و راه کوی | [illegible] که هست نا بافوی
[illegible] | [illegible]
هر اینها بود هست وند از زبان | [illegible] جستن آن
زیادی تو کوهر بیاراستی | [illegible] ستی

آب فی سستفقه بود وا نیز طاق تختی بناده و بر تخت خذیبه بجو
مردی ابرسان داوری نشسته اگر دو کس با یکدیگر همیانی داشتی پیش
خذیبه دعوی کردی آنکس که دروغ گفتی زیر آب شدی و آنکس که
راست گفتی بر روی آب جنبش داور شدی بهفتم گنبدی ساخته بود
نیمی ابیض و نیمی آسمونا اگر کسی از گیتی گذران شدی و شب دیگر
بام چهارم روان او بر گنبد پیدا آمدی اگر بر نیمه سفید بودی انوبودی
یعنی بهشتی و اگر بر نیمه سیاه بودی دروند بودی یعنی دوزخی اکنون
چراغ کربی روغن همی سوخت که او را بهیچ چیز حاجت نیست

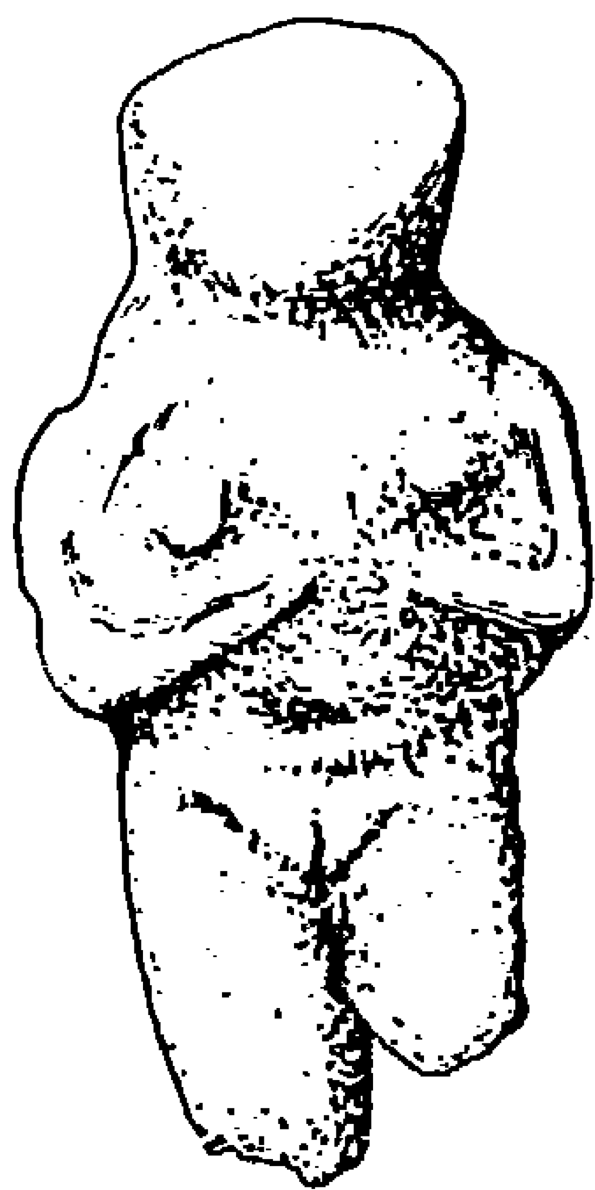
و هفت ستاره که چهار حد و راست نوشته شد
دهان های خوشی و ناخوشی و توانگری و درویشی و تندرستی

مشرق
کیوان و ناهید

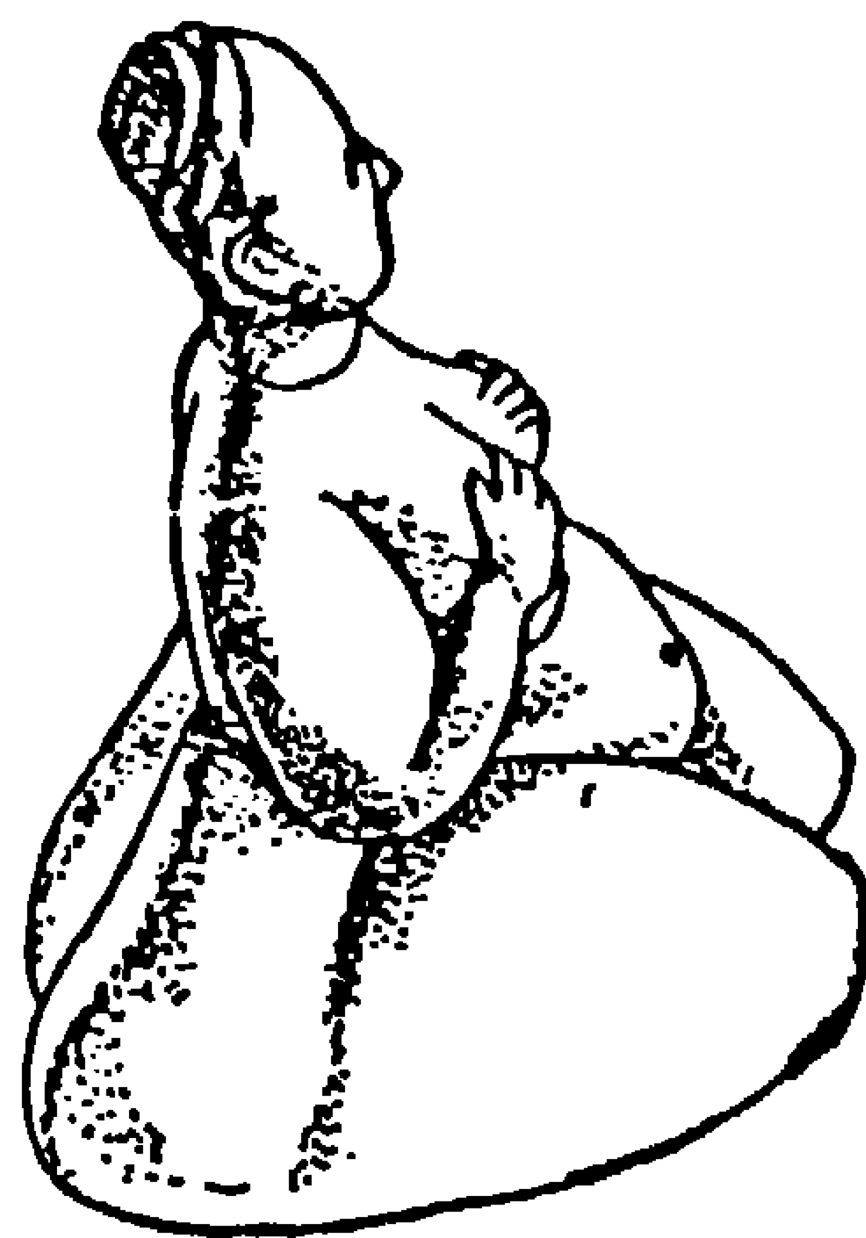
التوقيت الفلكي المزدكي

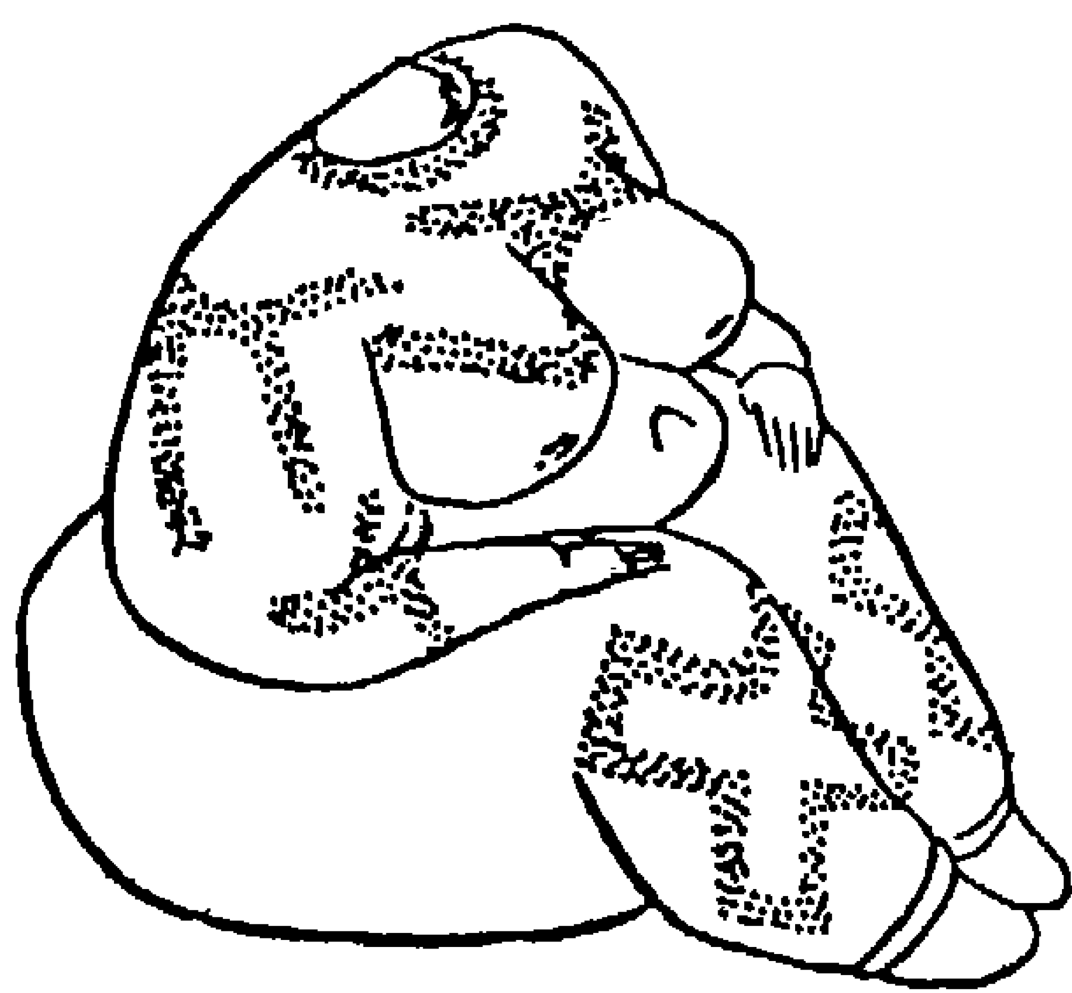


الأم السورية الكبرى تل أسود قرب دمشق

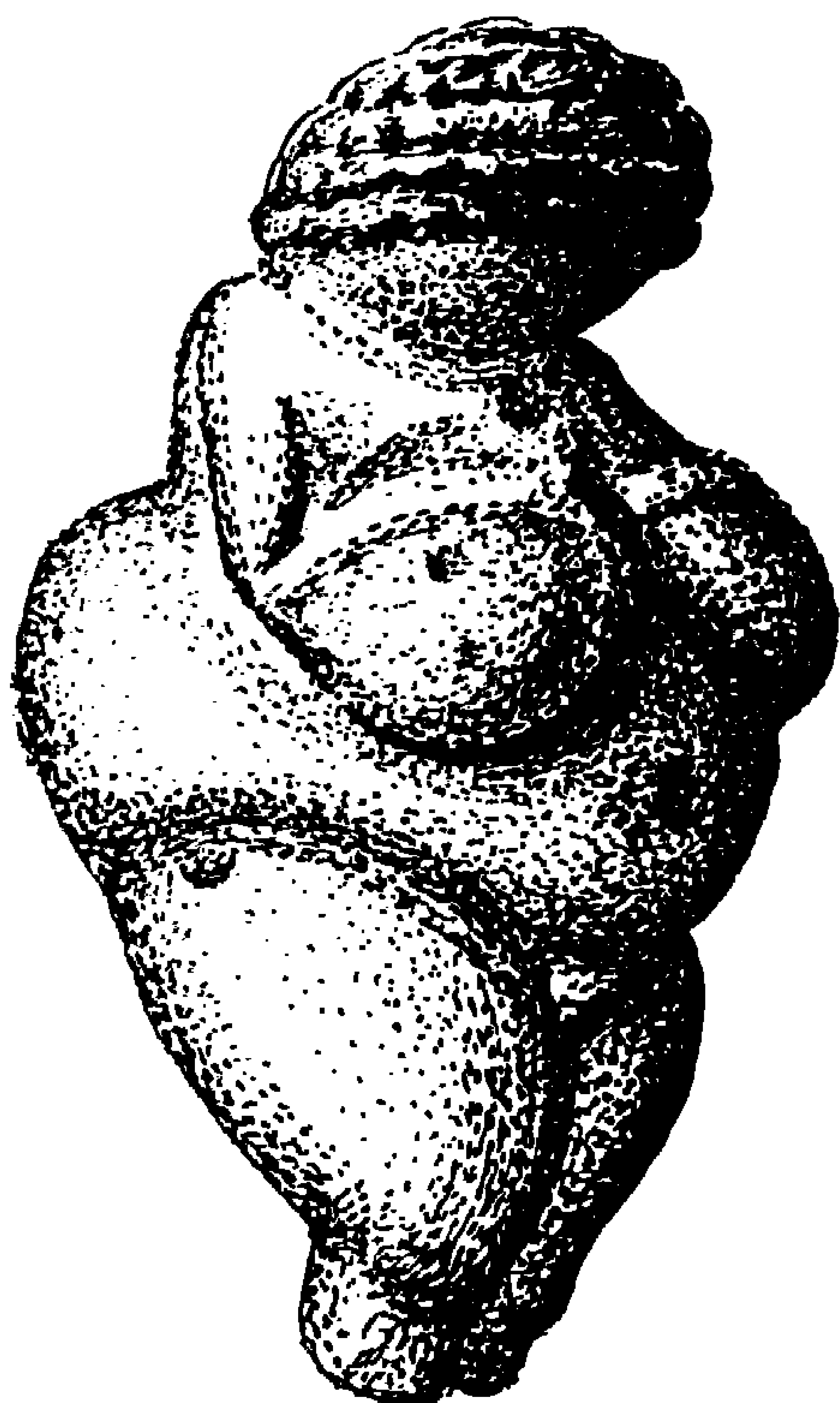


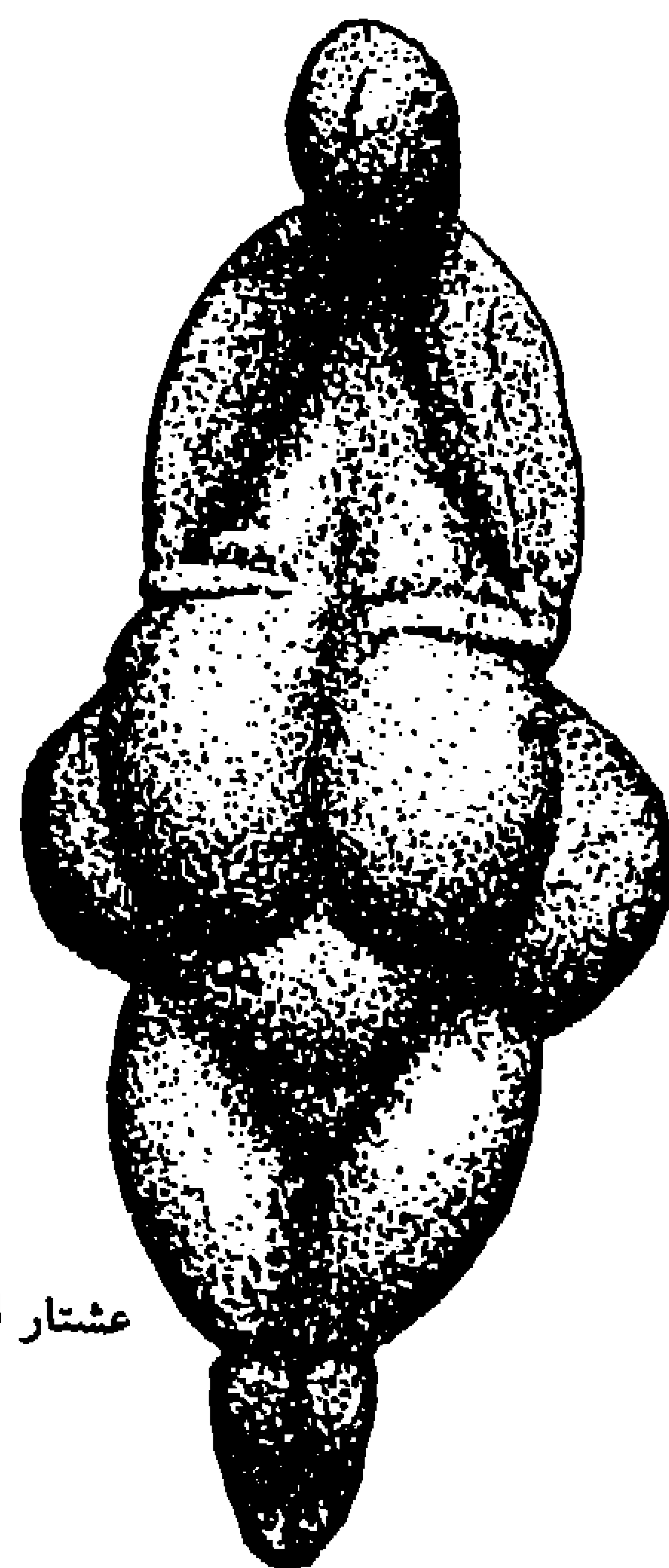
الأم السورية الكبرى تل المتربط على الفرات





الأم السورية الكبرى شتال حيوك جنوب الأناضول





عشتار ليسبوغ فرنسا

عشتار ويلندورف النمسا



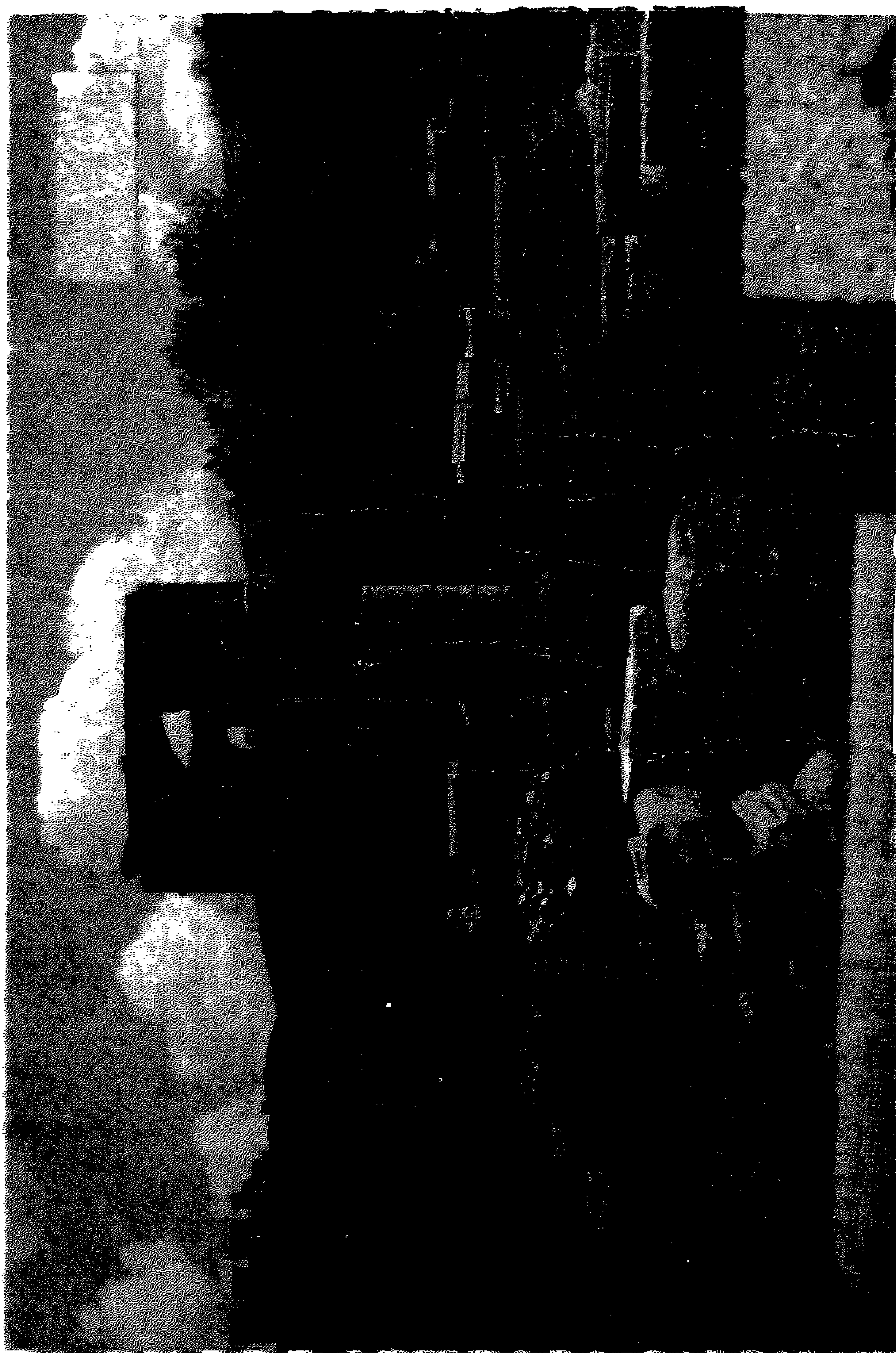
عشتار البابلية



ذبيحة لِلإله ميترا



عملات معدنية
في مدينة الآلهة في صور



قلعة بيبلوس ومعابدها « جبيل »

الباب التاسع

الفصــل الأول

معتقدات مصر القديمة

تاريخ مصر هـو التطورُ المُتتـابع اجتـماعياً ، وروحيـاً . أنه الصفحـة المتألقـة نشاطـاً وتقدماً في تـاريخ البشريـة جمعاء ، وأنـه النفحة الإنسـانية العـريقة ، التي ضمَّخَتْ رياض الوعي الإنساني ، وطبعت على جبين الوجود ، المثل الاسمى : عدالةً وصدقاً ونزاهة ، في عصور مغمورة بالظلام الفكري والنفسي .

يوم كانت تُقدَّم القرابـين والضحايـا البشرية ، وقـوافل الأسرى لـلآلهة القـدامى في ارجـاء الأرض ، كانت تقَّـدم لآلهة مصر المتـطورة : الريـاحين والأواني الخـزفية ، وأنـواع التحف . آلهة اولئك كـانت متعطشـة ابداً لامتصـاص الدمـاء ، وتمزيق الجـوارح : بشراً وحيوانات . وآلهة هؤلاء كانوا ينصبون ميزان العدالـة والصدق ، لتقـاضي كل انسـان على سالف أعماله ، وعلى ما قدّم من خدمات اجتماعية ، ومن طواعية للشرع الإلهي ، المتمثـل في الكاهن والملك ، وفي مقدمة آلهتهم (أتون ، أو أتوم) المبدعَ والخالقَ الأحد .

عصفت على مصر القديمة زوابع بطش وترويـع ، واستغل كثير من المسؤولين سلطة الآلهــة ، وأحسَّ الشعبُ في فـترات ، بِغُبنٍ وقهـر وفـاقـة ، لكن الليـالي الـوضـاءة ،

والاستقرار ، والطمأنينة كانت دَيْدنَ المسؤولين . وليس هذا المسؤول الّا رسولا اميناً ، محاسباً ومراقباً بعين الآلهة الساهرة .

يُقال : أيُّ آلهةٍ هؤلاء ؟ حيوانات وطيور وزحّافات !! كلام يفوه به المغفَّلون ، الذين لا يَرون من التاريخ الا الرسوم ، والظواهر الخادعة . ولو شغلوا الفكر ، واكثروا التفحُّص ، لبان لهم أن العقل الذي يرسم هكذا شرائع ، ويقدّس هكذا قيماً ، ويبتني حضارات كتلك ، تدوم عشرات القرون ، لم يأتهِ ذلك الوعي والتبصر من جُمجُمة حيوان ، وعين صَقر ، وناب افعى .

ليس من موضوعنا دراسة الحضارة المصرية القديمة ، بشتى وجوهها ، انما الذي يعنينا منها هو التطور الديني ، وما زرع من فضائل ، وأيقظ من مشاعر ، وهذّب من نفوس ، دافِعاً بالوعي الروحي إلى مدارج التوحيد ، وهو المُحتَضنُ الأقدم له .

هذا الوجه من الحضارة المصرية القديمة ، هو الذي سنضعه لاحقاً أمام عدسة الدرس والتفصيل ، محاولين مستطاع الجهد : الإيجاز اولاً ، والإقلال من أسماء الاعلام ، تلافياً لتشويش فكر المطالع غير المخصَّص ،وانسياقه في المتاهات ، أو مقته واغلاق الكتاب مللاً .

قبل أن أتناول صميم الموضوع ، أود أن انبه قارئي الكريم ، إلى أن الغربيين ، وبعض العرب في عصرنا الحديث ، خصّصوا اساتذة ومنقّبينَ مهمتهم ، طيلة الحياة : البحثُ والتحليل والاستطلاع والاستنتاج ، لما أكتُشف سابقاً ، وما برح يُكتشف من كنوز دافقة ، تمثل قمة الفن حتى العصر الحالي ، على امتداد وادي النيل .

كيف نشأت الحضارة المصرية القديمة ؟ سؤال اجزت لنفسي طرحه ، توطئة للدخول في صلب الموضوع المنشود :

النِّيلُ هو العمود الفقري لمصر ، ولولاه لاستمرت صحراء سمراء . كانت الوادي والدلتا في البدء قرى متفرقة متناثرة يسودها النظام الفطري ، في الإنسان الأول ؛ إذا بها تزداد عمراناً ، وتصبح ذات مدن متباعدة شمالاً وجنوباً ، فكان بهذه الحال ، لا بدّ لهؤلاء ، من نزعة غريزية تسوقهم للايمان بقوة خارقة ، تصد عنهم الأذى ، وتبعث فيهم

الأمل والطمأنينة والرزق . فكانت كل قرية تتخيّل قوةً ما فتؤمن بسلطتها ، وكان إلهُ المدينة الهاً على القرى المجاورة ، أرقى من الإله الأول . وحين تكاثر النسل ، وبدت مظاهر العمران ، انقسمت البلاد إلى : مصر العليا (الجنوبية) ومصر السفلى (الشمالية) . ودامت الحال، ونما وعي الشعب، كما نمت معه المطامح . فكان لمصر السفلى إلهُ المدعوّ (حورس) وهو ذو صَوْلةٍ فائقة ، تمكن بها من السيطرة على جزأي مصر : السفلي والعلوي معاً . وكان هو الإله الأعلى على كل تلك الآلهة ، في البلاد كافة . حدث ذلك في الالف الرابع قبل الميلاد . علماً بأن الإله هو نفسه ملك البلاد ، في بدء تلك الحضارة ، وكان لكل إله رمزٌ خاص ، كما سنوضح ، وكانت كل الأرض تعتبَر ملكاً له ، وكل إله صغير ، ظافراً ومغلوباً ، يمكنه أن يتّحد بالإله الأكبر المظفَّر حرباً .

كما كان يحق لكل إله أن يتخذ له اسماء ورموزاً مختلفة . كانت تلك الآلهة بين : خيِّرة وشرِّيرة . والأقربُ للشعب ، هو الأنفعُ والأحب .

ما كان الشعب مُوحَّد العقيدة قط . هناك الرمزية العميقة الرفيعة ، وهناك الإيمان بإله مجسَّد بشراً وبإله مطلقٍ فرد ، يحيط به آلهة صغار . وكان إيمان بعبادة آلهةٍ عِدّه . كانت تلك هي تشعبات الإيمان لدى قدامى المصريين ، ولكن مهما تختلف المعتقدات ، فمُمارستها واحدة ، وليس هناك دين بالمعنى الكامل للكلمة ، انما هناك آلهة متعدّدة .

كل تطور وتقدم يحصل في الدين ، ينعكس على سياسة البلاد ، فتطبعه بالطابع الخاص بها ، لأن الآلهة هي من صنع البشر ، ومن طبيعتهم غير أنها تفوقهم قدرة ، وهي تتحسَّس بمشاعر الجماهير ، وتذيع الفرح والاخلاص في العمل ، والمحبه العائلية . فلا ذعر ولا توقّع ذبائح ، ولا عسر ومجاعة . في مصر قاطبة الشريعتان الالهية والزمنية موحَّدتان ، والرعايا كلهم سواسيةٌ امام القانون الحازم ، الذي ترعاه الآلهةُ بنفسها . جاءَ يومٌ شكَّل فيه كبارُ الآلهة « ثالوثاتٍ » عَدَّةً . والثالوث يعني عند الشعب : « الأب والأم والأبناء » . الأب هو الإله ، والأم الأرضُ ، والأبناء هم الشعب .

يعتبر المصريون أن بعد الوفاة ، لهم شفيعاً أعظم هو : « الشرف » . وهذا في نظرهم مقدّم على الصلوات والحفلات الدينية ، والقربان .

الفصل الثاني

المعبودات المصرية

ألمحنا قبل إلى أن للآلهة المصرية اسماءً متعددة ، ورموزاً مختلفة ، تُشير إلى الحيوان والطير والزواحف والأسماك ، مما ينقلنا إلى الأعصُر الخوالي التي تَقدِر «الطوطم وتُجلّه وتعبده . وما هذه الرموز إلا تطوّراً تصاعدياً للفكر الديني القديم .

وهذه صورة خاطفة لهذا الفكر :

الإلهة « حاتور » رمزها قرنان لبقرة ؛ والإلهة « نِيت » بيديها سهمان متقاطعَان . ورأس إله على جسد حيوان ، والعكس ، وهلّم . . .

تقسم هذه الآلهة إلى : أ ـ آلهة عالمية كونية ، ب ـ وآلهة خاصة محلية .

الأولى شَمسية خلاّقة ، والثانية محاربة متواضعة المهام .

وعدا هذه الالهة ، هناك مجموعات اخرى منها : ج ـ الحيوانات الآلهة المقدَّسة ، د ـ العباقرة والأبطال ، والشياطين ، كلهم يحمل صفة الالوهة وبعض خصائصها . هـ ـ ومثلهم بعض النبات والأدوات . و ـ واخيراً الآلهة الأغراب : من سوريا وفينيقيا واليونان . .

أ ـ الآلهة العالمية الكونية :

هي مظاهر الطبيعة المتنوعة ، التي كان الإنسان الأول في كل أرض ، يعيرها نوعاً خاصاً من الاعتبار والتقديس ، لعوامل في نفسه . كانت تمارس هذه العبادة في مصر ، قبل ظهور الديانات المحلّية الخاصة المتطورة تدريجياً . لذا فليس لهذه المعتقدات الأولية مكان ، ولا أثرٌ بارز ، بين سائر الديانات المصرية .

الفضل الأول في حفظ الديانات المتطورة المصرية ، ورعايتها واستمرار تقدّمها ، معادة إلى كهنة مدينة « هليوبوليس » شمال شرقي القاهرة اليوم ، المسمّاة ، ب « عين شمس » من آلهتها البارزة :

١ ـ حُور : يعتبر العالِمُ الجيولوجي (هـ . جُونكر H. Junker) ان معظم المؤرخين يرون في الإله «حور» أقدمها جمعياً . هو سيد السماء منذ القديم السحيق .

والاله الموحِّد الأكبرُ « أتونُ » ما كان ليظفر بهذا السمو الروحي الشامل يومذاك ، لو لم ينتسب إلى « حور » . كما انتسب إليه الآلهه : «بطاح حور » و « حورس حور » ، و « أمون حور » . وهنالك : « هاتْ حور » معبد خاص به ، في « هليوپوليس » . كما أن هنالك رأياً آخر سنُدلي به لاحقاً .

٢ ـ نون : الاله الذي يملأ « العالم غير المنظور » انه عنصر الرطوبة الأولي ، مِن مائهِ خُلق النُور « أبو الآلهة » خالق كل حياة ، ابتداء من بُحيرة «قارون » حيث وُلدت البقرة « قاهرة العدم ومولّدة العالم أجمع » . ألمع إلى هذا التوضيح المؤرخ الفرنسي : (ف . دوماس F. Daumas) في كتابه « ديانات مصر صفحة (٦٧) .

٣ ـ كاب : إله الأرض الخصبة والجدباء . انه زوج القبة الزرقاء . قال بعضهم انه خادم الآلهه . ورفعه بعضهم إلى أنه « النيل » أبو الالهة ، هو الأبدي غير قابل للفناء .

٤ ـ شو : إنه إله الفضاء الفاصل بين الأرض والقبة الزرقاء . وهو إله الهواء والذي يسمح للشمس بمتابعة الدَوَران ، والأموات بالعودة للحياة ؛ وبأمرٍ من الإله الاعظم « أتون » القائل ، في ذكره للأحياء : (مِن فمي مشت الحياةُ في أنوفهم ، بعثتُ انفاسي في حناجرهم . أنا مُحيي الأسماك والزواحف وكل الكائنات المستقرة على ظهر «كاب » إله الأرض) .

٥ ـ توت : إله السماء ، يظهر حيناً « بقرة » مركّزة القوادم على الأرض جمعاء ، وحيناً يتراءى امرأة عارية تلامس الأرض بيديها ورجليها . هي معبودة أهالي « الدلتا » وهي الإلهة المتجسِّدة : البَقَرة (مَاتيار Méthyer) زَوجة الإله المحلي «بتاح » الذي غدا الخالق الأعظم .

ومقابل هذه الآلهة المشدودة شداً بالأرض ، وبالإنسان ، هُناك وجه آخر للميتافيزيا المصرية ، يتمثل في إيمان الجماهير بعالم سفلي تحكمه « دات » . هو عالم الظلمة والموتى ، الذي تشرق عليه الشمس باطلالة المساء . ذلك هو عالم الأعاجيب ، يمشي الإنسان ورأسه في الأسفل ، ورجلاه في العلاء . تسكنه بعض الالهة ، ومنها الشريرة كالأفعى :

٦ ـ (Apophis ابوفيس) بينما الكائنات المعبودة في السماء هي : النجوم السيارة المتواضعة ، والثوابت الشريفة التي تتعب ولا تندثر . فهي تلازم الأفق وتحيط بمركبة « الشمس » المؤلّهة . وأعظم هذه الكواكب : الشمس والقمر .

القمر هو المنتسب لِلإله « توت » ، وهو عين الإله « حورس » .

٧ ـ والشمس : هي المعبود الكلّي الملقب بـ« رَعْ »وهو الذي اعترفت به كهنة «هليوپوليس » : الأَعظَم والأعمّ . وكثرت الآلهة التي تنتسب إليه فيقال : « أتون رع أمون رع ومين رع » . وقد تبدو « الشمس » مرة اسطوانة حمراء ، رمز الحرارة والحياة ؛ ومرة « صقراً » بِعيْنَي اله السماء (حورس) فتمثّل الشمس احدى عينيه ، والقمر الأخرى .

الشمس هي ابنة الاله « توت » تُولد في الصباح بشكل « عجل مذهّب » ، وتتحول بعد ساعات « ثوراً » جباراً ، يقترن بأمه « توت » لتولد شمس جديدة في الصباح التالي ، وتدخل العالم السفلي لتُنيره ، وهي في حالة الشيخوخة ، حيث تسمى بـ« أُتونِ » متوكئاً على عصاً . وقد يعتريها في السفر بين المشرق والمغرب ، عناء ، يدعوها للاستراحة ، فتهجع في موضع يسمى : « صالةَ أتون » أو « منزل حورس » .

يتّضح من هذا التعبير أن « أتون » هو نفسه : « حورس » ولعلّهما معاً هما الشمس نفسها التي اعتبرها بعد اجيال ، الخَلَفُ « أخناتون » : الصورةَ البارزة للقدرة الإلهية الواحدة التي تسيِّر هذا الكون ، وتبعث كل حياة ، وتهزأ بكل اله مستعار . أتكون حقيقة تلك التمثيليات ، وهذه المعبودات المدّعاة ، التي تشغل خواطر سواد الشعب . . كيف نقرّ حقيقتها وننسب الإسفاف للبدائية المغفّلة ، والشرود في متاهات الخيال الطائش الضرير ، طالما يهيمن على تلك الأرباب ربٌّ يعطونه لقب «رع » ولقب (حورس وأتون) ؛ له ابنة هي « مَعَتْ » ، وسنعود إليها ، معناها بالعربية : « الصِدق » بما تحمل الكلمة من معاني العدل والصراحة والنزاهة والحق .

أيمكن أن تتخيّل الفكر المصري المتيقّظ ، باتخاذه هذه الأسماء والرموز والصور ، إلا مموّها وشاغلاً عقول السواد البدائي ، بالمادة المحسوسة ، والباطن المحجوب ، والقداسة الوهميّة ، الموجّهة لتلك الآلهة ، وصولاً بالانسان إلى ممارسة الحب والخير والسلام ، والنظر

إلى الحياة بعين تكحلها البراءة والفرح ، في نفوس عامرة بالجد ، والدأب على استصلاح الأرض واستثمارها ، واستغلال مياه النيل ، لمضاعفة الانتاج الزراعي . هل كان ليفهم الاوائل معاني العدالة والرحمة والجمال ، وهل كانوا يَقْدِرون مفاتن الفنّ وروعته ، ويخضعون للسلطة مختارين ، لو لم يحسن العباقرة الموجِّهون تنسيق معتقداتهم وإحكامها ، والسهر على غرسها وتعهّد نموّها في العامة جمعاء ؟

لَكان عسيراً على التاريخ الحضاريّ العام أن يظفر بمثل ما ظفر به من مخلّفات الحضارة المصرية ، وجارتها السومريّة لولا النوازع « الميتافيزية » المتمثلة بهذه المعتقدات . وإذا لم يكن اليوم للروحانية ذلك الاعتبار ، والدور الرائد في الكشف والاختراع والبناء ، فلأن حلقة الوعي تَزايَد اتساعُها ، والدوافع الخلقية ومخلّفات الديانات السماوية ، اسهمت في ضبط النفس ، والانصياع للقوانين ، لكن ، دون تغيُّر جذريٍّ في الطبائع .

مَن أُجهز نهائياً في مصر القديمة على رفض تقديم قوافل الأسرى ، ذبائحَ للآلهة ، سوى الأيدي العطوفة التي برأتها « الميتافيزيا » ، فكان الأقنوم الخالد : « الله والأرض والعباد » مصنعاً جباراً ، جعل من حدب الأب وحنان الأم وعطائها ونشاط البنين ، مصادر لِكرائم المخلّفات .

الفصل الثالث

الآلهة المحلية الخاصة (الشمسية منها)

قبل أن تتوحّد المنطقتان الشمالية والجنوبية ، في مصر ، كانت للقرى آلهة خاصة ، محبوبة ومقدسّة ، كما رأينا . وبالرغم من أنها لم تضمحلَّ ، غداة اتحدت بسواها لدى الفتوح ، والتضخم السكني ، إلا أنها لم تسعد بمركز خاص بها ، في محاريب كبار الكهّان ، لعل معاد ذلك الحرمان ، إلى قناعة هذه الآلهة بأن محرابَها الطبيعة ، حيث تكون . وأبرز الآلهة التي تمثّلت في محاريب الكهنوت هي : الشمس، والآلهة الخلاّقة منها:

١ ـ حورس : كان الهاً محلياً ثم أصبح كلياً ، وشعاره «الصقر» تجسَّد منذ البدء . وهو أقدم آلهة النور والسماء . والمعروف في الديانات المصرية ، أنه قد يكون لشيء واحد عدّة آلهة ، ولإلهٍ واحد ، عدة مهمّات ، متمثّلاً بأشياء عدّة . عينا « حورس » كما المحنا

هما : الشمس والقمر . ألَّهته ضياعٌ ، ومناطقُ كثيرة ، في مصر السفلى والعليا . وظهر بشكل بشري له رأس صقر . هو زوج «حاتور» ويظهر احياناً ابنَ الشمس ، واخاً للإلهة « سات » وحيناً تُصوِّرهُ الأساطير ولداً عارياً ، واضعاً أصبعه في فمه ، شعره يحجب اذنيه ، منسوباً إلى امه الإلهة : « إيزيس » وهو الذي ثأر لابيه « اوزيرس » من الأخ الحسود « سات » وتقمَّص تمساحاً لاستكمال الاسطورة .

٢ ـ **أتون** : هو الأله الأكبر في مدينة (هليوپوليس) وسائر المحاريب ، وبمقدوره أن يتجسَّد الهاً كلياً ، ليتّخذ مهام إله محلي . نعود إليه بالتفصيل في موضع آت .

٣ ـ **أمون** : ظهر متأخراً بمدينة « طِيبة » في نهاية الأسرة الحادية عشرة . بعض المراجع تعتبره من أقدم آلهة السماء ، شعاره اللون الأزرق الافقي ، وهو في قِدَمِ الإلهةِ « مِنى » . رمزُ هذا : الآله كبش ذو قرنين مُلولبَين ، وزوجته «موت» وأبنه « كنسو » . إمتدَّتْ عبادته إلى ابعاد الصحراء . لنا معه وقفة أطول وأعمق في صفحات مقبلة .

لقد عرَّف الإلهَ (رَعْ) المؤلِّفُ (ف . ل . غْرِيفِّتْ F . Llervellen Griffith) بانه مثال للملك على الأرض . وأن أمون لم يصل إلى مرتبة الألوهة إلا في زمن الأسرة الثانية عشرة حيث نودي به : (أمون رع) نصير الجيوش الفرعونية . كما أن قدامى المصريين الذين يتوجهون بابتهالاتهم إلى قرص الشمس ، يزعمون أنه لدى الغروب عنهم ، ينير عالم الذين وراء المغرب (عالم اوزيرس) . ثم عالم ما تحت التراب . وكان أمون نفسه هو (رع خَبْرا وحورس الأكبر) .

٤ ـ **توت** : من أعظم الآلهة المبدعة بلا منازع . أنه سيد المنطق الإلهي ، ولسان « أتون » وكلمة الإله ، والإلهُ المجسّد ، والروح الالهية . إتَّجد العالم بنفخة من فمه . « توت » هو الإله الذي شفى جراحَ « الالهِ القمر » مِن سهام الإله المؤذي « سات » . كان معاوناً للإله الأعظم « رع » في محاريب هليوپوليس وهو حارس الموتى ، لدى محاكمتها ، مِن قِبَل الإله « اوزيرس » . يرمزون إليه بصورة الطائر « أُبيس » الطويل المنقار . هو أبٌ للإله «بتاح» وزوج لإلهة الشرع والعدالة « حاتور » ، متوّج بنجم ذي سبعة أشعة . أسماه اليونان مؤخراً : هرمس المثلث في العظمة « Triomagist » . سنعود إليه لاحقاً .

٥ ـ **بتاح** : هو الاله المفضَّل في منطقة « ممفيس » حارس الكهنوت وأبو الآلهة

وهنا نذكّر بأن بعض الصفات تغدَقُ هي نفسها على كثير من الآلهة .

بعد انتكاسة عبادة « أتون » كان «بتاح » يقتسم النفوذ الالهي مع الالة «أمون » . يصوّرونه رجلاً ذا لحية كثّة قصيرة . يوسَم هذا الاله بـ « ذي الوجه الجميل » .

ولكن الباحث (ف . ل . غْريفِت F . L . Griffith) ذكر أن (بتاح) في ممفيس هو قلبُ أتون ولسانُه ، وأول من أدرك أفكاره ومنحه لقب : الخالق بواسطة تراجم بتاح نفسه . معتبراً إياه : إنساناً وإلهاً معاً . ثم قال المؤرخ : إنه يعتقد بوجود إيمان بالطوطم قبل الأُسر ، ولكن مع اعتبار وجود إله خفيّ خلف كل ظاهره . وكان رئيس كل بلدة يمثّل الطوطم . مع ذلك كان للمصريين إيمان عميق بعالم آخر ، والدليل على ذلك ما كانت تحتضنه القبور من مآكل وملابس وحلى . فالمتوفّون في زعم هؤلاء هم احياءٌ في قبورهم . وليس رمز الـ (كا) ، بشكل عصفور وجسم إنسان ، إلا كنايةً عن الحياة ، وكلاهما : الإنسان نفسه .

يطالعنا المؤرخون احياناً بتناقضات مردُّها إلى قدم العهد ، وتشابُهِ وتشابُكِ المخطوطات المَعنيَّة .

٦ ـ **قنوم** : آلهة عدة اتخذوا هذا الاسم «قنوم». هو إلهٌ خالق . لُقِّب «بالكَبش الافريقي » وبِـ « سيد المياه العذبة ، وحارس منابع النيل » . يرمزون إليه بِـ « رجل يحمل رأس كبش » .

٧ ـ **سوكس أو سَبَق** : إلهٌ له مظاهر التمساح ورمزه : « رجل ذو رأس تمساح . هو إله المياه والفيضان . معبود سكان « الدلتا » والمناطق النائية التي تعوزها المياه . زوجته «حاتور » . وقد يكون له زوجات سواها . كما للإلهة « حاتور » أزواج آخرون .

٨ ـ **أوزيرس** : إله لهُ عدّة مظاهر منها : إله الموتى . ذاع اسمه في ارجاء البلاد المصرية . فهو إله المزروعات على الأرض ، والمياه المستجدّة للنيل ، وهو الحنطة المغذّية لكل انسان ، انه بالاختصار : كل نبات مفيد .

« أوزيرس » من أعظم آلهة « هليوپولس » القدامى . واسطورته تناولتها الألسن في كل زمان . هذا موجزها : « كان له اخ يُدعَى » الاله « سات » ، نافسه وحسده ، ثم

أغرقه وقتله ونثر اشلاءه . بعد عودتـه ثانيـة للحياة ، وجمـع اشلائـه ، لقّب بإلـه الموتى ، وتـألق اسمه في كـل محراب . حمـل هذا الاسم ، وأصبـح المثل المقتـدى الأول ، للرجـل المتقمِّص ، وبـالأصح المستعيـد الجسد الأرضي . اتّحـد بالقمـر ، وجعل لـه هـذا النقص والتـمام كل شهـر ، لكن « سات » كـان ذا سلطة عـلى الكـواكب ومنهـا القمـر ، فحـاول ابتلاعه .

كان « اوزيرس » إلهاً للزراعة ، وللسياسة والشريعة ، وللموتى ثم إلهـاً كلياً . سُمّي بـراعي الشعب . تزوج من أختـه الإلهة « ايـزيس » وكان زواج كهـذا مُتّبعـاً لـدى الآلهـة المصريين ، لحفظ النسل ، واحياء التوارثِ الإلهي .

ورث السلطان الإلهي والسياسي عن ابيه « جاب » وأورثه ابنه « حورس » الجبّـار ، المنتقمَ لأبيه من عمّه « سات » . واسطورة اوزيرس سنرويها لاحقاً بالتفصيل .

٩ ـ أنـوبيس : كان إلـهَ المآتم ورمـزه ؛ الكلب المتوحش . « سـاد المغرب ، وغـدا سيِّد المتوفِّينَ حتى الأسرة الخامسة . وُكِل إليه تحنيطُ الإله اوزيـرس وحفظه بـأُبَّهته . يـظهر احياناً بشكل إنسان ذي رأس كلب . وحيناً هو ابن اوزيرس » .

١٠ ـ إيـزيس : إلهةٌ تـرافقها اختهـا « نَفتِسْ » فتحـرسـان المحنّـطين من عبث آلهـة الشر . وتبكيان وترعيـان الموتى . كـلاهما زوجّـةٌ « لأُوزيرس » . أمـا «نفتس » فكانت في الوقت نفسه زوجة للإله المحارب « سات » قاتل اخيه .

الفصل الرابع

الآلهة المحلية الخاصة

من أشهر الآلهة المحاربة المحلية كان الإلهُ (سات) قاتلَ أخيه : أوزيرس .

حملت احدى مدن « الدلتا » «ساتارتْ » اسمه تقديـراً لبطشـه . يمثّل الصحـراء في قحطها ، والصاعقةَ في انقضاضها المروِّع . يبتهج للقتل والاجرام ، توحّد مـع إله فينيقيـا الضاري : « بَعْل » . لم يَظهر هذا الإله دائماً بشكل محارب ضار ، بـل رأيناه إلهـاً حارسـاً لمركبة « رع » الإلهية . كما استعاد ظهوره ، بإله القدرة والحامي لمملكـة الفرعـون التاسعـة

عشرة والعشرين ، ومُبيداً لاعدائها . رمزه يبدو احياناً « رأس أتان أو كلب أو زرافة » . لونه المميّز الأحمر (شارة الدماء) . في حين لون أوزيرس أخيه : الأخضر (شارة الخصب والحياة) . لكنَّ « سات » في آخر مطافه ، بالعصر المتقدم ، اشتهر اسمه بـ : عدّو مصر والتاج ، وتجسّد : بـالمُجتاحِ الفارسي . حدا هـذا التصرف آلهة مصر إلى الأقرار بأنـه : الفاسد وعدوّ الآلهة .

وهناك آلهة محـاربة عـدة منها : « سَكْمت » إلهـة النار . رمـزها : امـرأة ذات رأس لَبوءَة أصبحت فيما بعد زوجة الإله « بتاح » .

والإلهة « نيت » تتقدم الملك في المعارك . لتمهِّد له طريق النصر ، شعارها : قوس ، وسهمان ، والإلهة : (حاتور) « فاتنة الميتيولوجيا » المصرية . رمزهـا : قرنـان يتوسـطهما قـرص الشمس لقِّبت بـ : « أم حورس » و« بعـين رع » وقد ابتهلت إلى هـذا الأخـير أن يعيد مرة في العالم شكلها بعد الوفاة ففعل . استولت على أُلباب النساء المصريات ، ولُقِّبت متأخراً بـ « أفروديت » اليونان ، إلهة الحُب . كما كانت إلهـة الرقص والفـرح والموسيقى ، واعتُبرت في « طيبة » إلهة الموتى . وهي نفسها الإلهة التي ألمحنا إليها قبل قليل .

وهناك مع هذه المجموعة ، آلهةٌ منها : أ ـ « مَنْتو » الكوكبيِ النزعـة ، الإله الصقـر . ب ـ « مِنى » إله التناسل والأخصاب . لُقّب بسيد الفتيات ، وأمه إلهة السماء ، وغدا سيد البلاد الغربية وقدَّسه سكان « النوبة » .

ج ـ ونفرتوم « ابن بتاح » المزدان بـزهرة « اللوتس » ورمزه ، واقفـاً على ظهـر اسد متوسد . وأنوريس : تدعى أيضاً « عين الشمس » . من دموعها انبثق الإنسان ، ليحرس العـالم من الوحـوش الضاريـة . سمّي : « المُنقذ » . و : د ـ « تَفْنَتْ » وهي المـزعـوم أنها اتحـدت بـالإلهـةِ « معَتْ » إلهـةِ العـدالـة والصـدق . و : هـ ـ « بِـأَسْتِتْ » إلهـةِ الفَـرح ، والموسيقى والرقص . رمزها : سلة صغيرة في ذراعها . والإله : و ـ « هرسـافس » المتزوّج من « حـاتور » . عينـاه الشـمس والقمـر ، ومصـدر الهـواء : أنفـه . انـه الإلـه ذو الألف قادمة ، ومرّة الإلهة : (أيـت) منقذة الولادات . واعتبرت أم (أُوزيرس) ، وقد تصوّر المصريون آلهة اعتبروها ملوكاً وكهنة لهم ، بالنظر لتفوّقها العقلي ، والخلقي ، منها الإلهة :

« هو » و« سيا » وآلهة البصر والسمع ، وكثير غيرهـا . أبرز تلك الآلهـة : « مَعَتْ » الأبنة المحبوبة « لِرَع » . تمثّل الحقيقة والعدالة . إنها عنصر الألوهـة ، والقربـان الذي يتغـذّون منـه . احتضنتها الـديانـة الأتونيَّـةُ . وقد اكتشفت بعثـة فرنسيـة مؤخراً مـدفناً « لِمَعَت » في « الكرنك » الشمالي .

يقول المؤرخ : (ستانلي كوك) ، « ان في الميزان المصري ريشة نعـامة ، يقف الميت ازاء (اوزيـرس) ليثبت براءتـه ، بذلـك الميـزان ، ذي الـريشـة المسـماة : (مَعت) وهي تعني : إلهة الصدق والحق » .

الحيوانات المقدّسة والمؤلّهة :

لم يعبـد المصريون الآلهـة بمعنى العبادة ، إنمـا كانت رمـوزاً لآلهتهم : أخصّ منهـا : (أبيس) هـذا الحيوان المؤلـهُ معروضٌ في هيكـل « بتـاح » . ظهـر منـذ الأسـرة الأولى في « ممفيس » .

تقول الأسطورة اليونانية : ترعرع في أحضان اشعة الشمس . وتكمل الأسـطورة ، أنه كان يقدّم كل عام لهذا الثور المؤلّهِ عِجلة ذبيحـة . وانه محـذور عليه أن ينسـل . وهذا الثّور يتجّدد عِجـلاً ، ثم يتجّدد مـع الأيام ، ويعـبّر عنه بـأسماء آلهـة مختلفة . وعـلى هذا المستوى الشعبي المحبّب كان الحيـوان المؤلّه : الكبش ، المعـروف بـ : « كبش مَنداس » . إن الحيـوانات المقـدّسة ، تعني في مفهـوم العقيدة المصريـة ، صورة الإلـهِ المتقمِّصـة عـلى الأرض .

كانت في الساس منها « الطوطمية » إذ تقدّس : الحيوان والنبات والأشياء ، لقدراتها أو لرشاقتها ، أو لبطشها ، أو لمرونتها . ومع الأيام يغدو هذا الشبيه إلهاً في نظر محتضنيه . أما الأستاذ « محمد غّلاب » فيقول في كتابـه « مشكلة الالوهيـة » ، صفحة (٢٨) : « ان الطوطمية لدى بعض الشعوب صورةٌ مشوّهـة لديـانة قـديمة كـانت راقيةً نقيّـة ، ثم عدت صروف الحياة فأفسدتها وحوّلت جمالها إلى دمامة ورقيّها إلى بدائية ساذجة .

وكثيرة هي الآلهة العظام التي تحمل لقب الحيوانية المتعددة الأسماء منهـا : نفس أتون المنبعثـة مـرة في أفعى ، أو أسـد ، أو كبش منـداس ، ومثلهـا « تـونت » و« رع » . وقـد

ينحـدرون إلى الزحـافات فيقـدّسـونها بـاعتبـار أن نفس أحـد الآلهـة حلت فيهـا ، ومنهـا الخنفُســاء : نفس الالـه « كــابـري » أي شمس الصبــاح . والعقــرب نفس الإلهــة : « سالكتْ » .

من هـذا الرهط الكبـير للآلهـة المصرية ، هنـالك آلهـة التوليـد وحراسـة الطفـل ، والام ، منهـا : الإلهات السبـع : « حاتـور ، وبـاس » وغيرهمـا ، وآلهـة الـزراعـة منهـا : « أرنوتت » الإلهة الأفعى التي تعنى بـالحصاد وحمـاية الـزراعة ، و : « تـات » الهة الحيـاكة والنسيج . و « نابـري » المتوّج بـالزنبق والـبردي ، وهو يمثّـل « النيل » . وابنـاء « حورس الأربعة » من زوجته « إيزس » .

ألوهةُ المتفوّقين :

للأبطال والملْهَمين منزلة خاصة فريدة لدى العقيدة المصرية . يُرفعون لـدى الحاجـة إلى مصاف الآلهة ، ويعترف بقداستهم الكهّان . بين هؤلاء :

١ ـ أمنحـوتب مهنـدس ونـاسـخ . لـه تمثـال في « الكـرنـك » وهــو صلة بـين الله والمخلصين إليه . نسبت إليه بُنُوَّتُهُ من « أبيس » .

٢ ـ «أمحـوتب » أكبر كهنـة « هليوبـوليس » ، ومهنـدس ووزيـر الملك « زوسر » من الأسرة الملكية الثالثة . صمّم ورفع الهرم المدرَّج في « سَقارية » . اشتهر بالحكمة العميقة ، وله هذا الكلام المأثـور : « كل امرىء حكمته بـين شفتيه » وهـو أول من نظم النقـر على الوتر ، وأول من جعل من الطب مهنة خاصة رفيعة ، وأول من نظَّم نسخَ الـدّواوين . له هيكله في مـدينة « ممفيس » واعتـبر ابن « بتـاح » . أمـا مـدفنـه فلم يُكتشف بعـد . فهـو (هرمس المثلث بالعظمة) ، وهو الذي رفعه اليونانيون القدامى إلى مصاف آلهة الحكمة .

الآلهة الأغراب :

تعّرف المصريون بوسائط مختلفـة ، إلى ديانـات وعقائـد متنافـرة ومتقاربـة . قبل أن تكـون فتوحـاتهم في الأسرة الملكية الثـامنة عشرة ، وقبـل أن تنشط التجارة بشكـل عام . كانت أولى الممالك التي تعرّفوا إليها هي (سوريا) لِمتاخمتها ، ولِعراقة حضارتها . ثم كانت

فينيقيا ، وما بين النهرين . من هذه الآلهة :

١ ـ « أشترْتا » عبدت في مصر اولاً كإلهة محاربة ، تصحب عربة الملك في حروبه . اعتُبرت اولاً ابنة « رع » الغربية . وفي « ممفيس » اتخذها الشعب ابنةً لـ « بتاح » وهي فينيقية .

٢ ـ « أنات » إلهة البهرجة والجمال ، من أصل سوري . اتحدت « بايزيس » وغدت والدة « حورس » .

٣ ـ « بعل » من أصل فينيقي وله خواصُّه في العنف والرعب . انه الصدى لنداء الفرعون إلى الحروب . وُجدت له أساطير في حفريَّات « رأس شمرا » شمال غربي سوريا .

٤ ـ « كادخ » واسماها المصريون « حاتور » لمشابهتها بها . وسميت « عين الشمس » وابنة « رع » مهمتها صدّ هجمات الضواري . يُبرزونها غالباً عارية ، على متن أسد . حاملة ازاهير وأفاعي بين يديها .

٥ ـ عشتار : الالهة « النينَويَّه » . هي التي شفت من السَقام « أمينوفيس » الثالث . مقر تأليهها « ممفيس » ومُنحت لقب : الإلهة الشافية .

نباتٌ وأشياءُ معبودة :

كان من عادات المصريين القدامى . اللجوء إلى كل ما يقيهم أو يصد عنهم غائلة الجوع ، أو يعود عليهم بالنفع الآني . لذا نراهم يقدِّسون حتى الأشياء والنبات .

هذا التشعب والامتداد في العبادات المصرية يحملنا على الاعتقاد بأن بذور معتقد « المطلق » المتأصل في الشرق الأقصى ، وَجد له هنا جذوراً ، أو أنهُ اتُّخِذ من هنا ، من وادي النيل ، إلى ضفاف الغانج والهندوس ذلك المعتقد العام ، الذي تراءت لنا هنا ومضات منه ، إذا هي لم تكُن بالضبط رموزاً لآلهة بشرٍ أو ما فوق البشر. المصريون إذا لم تبدُ لديهم عقيدة (Animisme) « الحيوية » كلياً ، فهم يغدقون الاعتبار لبعض الاشياء ، منها سفينة هيكل « اوزيرس ، المسماة : « نَخمات » . وكل أداة ملوكية لها الاعتبار نفسه .

ليس هذا المعتقد المهمَلُ الذيوع ، حديثاً ، بل هو جدٌّ قديم ، وجدٌّ حديث ، حتى المملكة الجديدة ، حيث نرى ماثلاً للعيان ثمار شجر « الجُمَّيْز » وغصونه ، جنوبي هيكل « بتاح ». ولعل عظيم اعتباره هذا ، لأنه كان يظّلل ، برفق وعذوبة إلهة الحب : « حاتور » .

وآلهة وانصاف آلهة ، واشباه آلهة ، تندفع سيلاً في مجرى تاريخ مصر الفرعونية . سنعود إلى بعضها ، مُدلّين إلى ما لها مِن مآثر جليلة ، وامثلةٍ تُحتذى ، وآساطيرَ لها مغازيها وتآويلها البعيدة .

الفصل الخامس

المعتقدات الدينية

للمؤرخ اليوناني « هيرودوتس » تعبير قيِّم ، يلقي ضوءاً على الحضارة المصرية القديمة . قال: « المصريون هم أكثر العالم تقوى . والمعروف عنهم ، أن الجميع أمام العقيدة من الملك حتى أضعف فلاّح متساوون . تقاضيهم آلهة خاصة ، معتبرة ميزة كل إنسان ، أياً كان : عمله اولاً . انهم يتذوّقون السِحر بتعطّش ، ويقدرون بل يُجلّون المميّزات الخلقية » .

أ ـ الأساطير المؤلهة :

ممارسة الطقوس الدينية تبنّتها كل الآلهة : صغار وعظام ، وطنيّون وأغراب . ومن طبع الطبقة المتواضعة من الشعب ، أنها تتصّور مختارة آلهتها ، على مثالها وطباعها . منها العاطفية والضعيفة ، والشاذة والفاضلة . إنها بشر متفوق وحسب . وأسرتها هي : أبّ وأمّ وبنون ، لا يفرقهم عن العامة فارق غير التفوّق . تتجلى هذه الخصائص في الآلهة حين نتأمل اسطورة « اوزيرس » . هنالك ظفَرُ العدالة ، والوفاء الزّوجي ، والحب الأمومي ، والرأفة البنوية العارمة . أن المناخ الطبيعي المسيطر على مصر، بين جِدَّة وحرارة وخصوبة وازدهار ، يلحّ عليها في الاندفاع العفويِّ بمعتقدات متباينة تخدم متطلباتها . منها الشمس والكواكب . فهي التي تبعث القسوة في المناخ والجفاف ، وهي التي تعود فتنمي النبّات ، وتجفّف الوحول والمستنقعات . ودور الشمس بالغ الأهمية ، في كل نواحي الحياة

الطبيعية المصرية ، وبخاصةٍ تأثيرها في الشروق والغروب على « النيل » عنصرِ الحياة .

إن الوضع الجغرافي الطبيعي يحتّم على المصريين القدامى عبادة الشمس . وليست الأرض إلا كتلة من ظلام ، لكنها يُنبوعُ الحياة ، بهذا أدلى الباحثان : (J. و L. Woolley، Howkes وُللأيْ وهَوكس) في تاريخ البشريَّة ، مُضيفان أن المياهَ كانت غامرة كل الدنيا وكان اسمها (نُونْ) . ثم بعد وجود البشر والديانات كانت لمصر هياكل متعددة ، قبل أن غدت الشمس هي الإله الأوحد . وكان أتون هو إله الشمس ، وهو الخالق نفسه . أولُ من خلق أتونُ : (شو) إلهَ الهواء ثم (تفنوت) إلهة الرطوبة ، ومن هذين إنجّد (جابس) ، إله الأرض و (ونُوت) ، إله السماء . وهذان بدورهما خَلَقا : (اوزيس واوزيرس وسات ونفتيس) . ثم عقب ذلك ظهور آلهة عّدة بعد ذلك ، في المناطق المصرية جمعاء ، قبل أن تكون الأُسَر .

ويضيف المرجع نفسه انه ليس لدى الأخصائيين ادلةٌ صريحة، وثابتة ، عن وجود أي معتقد للمصريين قبل عهد الأُسَر . غير أن المرجَّح لديهم حسب (نصوص الأهرام) أن أتون (اله الشمس هو الأقدم) .

ب ـ الخرافات التي تعود للمخلوقات :

١ ـ من العنصر الأول تفجّر الوحل ذات يوم ، فكانت اولى أشكال الحياة . من بينها : أربعُ افاع ، وأربع ضفادع . ثم ظهرت بيضة عصفور جاءت بإوزة ، هي نفسها الشمس التي بدّدت الظلمات ، وجفّفت الرطوبة . وأول صوت انطلق من هذه الإوزة ، ليروِّع الصمت السائد كان : إنبعاثُ العالم بضوضائه المتابعة .

٢ ـ وخرافةٌ ثانية هي : ظهرت في يوم على سطح الانواء الموحلة « بقرة » تحمل على ظهرها : الولَد : إلهَ الشمس .

٣ ـ وخرافةٌ تروي : أن جذع نبات تصاعَد من اللجَّة الرطبة ، قبل كل وجودٍ لشيء أو لكائن من بين تُوَيجات زهرته ، انبثق الاله : « الشمس » .

٤ ـ ويروي « سليمان مظهر » : نشأ الكون اولاً صورة عقل « بتاح » ثم نطق لسانه بما فكّر فيه عقله ، فخلق الكون « بالكلمة » (Logus) في مؤلَّفه : قصَّة الديانات .

٥ ـ وهذه خرافة كبرى من أصلٍ « هليوپـوليتي » ، انتشرت على كـل لسان : « في فجـر العالم حيث الخـواءُ كان عنصر الـوحل والمـاء يحملُ كـلَّ بذور الحيـاة، وكـان يُسمَّى « نون » . منه كانت روح « أتون » قبل أن تتجسد إلهاً . ومن روح « أتون » انبثقت كـل الموجودات . انـه الشمس ، والروح الخـالقة ، و «رع » . ومنـه انبعثت الآلهة والنـاس . وشطح الخيال في البعيد ، في تفسير بـدء الكون . غـير أن اسطورة « أتـون » عادت يـانعة للفكـر البشري ، بعد نـزول الديـانات السـماويـة الحـاضرة ، إذ اعتـبرت بعض المـذاهب الباطنيَّة ، أن العقل ليس فِكَرةً ، بل في ترفّـعٍ مُتناهٍ ، شـأن أتونٍ ، عن مبـاهج الـدنيا . والأهم في احتضـان كليهـما لـ : « مَعَتْ » الأسم الـذي يعني : الحقيقـة والصـدقَ ، كـما سبق ، ويرمز به الأقدمون لإلهةٍ « هليوپوليتَّية » . كما انها تعني الصراحة بأكمـل معانيهـا : (عن جـاك ڤانـدييه) ، و (أتيـان دريوتـون) . وقال سليـمان مـظهـر : مَن أقـرَّت معتْ صلاَحهُ نجا ، ومَن لا تُقرُّه هَوى إلى الجحيم .

٦ ـ تقول الأسطورة أن التنازع يمتد إلى السماء ، وبين الألهـة نفسها . وقـد أجهدت هذه الثورات الإله « رع » ، وكانت قد تسرّبت إلى جوارحـه عوامـل الشيخوخـة ، فأخـذ يـرتجف ، ولُعابهُ يسيل فـأندفعت إليـه بسرعة خـاطفـة الإلهـة « ايـزيس » واستلبت منـه قُدُراتِه . وبـأعمالهـا السحريـة ، تمكّنت من مزج لُعـاب « رع » المقدس بـالتراب ، وخلق أفعوان سام ، خبـأته بجـانب طريق الالـه ليلسعه . وإذا بـالاله الخـلاَّق « رع » يتسمّم ، ويدعو الآلهة ومِن بينها « ايزيس » .

حـين أحسَّ « رع » بدنـو موتـه طلب من « ايزيس » أن تشفيـه ، فـطلبت إليـه أن يتعهد لها بكشف اسمـه الباطن . بعـد جهد وخشيـة من الموت المحـدِق ، اعترف « رع » بذلك الباطن فقال : « أنا في الصباح » كابري » وظُهراً « رع » وفي المساء « أتـون » . فلم تصـدّقه « ايـزيس « ، حتى اخيراً صفـر في اذنها سرَّ عـظمتـه . ولبثت تلك الصَفْـرَةُ سِـراً باطِنياً ، توارثته الاجيال وما تزال .

لهذه الاسطورة مضمـون تاريخي عقـائدي يـدل بخط عريض عـلى أن الباطن عميقُ الجذور . والباطن تبنّاه أُعظم إلهٍ لِمصر القديمـة ، والباطن ليس عـاملَ خـوف وانعزاليـة ، بقدر ما هو نفحةٌ روحية عُليا . هـو التوحيـد الحق ، هو الإيمـان بعقل كـلي مهيمن . كل

عقلٍ بشري ضئيلِ الوعيِ ، إنما هو ومضةٌ من ذلك النور الأعم . والنفوسِ البشرية وحدها هي الخالدة بالتقمّص ، وهي التي تقف يوم الحساب الأخير ، أمام القَدَر اليومي ، لِتحاسَب على ما احتقَبتْ من خيرٍ أو شر . والمحاسب الأول هو « مَعَتْ » العقلُ الكلي . والقُدرة العليا ، هي التي لا يحصرها تعريف ولا تحدّها خواطر الانام وحواسهم . وقد رمز إليها المؤرخان : دريوتون وڤانديه : انها ريشة عامودية في الوسط من كفتي الميزان ، حيث تحمل الكفّة الأولى قلَب المتوفَّى لإدانته أمام هرمس وأوزيرس .

هذا هو المفهوم للباطن الذي نعيشه ، ولعله هو نفسه : تلك النفخة التي بعثها «رع » في أذن « إيزيس » . ولم يفتأ العالم ، مَلهاةً للآلهة الأشرار . يسعِّرون الفِتن ، ويبعثون المشاكل لهذا الإله العجوز « رع » الإله ذي العظام الفضِّية ، والأعضاء الذهبية ، والشعر اللازورديّ . همهُّم خلعُه نهائياً من سدّة الالوهة العظمى . لكنَّ « رع » عرف ما يُضْمِرون ، فدعا الآلهة الخيِّرين الذين انبثقوا منه ، بعد خروجه من ظُلمةِ « نون » الطغياء ، وسألهم الرأيَ الحازم . فقال « نون » أقدم الآلهة : « يا بُنيَّ : أَنت الأعظم من أبيك ومخلوقاته ، إلبَثْ على منصَّتك ، فالمخاوف تعتريك طالما أنت ترى لك منافسين وخصوماً متعصِّبين » . تنفيذاً لهذا القرار الالهي الأبوي ، استقر « رع » باعثاً بِعينهِ الالهية ، في صورة الإلهة « حاتور » إلى خصومه . ففّروا في أعماق الصحراء حاملين روح الانتقام . وحين شاهد « رع » الالهة « حاتور » بهذا العنف ، خشي أن لا تُبقي احداً من مُنافسيه ، فسارع إلى استخدام شراب من البيرة والشَعير وعَصير الرُمَّان الأحمر ، يشابهُ بلونه الدّم البشرى . سبعةَ آلاف ابريق من هذا الشراب ، اهرقها على الأرض ، حيث ظنّتها «حاتور» دماء بشرية ، مسفوحة من يدَيْها ، فجرعت منها حتى تملّكها الثّمل ، وارتدّت عن التقتيل . لكن العجز تملك جسد الإله « رع » مما حدا بالاله « نون » أن ينقله على ظهر « بقرة مؤلهة إلى السماوات العليا » .

٧ ـ خرافة اوزيرس : بلغت شهرة هذه الخرافة ، وتداولُها على السنة الخاصة والعامة ، في مصر وغير مصر ، ما لم تبلّغه أية خرافة واسطورة في ذلك العصر .

والفضل الأول في نقلها كما رويت ، لمؤرخي اليونان وخاصة (Plutarque پلوتارك) بعدهم . قيمة هذه الخرافة والسبب الأهم في ذيوعها ، انها تظهر ما يسمُّونهم آلهة ،

بشـراً : بطبعهم وتصرفهم ، وشـمائلهم ورذائلهم . انهم ذلـك البشر المتفـوّق المتنـاهي : حسداً وحقداً ، مُقابل تناهيه : اخلاصاً ووفاء ورأفةً وبِرًّا .

كان « اوزيرس » قديماً ، ملكاً مصرياً متألهاً ، ثم غـدا إلهاً للزراعـة ، بعدئـذ تخيَّله الشعب ذلك الإله المتفاني ، تضحيةً في سبيل الإنسان ، ومُدِلاًّ على امكانية عـودة التجسُّد بعد مفارقة الحياة .

ولنسمعِ الخُرافة :

« جعلت هـذه الخرافـة « اوزيرس » يـولد من أبـوين هما : « جـاب » إله الأرض ، و « نوت » إلهة السـماء ، وأصبح أعـظمَ ملوك الأرض . من إنجازاتـه ، أنه دفـع بمصر في سلّم التقدم والتطور السريع : نقلهـا من الحياة البـدائية ، إلى أفق زاهـر بأنـواع الزراعـة المختلفـة ، والفن الـرفيـع : مـوسيقى وغنـاء وشعـر . شَـذَّب الحـروب ، ووطـد الأمن والطمأنينة في النفوس ، فكان « أورفوسَ » اليونان القديمة .

لهذا الملك أخ حسود ، تصور أن في الطبيعة الحاضرة ازدهاراً وخضرة وسكينة ، كما أن فيها مقابل ذلك صحـاري قاحلة ، وجـدباً ، وصـواعق وزلازل . إذاً مِنَ الطبيعي أن ينعكس ذلك على الإنسان . وأن يحقد ويثور ويدمِّر .

تناولت هذه الأسـطورةَ اقلامٌ كثـيرة منها : مخـطوطات الأهـرام ، ورسائـل « توت » وهيرُدوتس » واخيراً «پلوتارك » . تتضمن كلها إلصاق تهمة الاجـرام في « سات » نفسـه . ماذا فعل ؟

كان مع « سات » اثنان وسبعون مُساعداً ، عاونوه على إنجـازِ صَندوق فخم بحجم « أوزيرس » . وبحيلة ماهرة أنزلوا « اوزيرس » في الصندوق ، واقفلوه ، وألقوه في النيـل ليقذفه إلى البحر . وهنا تختلف الأساطير حول هذا الحدث ، غير أن « پلوتارك » اعتبره كما يأتي ، معتمداً مخـطوطاتٍ مصريـةً هامـة ، قال : « قـذفت الأنواءُ الصنـدوق إلى شواطىء فينيقيـا ، لمينـاء « بيبلوس » اليـوم هي « جبيـل » حيث كـانت عبـادة « أدونيس » هي السـائدة . حـين استقرّ الصنـدوق ، عـلى الشـاطىء نبتت بسرعـة فـائقـة شجـرة (الأريكاAricat) التي احتضنت الناووس وسترته بلحائها . وما كان من ملك « بيبلوس »

« ملقار » الا الاندفاع فجأة ، فقطع الشجرة ، ليصنع من جذعها عموداً لقصره .

نعود إلى زوجة « اوزيرس » الالهة « ايزيس » « فقد استولى عليها حزن عميق ، واستمرت الدموع تتسابق . بين أجفانها ، تَهمي فتخدِّدُ وجنتَيها الحمراوين . اطالت البحث عن زوجها ، وأوفدت الرسل إلى ضواحي البلاد . ما طال بها الأمد ، حتى صَدَقتْها الأخبار ، وأرشدتها إلى محطّة ، هناك ، تيقظت فيها ملكة السحر ، فهيمنت على الملك « ملقار » فسلّمها « العمودَ » المحتَضِنَ رُفاتَ زوجها . فأخذته ورجعت لمصر حيث خبأته لدى (Bouto ، بوُتو) مغموراً بالوحولِ لِتُخفيه عن باصرة وبصيرة الحسود القاتل « سات » . « وبوتو » هذه هي : إلهة دلتا النيل .

وكان « سات » منطلقاً في الصيد ليلاً ، فحطّه القدر أمام « الناووس » . عرفه وفتحه موعزاً إلى شركائه في الجريمة أن يقطّعوه إرباً ، وينثروها في أرجاء الأرض . وتمّ تقطيع « أوزيرس » إلى أربع عشرة حصّة ، ألقيت في مهبّ الرياح .

عرفتْ « ايزيس » بما حدث فطغى عليها البكاء ، لكنها استعادت وعيها ، واستقلت زورقاً من ورق البرديِّ ، بحثاً على بقايا زوجها . أخيراً ظفرت بها في المستنقعات البعيدة ، واحدة بعد أخرى . خلا بقية واحدة هي : العضو الجنسي ، الذي كان قد ابتلعه السمك . وما كان لِيَفوتَ الزوجةَ أن تشيد في مكان كل بقيَّة من جسد زوجها ، أثراً جنائزياً ، ظلّ خالداً في انحاء مصر .

ظفرت « ايزيس » ببقايا زوجها ، لكنها لم تقنع بهذا الظفر المشوَّه . هل لطاقاتها السحرية قدرة على استرداده إلى الحياة ؟؟ كيف ؟؟

إن السر الذي أودعه في أذنها « رع » حملها على أن تتقمّص « باشِقاً » وأن تقترب من جثة زوجها خافقة الجناح ، بِتُؤَدةٍ واستمرار . إذا بالزوج الاله ينبعث ، ثم ينسل ، ويتجسّد له الاله « حورس » . بينما « اوزيرس » قد أُعْفِيَ من مهامه على الأرض ، وأصبح إله الموتى وحسب .

وكان الرعب من « سات » واعوانه ، مستولياً على جوارح « ايزيس » ، لا تدري أين تختبىء . اخيراً استقرّت في « الدلتا » ، بين المستنقعات ، الموضع الذي أُطلِق عليه لاحقاً

(كْهـامِّيسْ Khemmis) . هنـاك وضعت الـرضيـع « حـورس » واعـارتـه فـائق العنـايـة والحنـان ، إمتدادَ سنـوات صِـغَرِه ، ودرأت عنـه لسعـات العقـارب الشريـرة والـوحـوش الضارية . كانت مثال الأم الفضلى المتناهية انوثةً ووعياً وحناناً .

هناك في « الدلتا » كانت ترعى الخلقَ الأُمُ : « بوتـو » الهة الـدلتا . أمـا « حورس » فحـين بلغ الشباب ، تيقـظت في صدره الـرجولـة ، وثارت نـار الانتقام لأبيـه ، مقرونـة بمطامح عارمة للاستيلاء على العرش ، وقهر السفَّاح «ساتٍ » عمِّه .

وجد الجمهور المصري شعباً وكهنة ، حقاً شرعياً « لحورس » في استلام الملك ، كـما حفظ حقداً وكراهيةً للإله « سات » .

نـادى الشعب لنصرة الحق والعدالـة ، ولرفض الاجـرام ، وتقديـر الحب الـزوجي المتنـاهي استعاراً واخـلاصاً ، حيث رسم « لايـزيس » على كـل ثغـر ، ونَصب كـل عـين مصرّية ، عطفاً واكباراً ، شمل حتى المحاريب كافة » .

هـذه الخـرافـة . أحيت في النفـوس امـل العـودة للحيـاة ، وأن الموت ليس نهايـة الإنسان ، إذ يعقبُه بعث جديد .

وانتهت الأسـطورة بالحـروب الطاحنـة التي خاضهـا « حـورس » ضـد « سـات » . اشتركت في تقييمها الآلهة جمعاء . وشغلت المحاكم الالهية والمدنية ، ثم اسفـرت خلاصـة المراسيم ، عن استيلاء « حورس » على السلطان ، وتقدير الفضـائل التي جسّـدتها مـآسي هذه الأسطورة .

مهما تعددت وتنوعت في ظاهـرها أشكـال هذه الاسـطورة ، فان مضمـونها واحد ، ومغزاها واحدٌ على مـا تحمل من شـطحات خيـاليةٍ ، هي دائـماً قوام كـل اسطورة ؛ وهي المؤشّرُ إلى أن في الخلق عنصرين أبـديـين أزليين : عنصرَ الخـير وعنصرَ الشر ، ولن ينفكّـا يتصارعان .

الفصل السادس

معتقدات المدارس الكبرى وأبرز الكهان

لم تكن الأساطير الخرافية التي توارثتها الاجيال عن مصر القديمة ، الا صورة حية ممكنة التصديق ، في كثير من مواقفها ، لانها متوافقة مع الطبائع البشرية الملازمة لنفس الإنسان في كل العصور .

كانت عناية أولي الشأن في الكهنوت المصري ، صَبْغَ المعتقد بالروح الميتافيزية التي تنحدر احياناً حتى الاسفاف ، تتبعها السرّية الغامضة . لعلّ هناك سبباً مآلهُ الكسب السياسي ، أو أسباباً أعمق واسمى تعود إلى تقيّة أوجبتها السماء ، ذلك سرٌّ في المُبدع الأول ، اعيى كُنهُ مداركَ الإنسان .

وكانت المدارس الكهنوتية تعير بعض العناية للآلهة المحلية ، بينما تكرّس معظم عنايتها بكبار الآلهة التي ألمحنا إليها .

وهناك اسئلة كانت تتماوج في خواطر الواعين منها : أ ـ ما سرّ الخلق ، ب ـ من أين جاء المبدع الأول ، ج ـ هل هو خالق نفسه ، أم قدرة ما أبدعته . د ـ من أين تـأتّى له أن يبعث الحياة في الآلهة ، والكون ، والاحياء ، والجماد ؟

لم تحفظ الاحداث المتتالية على مصر ، وكرُّ الليالي ، إلا القليل من الهياكل المقدسة ، حيث كانت تقام بجوارها المدن الآهلة إلى اليوم . كل ما استخلصه علماء الاحافير والتاريخ ، أن المرجع الاسمى للاهوت المصري هو الثالوث .

لكن ليس هناك ثالوث واحد . هناك الثالوث المؤلف من : اوزيرس : (اله النبات) وايزيس (إلهة السماء ، التي ترمز إلى الأمومة) وحورس : (الاله الصقر ، ويعني الطفولةَ والبنوَّة) . وأخيراً كان في عهد الرعامسة مثلّث هو : أمون ، راع ، وبتاح الهٌ ذو ثلاث شخصيات : « رع » هو الرأس المفكر ، و « بتاح » الجسد ، « وأمون » هو عقله الباطن . في الديانة المصرية القديمة ثلاث مدارس كبرى ذات معتقدات متنوعة :

١ ـ العقيدة الهليوپوليتية : معادها إلى مدينة هليوپوليس « عين شمس » اعرق قواعد

مصر ، وأعمقها واسماها روحانية .

يقول « أدولف ارمان وهرمان رانسكة ان هليوپوليس هي اسم يوناني لمدينة « أون » وتعني مدينة الشمس ، اشتهر كهنتها بالحكمة والتبصُّر » .

تَعتبرُ هذه المدينة « أتون » هو المبدعَ الأول . أولُ خلقه كان هضبةً جلس عليها وأوجد المثلث : « شو ، تفنت وأتون » فكان قبل عهد الأسر الفرعونية ، في بلدة هليوپوليس . وفي أواخر الألف الخامس قبل الميلاد ، ارتقى هذا المثلث الالهي إلى التاسوع فأضيفت إليه السلطة الالهية : « جاب ونوت وأوزيس وأوزيرس وسات ونفتس » .

وأُقرّت السلطة الالهية بالوراثة شأن السلطان الزمني ، وكانت الفرعونية طوال ثلاثين أسرة متتابعة ابتداء من العام (٣٣٠٠) ق . م حتى (٣٤١) ق . م ، بدءاً بالاحتلال الفارسي لمصر . وكثيراً ما يحدث التباس بين الهٍ مُتجلّ أوْحدٍ ، وبين العقل الكلّي المُهيمن . ومردّ هذا اللّبس إلى المؤرخين المعاصرين في معظم المواقف .

كانت أولى المعتقدات السائدة عبادة : « الشمس رَعْ » مصهوراً في « أتون » حيث نتج عن هذا الصهر إله واحد .

٢ ـ العقيدة الهرموپولية : ليس الاله « رع » معبود « هرمُوبوليس » انما هو : « توت » (هرمس الهرامسة) . أحيى هذا الاله ثمانية آلهة ، من الوحول والرطوبة : أربعة افعوانات وأربع ضفادع (مؤنثة) ، فكان المحيط الأقدم (نون ونونت) وكان الظلام الذي عقبته « الشمس الوضاءة ، بعد أن كانت بيضة » في أيدي الآلهة الثمانية .

من هذه الشمس انبعث العالم : موالون لها ومعاندون . والاله « توت » هو المسيطر على الآلهة الثمانية المبدعين .

لعل هذا البعث المصري العريق في قِدمه ، يعيد لذاكرتنا ملامح الخلق في الشكل نفسه ، إذ بين الباطنية في الإسلام كالإسماعيلية والدرزية وقبلها الافلاطينية والهرمسية ذيوع عقيدة بعث الكون ، بعثاً مُتسلسلاً ، بعد اكتمال الابداع الأول : العقل الكلي ، الذي كان كل خلقٍ صورةً روحية في صميمه ، تجسدت بعدئذ في بعث ماديّ متتابع .

٣ ـ العقيدة المفيسيَّة: ظهرت هذه العقيدة في مطلع الأُسرة الثالثة (٢٧٢٠ ـ ٢٨٠٠) ق . م في مدينة ممفيس (مستوطن الفراعنة) . إلهها المفضل : « بتاح » الذي رفعه الفرعون إلى مصاف أكبر الآلهة .

أخذت هذه المدرسة عقيدتها مزيجاً من المدرستين السابقتين وكان « اتون » المميَّز . وكان بعض الآلهة أعضاءً لجسد « بتاح » مما يذكّرنا بالبرهمانية الأولى . حين أكمل المبدعُ خَلقَه ، وعرَّفهم بالحضارة ، أودع فيهم فكرة الـ : (Ka) والـ (همْسُوت Hamsout) القوى الحاسَّة لتجديد مساقي الحياة ومساقها معاً .

ما الآلهة المصرية ؟؟

سؤال يكثر ترداده ، ثم ماذا يعني به اللاهوت المصري ؟ الاله هو المبدع الأول ، أو هو شريك في الإبداع ، أو هو ذو صفة خاصة هي : الاهتمام بشؤون الناس : الزراعية والحربية والعلاجية والاخصاب وغيرها ، بمعنى أن هذا الاله هو الإنسان المتفوِّق في اختصاصه ، والمخلص لعائلته الإنسانية .

إن الاله والملك هما السلطتان البارزتان على الأرض ، وهما اللذان يحوي جسدهما الـ : « كا » . بما تتضمّن كلمة « كا » في المفهوم الكهنوتي والعام معاً . اختلف المؤلفون في تحديد معناها الصحيح . بعضهم وعلى رأسهم البحّاثة (Maspero ، مَسْپَارو) يرى فيها الجسد الاثيري الذي يعايش الجسد الماديّ وتتغلغل ضمنه منذ الولادة ، بواسطة مادة غير منظورة ولا هي مدركة بالحس .

لعل هذه الـ : « كا » هي ما تسميه المدارس الروحية المعاصرة بـ : « الهالَة » الخارجية أو هي الجسد الأثيري الملازم للماديّ قبل الوفاة . وقال سليمان مظهر : وحين تغادر الروح الجسد الحالي تكتسي جسداً أرقى وأرهف ، لا يفنى ، كثيرَ الشفافية هو : الـ « كا » . وباحثون آخرون يتقدمهم المؤرخ (آرمان Erman) يرون في الـ « كا » العنصرَ الضروري للحياة ، وهو في صميم كل انسان منذ عَرف الحياة .

بينما يرى المؤرخ المحقق (أ . مورَتْ ، A. Moret) أن الـ « كا » لا تتصل بالإنسان إلا بعد مفارقته الحياة ، وارتفاعه إلى مصاف الآلهة ، معتمداً بذلك على

النصـوص المصرية الكثـيرة التي تشير : (أنت يـا إنسان ستسعـد بالابـدية حـين ترافقـك الـ « كا » ولا تغادرك ابداً) .

أيـد هـذا التفسـير المؤرخ (بـروستـد ، Breosted) معتبـراً أن الـ « كـا » هي قـوة فائقة ، ولدت مع الإنسان ، ولا تخدمه إلا في العالم الثاني .

وقال « ارمان ورانسكي » أن الـ « كا » هو عنصر ثالث بين الجسـد والروح ، يـلازم الإنسـان في حياتـه ومماتـه ولهذا السبب تقـدم الاطعمة للمتـوفـين ، وقـد الحق الكهنـوت المصري وظائف متعددة « وكـاءات » متنوعـة الصقوهـا بالآلهـة والملوك ، منها : القـدرات والسِحـر والغنى ، والنبوغ والصحـة والنُبل . ومنـذ انبثاق التـطلعات المصريـة ، مـا كـان ليحوزَ على مرتبة الالوهة ، أي ملك ، إذا هـو لم يظفـر بكل الصفـات الالهية المؤهلة لهـذا المقام . وكما اتضح لنا ، فأن تلك الصفات قوامها : العدالة والحنان والتفوُّق .

ب ـ ما تعني الالوهية الموحدة ؟

منذ الدولة المصرية الأولى ، كان لدى ذلك الإنسان فكرة وجود « اله واحد » أوضح ذلك بالـدليل المؤرخ : (أ . دُريـوتون ، E. Drioton) وسمىّ الالـهَ بِـ : «اله العُقَـلاء » مقابل آلهة الكهنوت المتعددة . وكتابه هو : « كتاب الحكمة » . من آياته :

« لا تأخذ قدرتك الكبرياء ، فتسيءَ إلى الآخرين ، لأنك حـال تجرُّدك من الـرحمة ، تتعرض لغضب الله » . وعبارة اخرى تعني : « حين يخـون الإنسانَ تبصُّرُهُ ، ينفذ قضـاء الله ». ثُمَّ هـذه: « إذا كنت متواضعـاً واتَّبعت عاقـلاً، كل تصرُّفك يغـدو مُستحبـاً أمـام الله » . وأخيـراً : « دع سواك يستفـدْ مما تملك ، ذلـك هو الـواجب المترتب عليـك امـام الله » . الله في نظر التوحيد هو المثل الأعلى لكل ما هو خيرٌ وصالح . هو الُمعطي والحـافظ لكلّ رزق .

واعتـبرت المدارس التـوحيديـة الاله « حـور » هـو الـواحـد الأسمى . عـبَّرت عنـه نصوص « الأهرام بِـ : « هو بِغَير إسم ، إسمه في باطنـه » . انه : « الـروح الباطن » أنـه السَّرمديُّ هو : « المجهولُ الصُورةِ » المحجوبُ عن خلقه .

هذا التفكير الناتج انبثقَ مع : « أتون » وهو نفسه ذلك السرُّ الغامض . وقال بعض

الاخصائيين أن الإيمان بالوحدانية جاء مع الفكر البشري بـالغريـزة ، أو بإلهـام أعلى ، ولم توجد أدلّة أكثر توضيحاً ودقة . وعلى أيٍّ حال ، فان الحضـارة المصرية هي الأولى السَّبـاقة إلى التوحيد الصَّريح ، والرمزية الغامضة ، والباطنِ القدسيِّ الـذي لم ينبع عن رهبـة ، أو عن ضغط مادي أو روحي ، إنما هو خطٌّ روحانيٌّ سليم ، عبرَ متاهات الأجيال ، ولا يزال محضوناً لدى المذاهب الباطنية ، في العالم .

هل للعقائد المصرية كتاب مقدَّس ؟

ليس لِقُدامى المصريين أيُّ مرجع لاهوتي خاص ٍ شأنَ اليهودية والمسيحية والإسلام، لأن ديانتهم تقوم على الباطن . لذلك فان الروحانيات التي لم تتجسد بالكلام المأثور ، هي مدفونة في صدور الكهَّان . أما «كتاب الموتى» ونصوص «الأهرام» وكتاب الأبواب، وكتاب اَلليل والنهار » كلها، فتتناول الطقوس الجنائزية ومصير النفس، والعمل على إرضـاء الآلهة بحسن العمل ، والقربان والصلاة ، تجنباً من النار وأهوالها ، ووصولاً إلى عتبات الجنّـة ، حيث النعيم الـدائم . هذا مضمـون تلك الكتب المقدّسـة ، خلا مـا تُشير بـه في أكداس الصفحات إلى الآلهة وطرائفها ، وتمايزها ، مما لا يعني الروحانية الأصيلة في شيء .

السلطان الروحي للفرعون :

كل ملك في عُرف المصريين منذ الولادة هو إله ، إكتُسبَ هذا المقام بالوراثة . فكل ملك على مصر يعتبرونه إلهاً ، بينهم العـظيم والمُتواضع . وكلهم احفاد الإلـه « حورس » ابن « اوزيـرس » وقـاهـر « سـات » . ولم يمَنـع هؤلاء الملوك الـزواج من شقيقـاتهم أو من الأخـوات ، تثبيتاً لحقهم في المـيراث ، وفي تسلم سُدَّة الحكم . وفي اصـطحابـه لِلْـ « كا » التي تميِّزه عن العامة ، والتي تأتيه بأنواعها الأربعة عشرَ ، من الآلهات المربيات . بـواسطة الحليب ، يصبـح ملكاً شرعيـاً ذا سلطة زمنية عـامة ، وروحيـة متفاوتـة ، بقدر معـطياتـه وتفوُّقه .

واجبات الفرعون :

عليه أن يكمل واجبَين هامَّين : ما يتوجب عليه تجاه الناس وتجاه الآلهة .

أ ـ تجاه الناس : على الفرعون أن يستوحي العدالة من الالـه « رع » ليقوم بـأعمالـه

وتصرفاته بصدق وحق نحو الرفيع والوضيع على السوّاء . وهذا يعني أن عليه تبنّي مواصفات الإلهة « مَعَتْ » بدقّة وحزم وجرأة ، دونما مراعاة لأي سلطانٍ ، إزاء سلطان العدالة . وعدا هذا ، يتوجب عليه السهر على نشر السلام والاستقرار ، وتأمين متطلبات الحياة ، والسعي لدفع عجلة الحضارة والازدهار إلى أمام .

ب ـ أما تجاه الآلهة : فان كل ملك يَعتبر الإلهَ أباه أو هو ظل لهذا الإله على الأرض ، عليه الإقْتِداء به وتخطّيهِ في مناقبيّته ، وعليه محبته وطاعته وارضاؤه ، واقامة الحفلات الجنائزية واعداد ناووس يليق به ، وقربان وافر ، كزاد للرحلة . وأحياناً يقيم الملك لأبيه محراباً خاصاً به . والملك المتوفَّى عليه أن يقف أمام «ميزان العدالة » أي محكمة الآلهة ، فيُقاضى ، ويعود ليخلد وسيطاً بين الموتى وآلهتهم ، أملاً باعادتهم إلى الحياة الأرضية .

وإذا تطفّلنا بالسؤال عن موضع تلك المحكمة وعن مكان الموتى ، وأي اجساد يتلبّسون ، وهل هم أرواح بغير جسوم . كل ذلك غير موضّح في التاريخ القديم لمصر ولغيرها . لكن المدارس الروحية الحديثة تجيب عليه بِعلِميَّةٍ عصرية ووضوح . نجدُ هذا التفصيل في كتاب « نافذة على علم الروح الحديث » للمؤلف (سامي أبو شقرا) .

الفصل السابع

الإله أمون أمام التاريخ

كان إلهاً فاعلاً وعائلياً حتى السلالة الثانية عشرة . حيث استقطب الكهنةَ واتحد بالإله « رع » فغدا اسمُه « أمون رع » ومقّره الرئيسي « الكَرْنَك » وقد انتشرت عبادته طيلة ذلك العهد .

وبعد أن تمكّن امراء « طيبة » من حَدِّ الغزاة الأجانب في حوالي (١٥٨٠) ق . م تألق اسم (أمون) وبلغ أوج سلطانه ، ولُقب بـ : ملك المملكة الالهية . استمر تألقه حتى السلالة الثامنة عشرة . حيث طالعته نكسة دمرت سلطانه الواسع .

مسببات تلك الانتكاسة[1] :

أ ـ النفوذ العريض ، والثراء الفاحش الذي أخذ يتمتع به كهنة أمون إبّان مجده .

ب ـ الانفتاح على ديانات أخرى مجاورة ، خاصةً السورية منها ، لأغراض في الأصل سياسية واقتصادية .

ج ـ اضطرار الملوك ، مداراةً لفتوحهم الواسعة ، الاقتران بنساء غريبات الديار . في هذه الحال ، وجد الملكُ « امينوفيس الثاني » ، فرصةً لاتخاذ شعار الالهِ : أمون : (رَعْ أتون) دعماً للعقيدة والسلالة معاً ، وتوحيداً للبلاد ، بدءاً في تشييد محراب فيْ « طيبة » للإله « أتون » فاستعاد «أتون» مكانته الرفيعة بعد قليل . أما « أمون » فقد أخذ بالانحدار وانتهى بإحراق هيكله في « الكرنك » بأمر ملوكيّ . مَن هذا الملك ، ومِن أين استمدَّ تلك الجرأة ، وكيفَ ؟؟

انه امنوفيس الرابع الملقّب بـ : « أُخناتون » أي (روح أتون وخادمه) . أول عمل انجزه بناءُ مدينة بين « طيبة » وممفيس بديلاً عن « طيبة » سمّاها : « أُخناتون » أي أُفُق « أتون » تَبارُكاً بهِ . وبجانب المدينة شاد مدينة هي الأولى من نوعها : « للعُمّال » .

وكان « اخناتون » متواضعاً شعبياً مُسالماً إلى أقصى حدود الإنسانية الرفيعة . دعته الكتب السماوية الحاضرة بـ : « أخنوخ » واعتبرته الباطنية : امتداداً للروح « الهرمسيّة » . يظهره التاريخ العام ، زوجاً ورب عائلة ، وإسم زوجته : « نفرتيتي » الغريبة المولد . كان « اخناتون » شديد التعلق « بأتون » . اعتبرهُ الالَه الأحد ، والفرد ، الصمد . وجسّده بقرص الشمس ، المحيي لكل كائن . وانه القوة الخارقة الخفيّة ، التي خلقت الكون ونظمت مسيرته . وانه ازليٌ أبديٌ ، خيِّر ورحيم وأنيس . وقد عرَّفه العلامة (Laffont لافّون) قائلاً : « انه خالق نفسه بنفسه . ومنه انبعث (شو) إله الهواء و (تفنوت) إلهة الرطوبة ، واستمر انبعاث : الأرض والسماء حتى ايزيس واوزيريس وسات ونفتيس . وليس (أتون) الشمس نفسها ، انما هو الحرارة المحيية فيها ، هو ينبوع كل حياة بواسطة حرارة هذه الشمس ، وهو الاله الأحد ، ولا إله سواه ، ولا سلطان إزاء سلطانه » .

ويقول (ف . ل . غْريفِّتْ ، F. L. Griffith) : « ايها الموجد الذي لا مُوجِدَ له

ـ أيها الواحد الأحد الذي يطوي الأبـد ـ حين تشرق في البكـور ، تتفتّح العيـون لأشعتك ، وحين تغيب وراء الجبال الغربية ، يغشى النومِ البرايا كأنهم موتى ، أنت الأم البارة لـلآلهة ، والبشر ، والـراعي ذو القوة والبـأس ـ يا من يَصـدرُ البشر عن عينيه ، والآلهـة عن فمه ـ يـا مُنبت الكلأ للماشية « . . سبحانك بارىء البرايا كافة ، البارّ برعيّته يتحرّى لهم الخير » .

ويروي (Griffith) نفسه ، عن (أخناتون) انه تبوّأ العـرش في الحاديـةَ عشرة من عمره . ومن القابه المتداولة : الحيّ في الحق . كان في منتهى البساطة بعيشه ، والاستقامة بأعماله . وكانت عقيدته نبذَ التقاليد القديمة ومعتقداتها . وربما بولغ في تشويه صورته ، لِما أتى من بِـدَع على عصره . اتّخـذ رمزَهُ : لأتـون ، بقرص الشمس ، متـدليةً من حـافّتهِ : أفعى (كـوبرا) ، وتنتهي الاشعّـة إلى اكفّ آدميّة . خـطّط مدينـة (أخناتـون) في السنـة السادسة من حكمه . وقد عثر على تسبيحة ، تُمجِّد آتـون في مقابـرَ عدَّة ، يـرجّح انها من نظمه بنفسه . تقول التسبيحة :

« انت أَفَضْتَ على القطرَين حبَّك وبرّك ، يا صاحب الأمر . . يا فاطر كل أرض بما عليها : بشراً وانعاماً . . أنت يا من جمعت الدنيا ووحّدتها فلا مِيزةَ لمصريٍّ عـلى سوريّ أو سواه . . الحمد لك الذي ادخلتني في عداد المقرَّبين إليك » .

ولأخنـاتون تسبيحـة موجـزة تقـول : « إجعلني (لأتـون) استقـر في مقـام الأبـد ، وأبلغني كهف البقـاء ووفّقني إلى مفـارقـة مسكني ، ودخـول مثـواي ، دون أن تُعيق نفسي شهواتُها » . لقد نادى اخناتون بجرأة وصراحة ، بوجود الهٍ واحد أحد . وكان يعتـبر نفسه بشراً كسائر الناس . بعد هذا المَلِك بقرون ستة ، ظهر التوحيـد اليهودي بلسـان موسى . وشبهوا الاله بالبشر (العهد القديم) .

رفض اخنـاتون عبـادة كل الـهٍ خلا (أتـون) ، حتى « أوزيـرس » نفسـه ، المعبـود المفضل ، الذي أوشك اسمه أن يتلاشى كسائر اسماء الآلهة العظام السابقين .

أما مُقاضـاة الموتى ، ذلـك المبدأ المتـأصّل في أذهـان المصريين ، فقـد أُلغي مُستبدلاً بِـ : تحقيق العدالة . أثبتت ذلك مخطوطات « العَمارنة » المكتشفة حديثاً .

ومـع الأسف ، فـان ذلـك الـزمن البعيـد أبى عـلى المصـريِّ أن يهضم معتقـدات

وتصرفات ، هي اسمى من مداركه ، وتعلو حواسه البشرية ، وتنافي طقوسه ، وتقضي على كثير من مكتسباته الاستعمارية والاستغلالية . « أخناتون » ذلك الملك الإنسان الأفضل ، الذي رفض بإصرارٍ تعدُّدَ الآلهة ، وإسفافها ، وأُبَّهة الملك ، والإقفال على المقدَّسات ، في محاريب معتّمة منعزلة ، واستذْآبِ الكَهَنة وإغراآتهم بالسِحر والتعزيم ، والتجنيد للفتح والاستعمار والقهر والتجويع ، ذلك الرفض الجريء الحازم ، كان السبب الوحيد لوشوك أفول ذلك الكوكب الساطع ، في تلك الدجنّة الطغياء .

من كانت أخصام « أخناتون » ؟ أولئك الذين افقدهم تلك المكتسبات . . هو السواد الأعظم في البلاد ، على رأسهم كهنة أمون .

وقضى أخناتون قبل أن تفارقه بسمة الشباب ، بعد حكم لم يزد على أربع سنوات ، مسلّماً زمام الأمر إلى صهره المخلص : (توت عنخاتون) . لكن هذا الملك ، على تمسُّكه بعقيدة سلفه ، كانت تنقصه القدرة على مصارعة انواء الباطل ، التي دفعتها رياح « كهنة أمون » ، المتربِّصون بحقدٍ مستعر ، واستشراءِ النّمار الجياع . وقد سلبوا حتى اسمه فنادوا به بـ : (توت عنخامون) . على تلك الصخرة تكسَّرت ذرات ذلك الضّياء الدافىء ، وانطفأ المشعال الذي زرع في عيون الأجيال البائدة ، قبل أن تنبسط أيدي الأنبياء ، زرع « التوحيد » والمساواة ، والرحمة ، واقتلاع نيوب الاستغلال والاستعمار ، وكسر الاغلال عن كل فكر طليق متحرِّر ، وإبطال الحروب .

ان مآثر « اخناتون » وناووس « أختاتون » هي من كرائم كنوز التاريخ ، هي اليتيمة الفريدة ، في تاج الحضارة المصرية القديمة . قال فيه المؤرخ (برستد) : « انه محَرر العقل البشري من جميع قيوده القديمة . لم يبتدع عبادة آتون بل سبقه إليها (جحوتي هرمس : أمحوتب) وزير الفرعون (زوسرَ) » .

أما المؤرّخ (أرْنستْ داودالْ Ernest Daodal) في كتابه « توت عنخمون صفحة (٢٧) فانه ابدى تحاملاً وتجنِّياً عنيفاً على اخناتون : « أسماه : مِسخاً ، كما اعتبره مُشَوَّهاً ، معتدياً على كُهان أمون ، ومخرباً للهياكل ، نادى بإلهٍ ما شوهد له مثيل في العالم ، هو : القوة المحيية في حرارة الشمس » .

لا أحسب القارىء يجهل أيها المِسخ امام الحقائق التاريخية : أهو اخناتون ، ذلك

العملاق الإنسانيّ ، أم هو « Daodal » نفسه ، الذي فاتته نزوات الاصلاح والدعوة للصلاح ، وكلها يحتِّم تخريب الهياكل وشلَّ ألسنة وأيدي الكَهنة المستأثرين المتغطرسين . هل ذلك عملُ « مِسخٍ » أم ثورةُ مصلح جبَّار ؟؟ .

كان عهد اخناتون خاتمة ازدهار العقائد المصرية . لم تَشأ الكَهنة أن تتنازل عن سلطانها لأي ملك . هي التي تولي الملك السلطة ، وهي التي ترعاه ، وهي التي استلبت قنصاً تاج فرعون وحملت اسم : « الملك الكاهن » ولولا هذا ، لما كان ملكٌ لمصر ، ولكانت انقرضت الدولة منذ ذلك التاريخ . فأمراء « سيواس » حكموا مصر منذ السلالةِ الرابعة والعشرين إلى الثلاثين . حتى خلال الفتح الفارسي عام (٥٣٥) ق . م ، طيلة ثلاثة قرون ونصف تقريباً من حكم الامراء ، كان الاله المفضّل : الثور (أبيس) ولدى الاحتلال الفارسي ، استمرت لِـ « أبيس » عظمته وقداسته ، حين نَحَتَ له « قمبيز » ملكُ فارس ناووساً فخماً ، في « ممفيس » وأعاره كل القداسة ، تمويهاً على الشعب المستعمَر (بمصر) .

وفترة الاحتلال اليوناني عام (٣٣٢) ق . م وكذلك الروماني ، إستعادت الآلهة المصرية الكبرى ، إعتبارَها كاملاً ، واتخذ لها المحتلُّون اسماء مغايرة .

أبرز تلك الآلهة كان : « توت » الملقب (بهرمس الهرامسة) المثلث بالعَظمة ، واله الحكمة ، ومُرافقهُ الكاتب الحكيم « پاتوزيرِسْ » . وكان « اوزيرس أبيس وايزس » المعادلة لِـ « حاتور » و « أفروديت » لُقِّبت بِـ « الجوهر الجميل للآلهة » . وقدَّم لها الرومانُ كل تقديس مع « سارابيس » حتى ظهور المسيحيَّة .

القيم الاخلاقية في الديانات المصرية :

١ ـ ما أوضحناهُ سابقاً يصل بنا إلى إيجاز تلك القيم قدر المستطاع بِـ :

أ ـ المتوفَّى ، يُدان على الكذب ، والسرقة ، والقتل . ومنذ المملكة الأولى كان واجباً على الفرد معاملة جاره بالحسنى ، وعدم تحقيره ، والتواضع في تصرُّفه ، وحُسن معاملة المرأة : باعتبارها الحقل الصالح للإثمار .

ب ـ مع تقدير الأشراف الحكماء ، وممارسة الأعمال الخَيِّرة ، والإيمان بالإله الحميم :

الإله المتواجد في صميم الإنسان ، انه الضمير ، « ألهوَ الأعلى » . كان هذا إيمـان الممالِـك الغابرة . أما المملكة الحديثة فقد تسامت فيها القيم وتبلورت وازدادت وضوحاً .

ج ـ نشهد هذا الوضوح في نصـوص الكاتب الحكيم : أُنِيي (Anii) . من كـلامه في مراعاة الامومة : « كُنْ سخياً على أمك ، وزِنْ لها ما وزنت لك . كم معـاناة صـدمتها من أجلك ، منذ ولادتك ، وفي طفولتك ، استمرت تغدق عليك من البان صدرها ثلاث سنـوات . لم تقـل مـرة : لمـاذا تضحيتي هـذه : كـانت عينهـا ابـداً في رعـايتـك وضـمان سعادتك . حاذرْ أن تجعلها ترفع ساعديهـا للإلـه شكوىً عليـك . . فَصَلاتُهـا مقبولـة عند الإله » .

وهذا نصٌّ مؤدّاه :

« لم أُلطّخ ابداً فمي في خدش مشاعر من كان يخـدشني » و : « يَحْسُن بنا أن نبـارك القريب الذي أذانا ، مِن أن نسوق له ذرَّة أذيَّة » .

.تلك هي القيم التي أُلقي بذورَها في صدور المصريين القدامى « أتون » وسقـاها من حكمته « هرمس » ونفخ فيها بـأقطار الأرض « أخنـاتون » ومـا اضمحلت ممالِـكُ هؤلاء . انها متواصلة التجدُّد والتجسد إلى آخر الزمان ، وأن صداها أشد ما كان داوياً في المسيحية الأُولى ، وقبلها في بعض انبياء اليهود الصالحين .

السِحر لدى المصريين :

كان السحر شـائعاً وعميق الأثـر في نفوس المصريـين ، من أكبر آلهتهم حتى أُصغـر فلاح فيهم . كانوا يتعاطـونه ظنـاً انه القـدرة السماويـة الخفيَّة التي تسـيِّر الأقدار . فـالآلهة يمارسونه لدرء المخـاطر عنهم ، من الآلهـة الشريرة ، مسببّـة الكوارث . كـان إله السِحـر [illegible] تيت » (هـرمس الـه الحكمـة) وكـانت « بقـرة السـماء » همـا اللّذَين يستجيبـان [illegible] .

يلوذ الشعب بـالسِحر ، حـين يفاجئـه عدوٌ أو مكـروه : شرّيـر ، لسعـة عقـرب ، مرض ، قحل هزة أرضية ، فيضان . أما الكهنة فكانوا هم أرباب السحر الأعم ، وكانوا يتعاطونه بأشكال وأساليب ، وأدوات منوّعة . وكانت للسحر ساعات مفضَّلة من اليـوم ،

كما كان لكل اله يُبتهل اليه ، يومُهُ الخاص . والملوك أنفسهم يأنسون جداً بتوصيات السَحَرة .

في كل مركز ديني رئيسي ، مكان يحوي « بيت الحياة » . هذا البيت يضم الفلاسفة والاطباء ، والعُلماء والفنانين والسحَرة . أشهر هذه البيوت في « العمارنة » . ومن السحر ما هو حلال صادق ، ومنه للكسب والتضليل .

وصل تقدير المصريين للسحر والرُّقى لحدٍّ صنعهم تماثيل صغيرة من الحجارة الكريمة . وعلَّقوا على صدورهم تمائم من الذهب : كلٌ قدر وسعه . وأبرز أثر في النفوس يبقى : المعتقد التوحيدي العائد إلى : [أُتون ـ هرمس و (أخناتون ، أخنوخ)].

ميزة هذه العقيدة :

كانت الهياكل الشمسية هي الأعم والأفخم والأقدس منذ بدء الحضارة المصرية . اقامها « أتون » متواضعة ، منعزلة عن الجَلَبة ، مفتوحة للهواء الطلق . وكان المعتقد السائد يومذاك ، بان المبدع الأول خلق في البدء صخرة « بن بن ، Ben Ben » حولها قامت مدينة « هليوپوليس » .

وكانت بعدئذ حول الهياكل مسلّات من الحجر المنحوت ، يتراوح ارتفاعها وفخامتها حسب حجم الهيكل . وللمسلّة تصميم دقيق ، حيث يُلبِّسون القسم الأعلى منها بالذهب ، فيتلألأ عند إطلالة الشمس . وفي عهد « اخناتون » بعد ازالته كل الطقوس الشائبة من الديانات المتَّبعة ، كان يصرِّح للشعب : « السماء هي هيكلك » وكانت هذه هي احدى انتفاضات الملك المتجدِّد : عقائدياً واجتماعياً. ذلك التجدد والانفلات من المراسيم والفرائض ، يذكرنا بانطلاقة الصوفية الاسلامية ، ومنها « إبن عربي والبسطامي ، وجماعةُ الصليب الورديّ والغَنوصيُّون وغيرهم .

أين تنتهي الحياة ، في المعتقد المصري ؟

المصريون هُم : أول من نادى بجلاء وتركيز على خُلودِ الروح ، وأول من حذَّر من ارتكاب المعاصي التي تسبب للمتوفى الفناء بعد الموت ، أو ولوج جحيم رهيب ، وأول من تخيَّل محكمةً للموتى تحاسب على الأعمال ، وتقرر البقاء السرمدي في السماء ، للطيبين

والأخيار ، وأول من أبطل نهائياً تقديم الذبائح من بَني الإنسان . أما محكمة الآلهة فما فاتنا ذكرها سابقاً ، لقد اقرَّها وفصَّلها « كتابُ الموتى » في الفصل الثلاثين معتبراً « رع » الإلـهَ الحَكَم ، و « مَعَت » رمز « الصدق والعدالة ، تستقبل المتوفَّى اولاً . انها مثقال كفَّة ميزان العدل . وبعد المقاضاة ، تدرج كل نفس في الطريق الذي رسمته لنفسها قبل الوفاة : ولِمَعَتْ ميِّزات اسهب في تفصيلها المؤرخون . هذه العقيدة لم تتعرَّض لما عاد يسمَّى : (بالتقمص) ، بمعناه الشامل . انها مرحلة على طريق تكامُلِ مفاهيمه .

فالمصري القديم يتأكد من انه سيلاقي حسابه ، وسيقف امام قُضاة عدول ، يحاسبونه على السراء والضَّراء ، كذلك غدت هذه العقيدة ، زِماماً لجوامح النفوس ، واشعلت نبراس الرجاء في كل انسان ، رجاء خلوده ومصيره الارفهِ والأبقى ، حيث قد يمسي الهاً في السماء . واولئك المجرمون المخرِّبون ، لن تطالهم رحمة ، يقاسون شتّى أنواع العذاب الجسدي والحرمان . يطلق على هؤلاء بالضبط اسم : « المُعانِدون » .

إذاً فان عقيدة « أتون » تشمل الاله الفرد الصمد ، الذي أبى أن يُصنَع له تمثال ، وتقام احتفالات وتقَّدم قرابين ، عدا الالتزام بالصدق والخير العام . وانها تُظهر التقمُّص بخلود الروح البشريّة ، وتضمّ مُعاونين بَرَرةً لِمنهج « اتون » منهم « هرمس » المثلث بالعظمة ، وتضم المحاسبة على الأعمال بإشراف « مَعَتْ » ربة الصدق والعدالة . وبعد ذلك فان لكهنتها الابرار كتاب يدعى : « كتاب الحِكمة » واسم الاشرار لديهم : « المعاندون » . وتعريف الكلمات وتعريبها حرفيٌّ ، وعلى كثير من المطابقة بالباطن التوحيدي المعاصر :

إلى أي جوٍّ عقائديٍّ تسير بنا هذه التصريحات ؟؟ أليست تلك العقيدة جذوراً لدوحة التوحيد التي عايشت الأديان السماوية ، وغرست في تربتها أنبل فسائل الإنسانية . فكان منها باطن الديانات السماوية : لا زخارف فيه ولا تمويهٌ وتكاليف ، ولا ارستوقراطيةَ كهنوت .

مَن ظفر بالتعرف إلى عُمق الباطن تَحسس أخوّة الأرحام بين ذاك وهذا المعتقد المتواضع . وإلى القارىء الكريم لمحة عجلى حول هذا الباطن الرازح تحت أعباء الشكوك والافتراءات :

الفصل الثامن

الباطنية في مصر

تقضي الامانة للعلم والتاريخ أن نُلمح ، ولو لِماما إلى كل نافلة ذات صلة ، ولو واهِيَةٍ ، بأي بحث نتناوله . وقد اسعدنا البحثُ على مؤلف يسمّى « كبار العارفين » ، بالفرنسية « les grands Initie´s» لمؤلفه الباحث (Ed. Schure´أدوار شُوره) درس فيه بعمق وتحقيق ، سبعةً من كبار « العارفين » منذ فجر التاريخ بدءاً بـ (راما) وإنتهاءً بـ(يسوع) .

ثبّت المؤلف محور بحوثه حول باطن الأديان الكبرى مشيراً إلى أن لكل دين باطناً ، يحمل دُرَّة ذلك الدين وزُبدته ، واننا توخياً لاجتلاء المعرفة ، وتوضيح العديد من الملابسات لذلك الباطن العام ، نُدرج موجزين آراء هذا الباحث الجريء ، في الفصل المناسب تاريخياً لكل عارفٍ نتَناوَلُه . قال في مقدِّمته : « لكل دين تاريخ باطن وآخر ظاهر . اما الباطن فهو معرفة ما تكنُه الأشياء ، وما يحمله وجدان الإ[illegible] في أعماقه » .

عقب العارفَ الخطير (كريشنا) بـ (٢٤٠٠) سنة ق . م (البوذا) البصيرُ . فجاء بثورة اجتماعية واخلاقية على الديانة البرهمانية ، رغم تقارب ميتافيزياء الديانتين . كذلك حدث على شاطىء النيل ، في منبثق الأسرة الفرعونية الأولى ، لدى ظهور أول عملاقٍ للفكر الديني التوحيدي (رَعْ أتون) وتلاه اتباعه (هرمس الهرامسة) الملقب بـ (المحوتب به) ثم (أخناتون) أقدم منار للسلام والتآخي . وتوارثت الديانات السماوية في عرفنا ، هذا الباطن ومـا تزال . كانت الأسِّينِيةُ والكبَّاليةُ في العهد الاسرائيلي ، كما كان انجيل يوحنا المعمدان مفتاحاً للتعاليم الرفيعة الحميمةِ ، للسيد المسيح . .

وأوضح المؤلف بجلاء وحزم : « ان تعاليم هؤلاء العارفين الباطنيين هي نفسها تقريباً. تناقلتها الأزمنة منذ آلاف السنين . وقال بلسان الفليسوف (ليبزنغ Leibniz) : «هناك نوع من فلسفة أبدِّية هي هذه : « الله هو : العقل الأصفى ، والروح خالدة أبداً ، وفي تقمُّصها دليلٌ على التطوُّر المُستمرِّ » .

ولكي يؤكد هذا المؤلف ، ما للفكر الباطنيِّ من إيغالٍ في تُربة التاريخ ، اعتمد

بعض فقراتٍ من كتاب الموتى ، المؤلَّف من صفحات من الحجر ، واستنار بأقوال كبار الانتربولوجيين والمؤرخين أمثال (كمبوليون Campollion) في مؤلَّفه : مصر الفرعونية ، و (Paul Pierret . پول پيارًا) في : كتاب الموتى (ومَسْپرو Maspero) في : التاريخ القديم للشعوب الشرقية ، فاستشفّ من كل هذا : « ان الباطنية في مصر ، هي قبل الألف الخامس (ق . م) ، وأن مصر كانت قلعةً لِمرهفي النفوس وأصحاب العقيدة الرفيعة الباطنية ، بل كانت المحور ، للبشر أجمع » .

وكانت من ادلّة هذا المؤرخ على صِحَّة قوله : قِدم أبي الهول في الجيزة ، الذي تَمّ اكتشافُه في الألف الثالث قبل الميلاد ، مغموراً بِرمال الصحراء ؛ ويعيد ترسيخَهُ كثيرٌ من المؤرّخين إلى عصور الجنس الأحمر ، الذي كان المهيمن على الأرض ، في الزمن السحيق . وقد كان حيوان رمزيٌّ مربعٌ جاثماً على قِمّته ، وهذا الحيوان يمثّل : رأس انسان خارجاً من جسد ثور ، ذي مخالب أسد ، وجناحي نسر يُستِّرانِ فَخذَيْهِ . هذا التمثال يشير إلى رمزية باطنية عَفَت مع الأجيال . لكن (هرمس الهرامسة) الذي احتضنه الألف الثالث لما قبل الميلاد . هتف بلسانهِ الطبيب (أسْكْلييوس Asklépios) : « إيه يا مصر ، لم تحتفظ خزانة الدهر منكِ ، غيرَ الخرافات ، ولم يبقَ من جليل آثارك الا الكلام المنقوش على الحجر » .

وقال الباحث (م . ماسْپارو M. Maspéro) نقلاً عن (Ed. Schuré) : « ان المذهب العرفاني السرّي ، هو التوحيد ، منذ الأسرة الفرعونية الأولى ، وإنَّ الواحد موجود بجوهره ، وصفاته هي : الرحابة ، والابدية ، والاستقلالية ، والارادة الخلّاقة . (عن التاريخ القديم لشعوب الشرق) .

ويتابع المؤرخ (Schuré) : « اكتشف الانتربولوجيون مؤخراً بين آثار (هرموپوليس) صفيحة من المرمر الصقيل محفوراً عليها باللون الأزرق ، وموضوعة بين قَدَمي تمثال (هرمس) هذه العبارات عن (كتاب الموتى) » : في نقلة النفس بعد الوفاة تمرّ بمنطقة شديدة الحرّ ، تكفيراً عنها ، ثم تقف أمام اثنين واربعين قاضياً ، على رأسهم (هرمس) ، وأخيراً تدخل في جسد (اوزيرس) النوراني . وأما (إيزيس) فتحت تمثالها نُقش : « ليس من بَشريٍ قادراً على هتكِ حجابي » .

كل هذا ، تأكيدٌ على قِدَم الباطنية . ولكي نتغلغل في جوارح هذا المعتقد العالمي

العريق ، علينا بالتزام ما يلي : ١ ـ طهارة القلب ٢ ـ صدق اللسان ٣ ـ الزهد في بهارج الحياة . كما يتوجب الإيمان ، بأن كل حيّ ميت ، وأن لا مفرَّ من محاسبة النفس البشرية ، على ما أسلفتْ من أعمال . ذلك ما كان يدعو له العارف العظيم (هرمس) الذي لقّبه اليونانيون لاحقاً : بالمثلث في التعظيم ، وبإله الحكمة . وله رؤيا رمزية الاحرف استدل منها العلماء، على أنها تاريخ أبديّ للعالم ، وانها دائرة الأشياء ، وهذا موجزها : « أحسّ هرمس » ، في عميق رقاده بنورٍ لطيف يدعوه ، انه (اوزيرس) الذي أراه تألق العقل الالهي ، وفيه صور لكل المخلوقات . طلب منه هرمس أن يوضح له سرّ الحياة والموت ، ومن أين يأتي وإلى أين يعود الإنسان ، أوزيرس أراه سماواتٍ سبعاً هو في وسطها . في كل سماء شعاعٌ هو الوعي النابهُ ، الصادر عن الكلمة النورانية ، والمهيمن على سمائه الخاصة . (القمر) هو الأقرب ، وسلطانه على المواليد والموتى حيث يرفع نفوسهم بنوره عالياً إلى (عطارد) . هناك بعض النفوس يهبط والآخر يصعد إلى (الزهرة) حاملاً مرآة الحب . وتليه الشمس حيث الجمال الأبدي . ومن الناحية المقابلة (المريخ) وبيده سيف العدالة ، ثم (المشتري) ملوِّحاً بصولجان العظمة الفائقة التي هي : **العقل الالهي** ، وأخيراً (زُحَل) الذي يُقِلُّ : **الحكمة الكلّية** .

هذه الأشعة الإلهية لها في المعتقدات المصرية الفرعونية اسماء متنوعة ، ولكّن المغازي هي نفسها . رأى هرمس العالَمين : المَرئيَّ والغامِضَ ، وظلّ مُصغياً لِـ (أوزيرس) : « ان ما تراه بخاراً متساقطاً من أعلى المَجرّة هو أرواح العباد . تَحيا قريرة في (زحل) . ولدى تساقط هذه الأرواح تزداد كثافةً إلى حدّ انها تنسى اصلها النوراني السماوي . هكذا تهبط إلينا النفوس من الأثير الالهي حيث تتأرجح بين : شقاء وحبّ وموت » . وتابع (اوزيرس) : «أترى هذه النفوس التي تحاول الصعود للنور ، كيف ينكفىء بعضها ويصعد الآخر ، حيث يستمر في دورانه النجمي ، هناك يتكّشف لها السّر الالهي وتشعر بالألوهة في أحشائها » .

تحيا الأنفس الصالحة في مدار الشمس ، والأصلح منها تتجاوز (زحل) والقليل النادر من الأنفس يجاور الأب السماوي ، حيث ينتهي كل شيء ، ثم كل شيء يعود على مدار الزمن . وانهى (اوزيرس) خطابه بالتعليمات التالية :

١ ـ لا تضادَّ في الوجود : الظاهر كالباطن والصغير كالكبير والأبيض كالأسود . في شريعة الله ، كل شيء مُتساوٍ .

٢ ـ البشر هم آلهة يُقدَّر لها الموت ، والآلهة بشر سرمديُّ البقاء . ما اسعد من يتفهَّم هذا الكلام .

٣ ـ النفس البشرية شعاع طائرٌ ، حين تهمله ، يضؤل وينطفىء ، وان أنت غَذَوته بزيت الحب المقدَّس ، تألق نبراساً كلياً وقَّاداً .

كل هذهِ ، بيِّناتٌ عن قِدم عقيدة وَحدةِ الوجود التي نادت بها البرهمانية والهندوكية الحديثة وبيِّنات كذلك على عراقة الباطنية في التاريخ الحضاري .

وبعد فتوح الاسكندر ووفاته ، أقام (بطليموس) في الاسكندرية معبداً اسماه : (السرابيوم) للإلهة (ايزيس) ، وانتشرت بواسطة التجارة مع الاغريق فكرة عبادة ايزيس ، معتبرين انها هي نفسها (ديمتر) وان (أوزيرس) هو (ديونيسوس) و (حارس) هو (أبولّو) . وكلها آعتُبرت من النَّفَس الفيتاغوري . وكان بين أشياع (ايزيس) في اليونان رئيس ديني على مِثال (البابا) المسيحي .

وفي العام (٣٩١) للميلاد ، احرق بطريق الاسكندرية : (توفيلس) معبد (السرابيوم) هذا ، قاضياً على عقيدته ، اعتماداً على تصريح المؤرخ :(روفْينيس ، Rufinis)

اخناتون (امنحوتب الرابع أو عمنوفيس الرابع هو نفسه)

(١٣٧٢ - ١٣٥٤)

ولد في عصر طغى عليه التنازع الديني والسياسي ، وكان مطلعه ، في وجهه البشع وقامته المشوَّهة ، مطلع الفجر على الضالين في عميق الصحاري . أقر عبادة دين ربُّه المتجلي : (اتوم أو أتون) . كانت عبادة أتون للقوة الكامنة وراء الشمس ، لا للشمس نفسها ، حذا سَلَفَهُ الأقدم (أمحوتيب) أو (هرمس) ونسف كل تقاليد الكهان الأمونيِّين مشرعاً أبواب الهياكل لنور الشمس. رفع المِسلَّات المشيرة إلى وحدانية الله ، وبنى مدينة بجوار (طيبة) أسماها : (أختاتون) وهي اليوم : (تل العمارنة) . أما العبادة في عهده فكانت توجُّهُ مباشرةً لله ، لا للتماثيل القائمة قبل سلطانه الذي دمَّرها . المرجع (سيرج سونيرون) كُهان مصر القديمة . ص (٢٠٠) وما بعدها.

قال الاستاذ محمد أبو سمرا (المقاصد = شهر بعد شهر = سنة ٩٨٤ : « هذا الملك ذو الشكل الغريب والقناع الحزين ، هو الملك الصوفي الذي آمن بالتوحيد الإلهي وحمل أسم (اخناتون) . » وحسب هذا الملك المتصوف تعريفاً بعمق روحانيته وصدق وحدانيَّةِ خالقه ما خلّف من رائع الأدب شعراً ، تناقلهُ المتصوِّفون عبر مصر : بعد أن خبا نبراسه بأزمنه . كان كل شعره تمجيداً بالواحد الأحد (أتون) ويعظيم قدرته ، وفائق جماله ، وروعة مبدعاته ، طبيعةً وبشراً . رافضاً طيلة سلطته كل أنواع المشاحنات والحروب ، متمادياً في تصوفه الهادىء ، الهادف لبناء حضارة فنٍ قائم على الحب والروحانية الرفيعة.

لذا قد اتخذته الصوفية والباطن العالمي : نبراس الطريق ، وهو فيهم أحد تقمصات (النفس الكلية، وهرمس وإدريس) وكانت زوجته (نفرتيتي) الشرقية الأبوين تضاهيه اخلاصاً لمذهب التوحيد وترقّي الشعب . والتوحيد هو وحدانية الله وأحديته وتنزيه بهذه العبارة عَرَّفه : تيَّار دي شاردن : « انه الموجود المنزَّه . » أما الدكتور (جايمس براستد) فقد ألقى نظرةً عميقة على هذا الملك الشاب ، من خلال قصائده ومآثره إذ قال في مؤلفه : (العصور القديمة) ترجمة داود قربان عام (١٩٢٦) : « . . هناك إلـهُ واحد خالق للكون ، وهو الأب لمخلوقاته . . . ولم يذكر أحد قبله هذا التعريف الصريح لله . » وأكثر توضيحاً ننقل عن (كوليك) قوله : سألت المؤلف الالماني (إيريش فون دنيكن) الذائع الشهرة عما سيؤلّف بعد قال : « عليَّ أن أتناول حياة (أخناتون) . ذلك الملك النبي . . . كان هذا الملك يملك من العلم والحكمة ما لا يعرفه أحد ، وكان على صِلةٍ بسكّان كواكب أخرى . هذا يقيني ، وسوف أثبت ذلك . » المرجع (أنيس منصور - الذين عادوا إلى السماء) اثبته الباحث سعيد ملاعب في مؤلفه (حضارة الحكمة الحكماء عام (١٩٨٥) ص (٨٤) ج ٢ .

من يمعن في قراءة مئات القصائد التي نظمها أخناتون ، ويتحقق من تصرفاته اليومية ، الخاصة والعامة ، ومن بُعد بصيرته في عمق روحانية قوامها : (توحيد - تجلٍّ - صدق - تَقَشُّف - نبذ سفك الدماء والفتوح) من يمعن بذلك ، يدرك قيمة هذا الملك المغبون في التاريخ القديم وبخاصةٍ عربياً .

ولمزيد التأكيد على عريق الباطن في المعتقدات الروحية المصرية القديمة ، نقف لاحقاً

موجزين حقيقة العملاقَين الباطِنيَّين : هرمس المثلَّث بالعظمة وأخناتون أعرق شعراء التوحيد :

هرمس الهرامسة

نقل لنا التاريخ أسماءً عدةً لهرمس ، ظهرت هنا وهناك ، والذي نعنيهِ هو هرمس وزير الفرعون (زوسر) وهو المهندس والفيلسوف والنبي . تحدَّث عنه وأطال الاستاذ « أحمد سَبانو » السوري المولد في مؤلفه : « هرمس الحكيم » أغدق عليه لفيفٌ كبير من الشعوب والمؤرخين القاباً إلهية مختلفة ، واعتبروه أول مكتشف للنار ، وأول من نقر على القيتار ، فهزَّ مشاعر الإنسان ، حتى انتقل صدى أوتاره إلى أرواح الشعراء : « ميلتون وشللي » البريطانيين .« Dictionary of classical Myth Zimmerman (1980) »

وزادت في توضيح « هرمس » دائرة المعارف المصرية ، الجزء العاشر ، (محمد فريد وجدي) . يذكر تاريخ الفرسَ القديمة أن هرمس هو نفسه (كيومرت) ونفسه آدم ، واعتبرته الديانة المصرية (توت Thot) وجد قبل الطوفان ، ورفعَتْهُ الميثولوجيا اليونانية إلى مصاف الآلهة : واليوم آمن به التوحيد الباطني : حدّاً ثانياً لعقيدتهم القائمة في الاسلام : (الدرزيّة) . كذلك كانت جماعة من المتصوِّفين تزيد غُلواً في شأنه ، مُتخِّذة من وَحْيِهِ مذهباً بسمى بـ « الهِرمسيّة » . لهرمس كتب كثيرة في فنون عِدَّة منها كتاب : (زَجْرُ النفس) . مضمونه دفع النفس إلى التخلي عن مباهج الدنيا والانسياق في تيار الشهوات الرخيصة ؛ للمُثابرة على اقتباس المعارف الروحية لتصفية النفس ، ولمعرفتها لخالقها ، ولِسَبرها الحقيقة بواسطة العقل : أشرف المخلوقات ، وأصدق دالٍ على مرشدٍ إلى محجَّة الكمال ، (المُثُل العليا) .

من مضمون كتابه قوله مرشداً : « يا نفس : إن هذه الدنيا دار علمٍ وبحثٍ واختبار للمتأملين . . . فتأملّي . وأنعمي في التأمّل يطلُّ عليك وجهُ الحقيقة ، وجهُ الله . بهذا التأمل العميق وبرهافة معدنك الأصيل تبلغين « التوحيد » حيث المُتع الدائمة بكل مُشتهى شريف ، وحيث البقاء أبداً .

يؤمن الباطن العالمي بأن هرمس هذا ، هو نفسهُ باطنياً : أمحوتيب مصر ، وأخنوخ إسرائيل وإدريس القرآن .

كان هرمس في كل دور وبكل حضارة يركّز على تعليم الانسان : ١ ـ إتخاذ العقل

رائداً . ٢ ـ معرفة النفس وترفعها عن الدنـايا . ٣ ـ الاستخفـاف بالموت لأنه عتبـة لمنزل جديد أصلح . ٤ ـ التزام الصدق في كـامل مـدلولـه قولاً وعمـلاً تطبيقـاً ، وإيمانـاً . ٥ ـ معـايشة أخيـار الناس ومـطالعـة الكتب النفيسـة ، والحث عـلى الهـدايـة ، وضبط النفس وعفَّتها ، وحِشمةِ اللفظ واللحظ وكبح جماح الأنانية .

كـان هرمس في أقمصتـه المتاليـة منادياً بهذه الإرشـادات . مؤيـداً التقمُّص للمـزيـد من التـطور والتبـديـل والاختبـار ،كشفاً للحقيقـة الكـونيـة ، ولعـودة الانسـان إلى أصله ، ومُستقاهُ : العقل : أوميكًا الفيلسوف الفـرنسي المعاصر : « تيـار دي شاردن Teillardde Chardin» .

وقد كتبت الأديبة الباحثة اللبنانية : « مي المر » مقالاً مـوضحة مقـام « هرمس » في تـاريخ حضـارات العالم شـرقاً وغـرباً . « صحيفـة النهار العـربي والدولي : بيـروت مطلع عام ١٩٨٥ » . واعتبرته بعض الباطنيـة متقمصاً في الـوزير الأول لفـرعون مصر (زوسر) حاملاً إسم (أمحوتيب) الذي عاش في حوالي (٢٩٠٠) عاماً ق . م وهـذا الأخير اشتهـر بالطب حيث حمل عند اليونانيين لقب (اسكليبيوس) كـما اشتهر بـالفن والشعر والبصيـرة الثاقبة . نقش الملك (زوسر) اسم امحوتيب Zilmhoteb (هرمس) مصحوحباً بـالعبارة : « يا أمحوتيب يا من يعطي الحياة هب لي الحياة » على قاعدة كل تمثالٍ لفرعونٍ لاحِق .

الفصل التاسع

كيف تزعزعت حضارة مصر

نظير كل بلاد ، منذ انبثق وعيُ الإنسان ، نجد التيارات السياسية ذات تأثـير مباشر أو غير مباشر ـ من حيث لا ندري ـ على مرافق الحياة الاجتماعية والزراعية والفكريَّة فيها ، ومنها العقائد الروحية . فالملك إنسـان ، والكاهن إنسـان ، مثل مـا هو إنسـان : التاجـر والفـلاح والمحارب ، بـالرغم من الـروح السائـدة في تعدّد الآلهـة ، وجعل المصري قليـل المبـالاة في شؤون الدنيـا ، التي لا تعنيه مبـاشرة . معـاد ذلـك إلى نقص في تـوعيـة الفـرد وتفتّحه ، وتبصّره ، في ما ستطالعه بـه الأحداث ، التي لا تنـام ولا تسهو حـين يطول بِنـا السبات .

كانت المعارك الكبرى ، تدور حول توحيد مصر بجناحيها : الشمالي والجنوبي . تتوحّد ثم تنفصل سياسياً وعقائدياً ، وأول موحِّد لها قلنا : « أتون » وجاء بعده «حورس» فضمّ في باقة واحدة « غصن البردي » ، و « سات » غصن الزنبق رمزاً لتوحيد مصر العليا والسفلى معاً . ودواليك في تكرار هذا التوحيد .

وآلَ الأمر اخيراً ، وبعد ثلاثة آلاف عام ، من حياة مليئة بالروائع والأعاجيب إلى تخدُّرٍ فركود ، اسبابه ـ بعد اللطّمات السياسية ـ تعود إلى روحية ذلك الشعب الذي لا يعير الحياة كبير عناء ، بقدر ما يعير ما بعد الحياة . لعلّه اعتبر هذه فانية ، فحقرها ، فحقرته اخيراً .

وبما أن قانون الحياة يفرض طفولةً وشباباً وشيخوخة ثم فناء ، كذلك حال مصر الجبارة الخالدة ، مصرُ ، قطب التاريخ البشري ، وأُولى مفاخر الوعي ، والنضوج الفكري والخُلقيّ ، في الإنسان القديم . تطاولت على سُدَّتها يدُ القضاء ، وتسربت إلى مفاصلها ودمها وفكرها عوارض الشيخوخة ، بعد تشامخ الأهرام ، وروعة النواويس والهياكل ، وأُبَّهة الملوك ، وامتداد المستعمرات والقيم الكبرى للنصوص وكتاب الموتى .

فاجأتها الاحداث والثورات من الداخل والخارج ، فحطَّت رحالها مِن عَلٍ ، واستقرَّت سفنها على شاطىء النسيان ، بعد زهاء اربعين قرناً وما يزيد من النضال الفكري والجسدي المتواصل . وقبل محطَّتِنا الأخيرة ، ولكي يستمر توهج الحضارة المصرية مالئاً احداقنا نعود لنقبس ومضةً من شمسها قبل الأفول : كان « اخناتون » يتخيّل الشمس بقرصها ، أنها القوة المادّية الظاهرة للمبدع الفرد السرمديّ . فقال فيه :

I

ما أروعك سافراً في كبد السماء ، ،
يا أوّل موجودٍ ـ يا قُرص ذُكاءْ ، ،
حين اشرقتَ غمر جمالُك الكائناتْ
فأنت الأجمل الأعظم ، أنت جوهر الوجودْ
باسطٌ سلطانكَ على العوالمْ
متغلغلٌ شعاعك في كل أرضْ

من أجل إبنِكَ الأعزِّ : « فرعونْ »
ما أقرب إلينا شعاعَك ، ، وما أبعد عنا خُطاكْ ، ،
أبصار العالم تراك . . وتعجز بصائرهم أن تتقرَّاكْ
أنت أيُّها الاله الواحد الفردُ
لا وجودَ لإلهٍ سواكْ .
على مشيئتِكَ خلقتَ الأرض ومَن عليها :
خلقت الإنسان والحيوان ، وضواري الصحراءْ
أنت السيد المفضَّل ، والمبدع الأولْ
أنت الذي فجَّر للعباد . . «نيلاً » آخر في السماءْ
يترقرق كوثراً أبدياً على كل هؤلاءْ . »

II

وآثار «اخناتون » الفكرية ضخمة جداً ، كلها من الشعر الصوفيِّ العريق فلْنسمعْهُ :

« إلهي . . الناسُ عنك غافلون . .
وأنتَ مالىءُ جَوارِحي . .
حَسْبُ « اخناتونَ » منكَ . . إن لم يكن آبْنكْ .
انكَ أنت الذي عرَّفهُ : طبيعَتكَ وقُدرتكْ
خلقتَ العالم ، فغدت ، مخلوقاتُك ملكَ يديكْ
إذا تكشَّفتَ لهم عاشوا . . وان تحجَّبتَ ماتوا . .
انت سرُّ وجودهم . . ومنك استمَّدوا البقاءْ . . »

III

وقال كاتب « هرمس » الحكيم « باتوزيرين » ما معناه :

« أصغوا اليَّ أيها الأحياء . . والتزموا بِنُصحي تنعموا
ما أجملها طريق . . محجَّتُها : الإخلاص لله ، ،
مبارك هو . . ذلك الذي قلبه متَّجِهٌ إليهْ . .
فمن كان قلبه صامداً على طريقه إلى الله

غدت حياتُهُ الأرضيةُ ثابتةَ البناءْ .

IV

ومن مثات الأناشيد لأخناتون ، نوجز هذا :

« أنت (آتون) يا من يجعل من البِذْرةِ إنساناً
أنت الذي يُعنى بالطفل في رحم أمهْ
وحين يولَد ويرى النور . يفتح فمَهُ اولاً
فتمدُّه بكل ما يحتاج إليهْ .
. . . . أيها الاله الأوحد الذي لا شبيه لهْ
خَلقتَ الدنيا كما شئتْ
انتَ (أتون) شمس النهار ، عظيم البهاءْ
انت تعطي الحياة لكل البلدان القاصيةْ
أنت في قلبي ، وليس هناك من يعرفكْ . .
غيرُ آبنِكْ . .
. . . أنك خالقُهُ ، عالِماً بمقاصدك ، ومدركاً لقوتك
مالِكَ الوجه القِبليِّ والبحري . . اخناتون » .

(احمد فخري ص : ٣١١)

يرى جمهرةٌ من المؤرخين أن أناشيد اخناتون كان لها أثرٌ بالغ ومباشر على المزامير العبرية ، وخاصة على المزمور (١٠٤) إذ يجد القارِىءُ فيه الروح الأخناتونية بكل مشاعرها وحرارتها . حارَ الباحثون في هذا التصادُف زاعِمين مزاعمَ شتّى . على أن الباطن التوحيدي العام الذي يؤمن بتقمص الأرواح بما فيها الانبياء ، يحلُّ المُشكلة في أن (اخناتون) قد تقمَّص (بِداوُد) حاملاً احاسيسَهُ وإيمانَهُ بالواحد الأحد : الله (يَهْوه) .

بأخناتون ، عبر التاريخ القديم ، تجلَّت وحدانية الله بأصفى وأنصع مظاهرها ، وكانت لتسطع أكثر لولا ضباب الفساد الذي طمس تألُّقها .

ملخص للديانات المصرية القديمة

قبل أربعين قرناً من الميلاد ، كان قُدامى المصريين يعبدون ما تعبد جيرتهم ، ومعظم الناس : حيواناً وطيوراً وزواحفَ وأسماكاً ، كانوا يُسْرفون في تعاطي السِحر والشعوذة . وما فتئوا على هذه الحال حتى كان عهد السلالات الفرعونية وفي طليعتها الملك « أتون » فأخذت المعتقدات شكلاً أوضح ، وَهيِّئت العقول لتقبُّل التوحيد ، لأول مرة في تاريخ البشرية . لبث هذا التوحيد كامناً في بحر زاخر بالرموز والتخيلات ، يفرضها واقع كل بلدة ومنطقة . ويوم كان العالم في اطراف الأرض يقدِّم الضحايا البشرية للآلهة زُلفى ، كان الشعب المصري بعد « أتون » يقدم لها : الرياحين والأواني الخزفية . وبينما كانت آلهة غير المصريين متعطشةً لامتصاص دم البشرية ، كانت آلهة هؤلاء تقيم ميزان العدالة « مَعَتْ » ، لُمقاضاة المرء على سابق اعمالـه ، متخذةً من الملِك ظِلاًّ لها لتوطيد الاستقرار وبعث الرزق ، ولَمِّ الشمل .

آمن المصريون بإلهٍ فرد وبآلهة صغار عدَّة ، لها طقوسها وكهنتها ، معتبرين الفرعون صورةَ الإله على الأرض . وعلى مقدار ترفُّعه وعدالته وخدماته تسمو منزلته الروحية .

قسم الأخصائيون آلهة مصر إلى : أ ـ كونيةٍ منها : (حورونوت وشو والشمس) . ب ـ وخاصةٍ منها : (حورس وأتون وأمون وتوت) . وهناك الحيوانات المقدسة وأشهرها

« أبيس » . ثم الآلهة الأغراب أمثال : « عشتار وبعل واسترتا » .

وكان قد لجأ القدامى منهم ، لعبادة وتقديس ما يقيهم الضرَّ ويُغدق الرزق ، وينصر على العدو . لَهم أساطير تكشف عمّا تكنُّ هؤلاء الآلهة المزعومة من اخلاص وصدق ووفاء ، بعضاً لبعض ، لتكون امثولةً فضلى للناس . أشهر اساطيرهم : ايزيس وأوزيرس .

أكبر المدارس الدينية المصرية هي : هليوپوليس وعلى رأسها (أتون) . وهرموپوليس وزعميها (رَعْ) وهو نفسه توت (هرمس الهرامسة) ، ثم اخيراً المدرسة المنفيسية وإلهُها المفضَّل (بْتاحْ) . أشهر كتبهم الروحية : كتاب الموتى ونصوص الأهرام وكتاب الأبواب ، ولا تُعتَبر كلُّها سماويةَ المصدر ، بالمعنى المعروف لدينا .

وقد ظهرت الباطنية ناصعةً بفضل أتون وايزيس . ثم معززة ومكشوفة بواسطة هِرمس ثم أخناتون ، ذلك الفرعون الموحِّد ، والشاعر الاجتماعي الإنساني الخطير ، الذي جهر قبل موسى بالتوحيد ، منادياً (بأتون) الإله الحق .
وجاءت احداث سياسية عارمةً على مصر ، زعزعتْ حضارتها وبعثرتْ معتقداتها .

المراجع العامة لمعتقدات مصر القديمة

أ ـ باللغة العربية :

١ ـ تاريخ العالم :

السير جون هامرتون ـ وزارة التربية المصرية ـ المجلد الثاني الفصل الرابع والعشرون ـ الصفحات (٣٢ ـ ٤٥) .

٢ ـ مصر والشرق الأدنى القديم :

الـدكتور نجيب مخـايل ابـراهيم ـ طبع (١٩٥٨) دار المعـارف مصر ، المبحث الأول ص (٢٠) وما يليها .

٣ ـ الدين :

الدكتور دراز محمد الله ـ طبعة (٩٥٢) ص (٢ ـ ٥٣) .

٤ ـ قصة الديانات :

سليمان مظهر ـ مصر الطبعة الأولى ص (١٠ ـ ٢٥) .

٥ ـ الإنسان روح لا جسد :

الدكتور رؤوف عبيد (القاهـرة) الجزء الأول ـ طبعـة ثانيـة (٩٦٦) ص (٥٢) وما بعدها .

٦ ـ تاريخ مصر القديمة :
الدكتور حسن كمال (مصر) الجزء الأول ط (٩٦٩) ص (٤٢ ـ ٦٣) ـ (١٣٥ ـ ١٧٩) .
٧ ـ الله :
عباس محمود العقاد ـ الطبعة الرابعة (٩٦٤) دار المعارف (مصر) ص : (٦٥ ـ ٧٥) .
٨ ـ مواكب الشمس :
احمد بدوي (القاهرة) جزء أول طبعة أولى ص (٩٧ ـ ٢٢٩) وجزء ثاني ص (١١٨ ـ ١٢١) و (٥٧٧ ـ ٩٢٥) .
٩ ـ تاريخ مصر :
هيرودوتس ـ ترجمة محمد خفاجة وأحمد بدوي (مصر) جزء أول ص (٧٥ ـ ٢٩٢) .
١٠ ـ مصر الفرعونية :
احمد فخري ـ (القاهرة) عام (٩٦٧) ص) ٢٩٧ ـ ٣٣٩) .
١١ ـ تاريخ الشرق القديم :
هنري برستد ، ترجمة احمد فخري ـ القاهرة طبعة اولى ص (٨٦ ـ ١٤٤) .
١٢ ـ مصر :
اتيان دريوتون وجاك فانديه ـ طبعة اولى ترجمة عباس بيومي (القاهرة) ص (٦٥ ـ ١٢٥) .
١٣ ـ الحياة المصرية في العصور القديمة :
أدولف ارمان وهرمان رانسكي ـ صفحة (٢٧٧ ـ ٣٨٥) .
١٤ ـ اخناتون ونفرتيتي :
علي احمد باكثير ـ (مصر) ص (٢٦) وما بعدها ، موجز الكتاب كله .
١٥ ـ مصر والشرق الادنى نجيب مخايل ابراهيم (١٩٥٨) .
١٦ ـ دائرة المعارف المصرية (١٩٧١) .

ب ـ المراجع الأجنبية لمصر القديمة :

1 - Francois Dumas - Les Dieux de L'Egypte - (Collect, que sais - Je) Paris (1965) - p: (13 - 124).

2 - C. Desroches - Noblecourt - Histoire générale des Religions 1960: Tome 1, P: (150 - 204) - (223 - 266)!

3 - Jacques Hawekes - Sir Lionard Woolley Hist. de L'humanité (Unesco), trad Robert Laffront (Paris) 2ème partie P: (592 - 996).

4 - Will Durant — Trad, ch. Mourrey, Histoire de la civilisation (1962) P: (316 - 327).

5 - Edward Schuré - Les grands Initiés; paris (960) p: (155 - 188).

6 - J! Doresse - Les livres secrets des gnostiques d'Egypte paris (959), Vo III en détaille.

7 - J ! Vandier - Les Religions égyptiennes: Paris (949) en détaille.

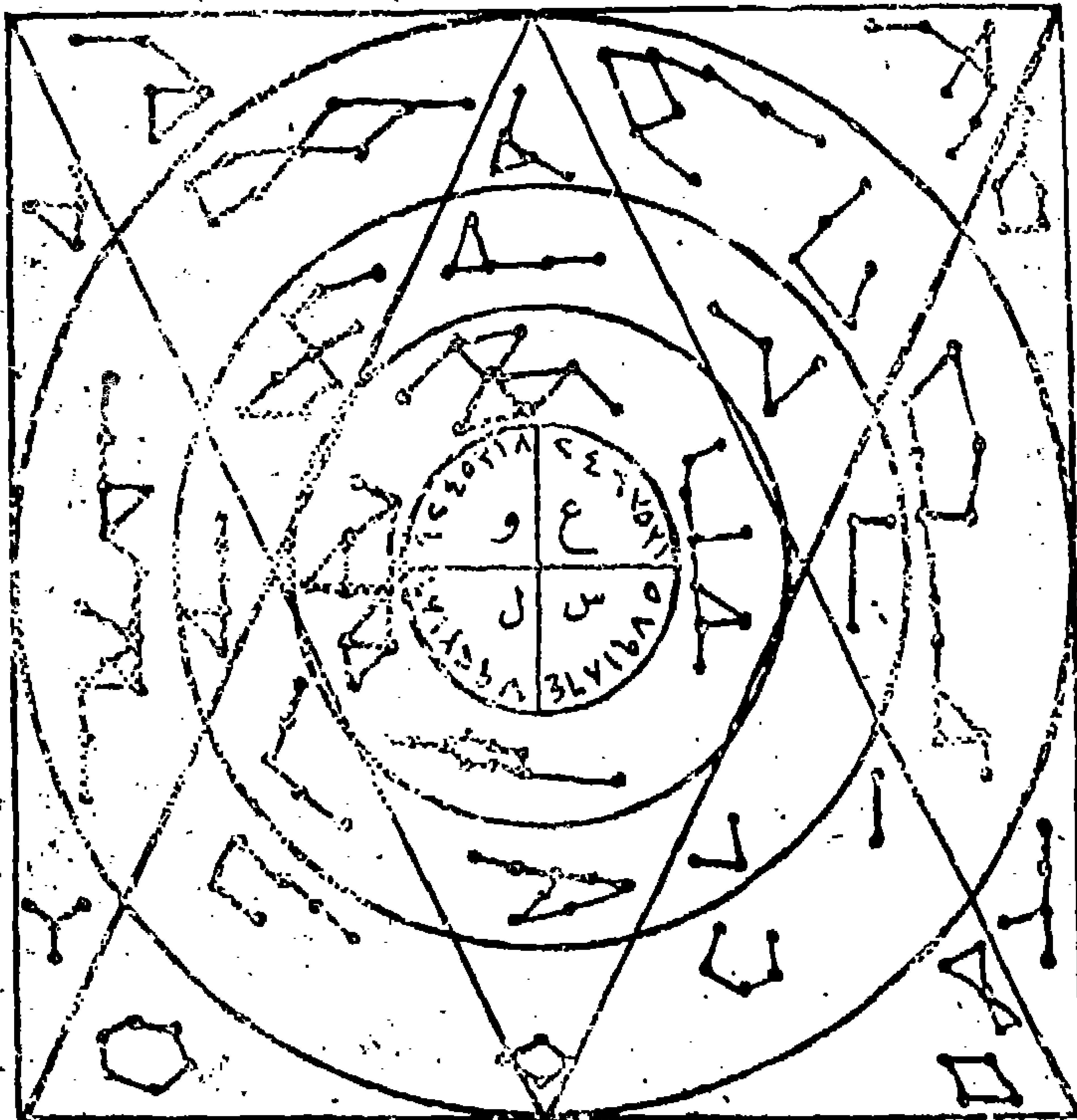
8 - A. Erman - Les religions en Egypte ancienne: Paris (1937) (détaillé).

9 - Endila Mont - Donation du Nil: (1ère édition) P (157 - 162).

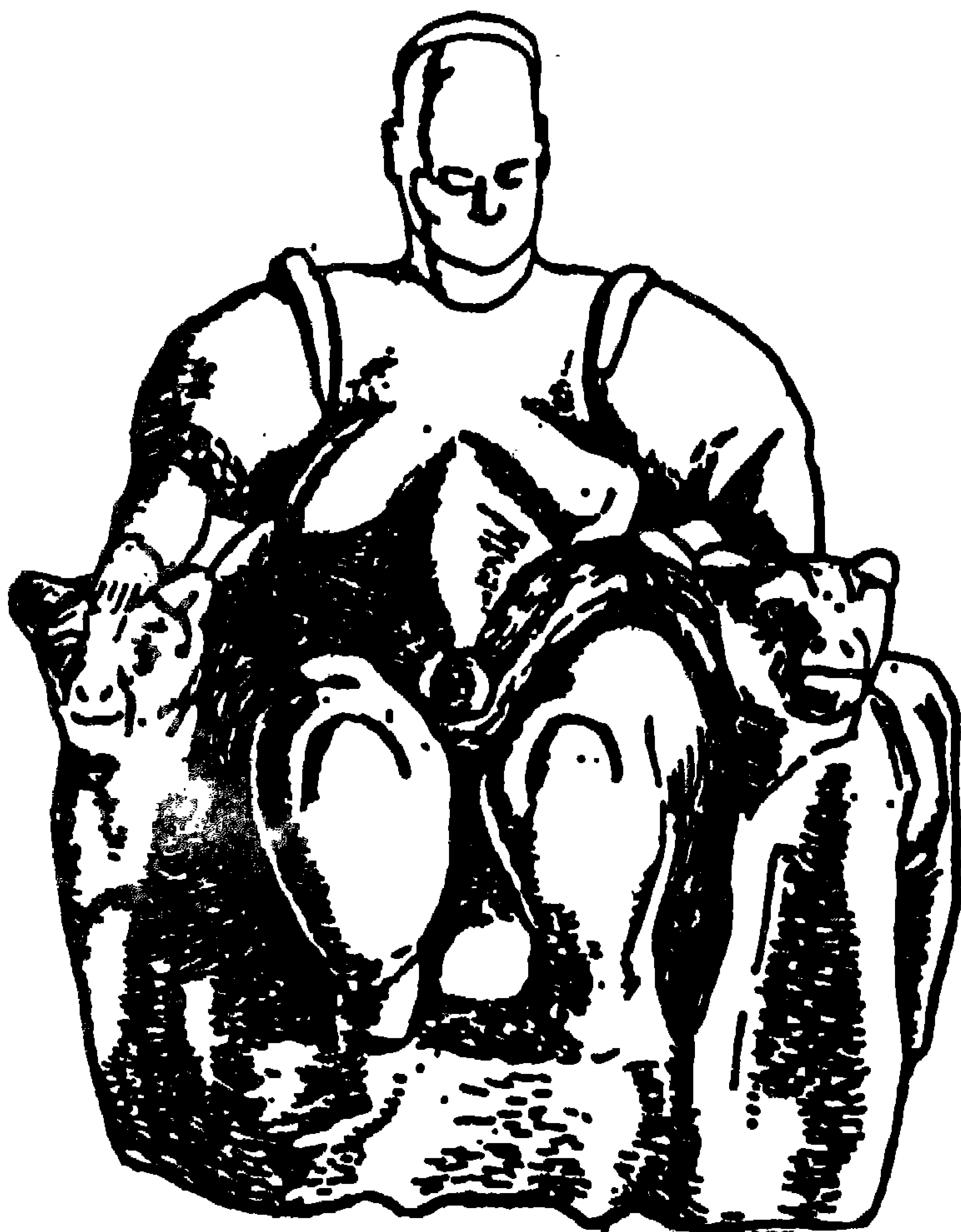
مُصْحَفُ

المُنْفَرِدِ بِذَاتِهِ

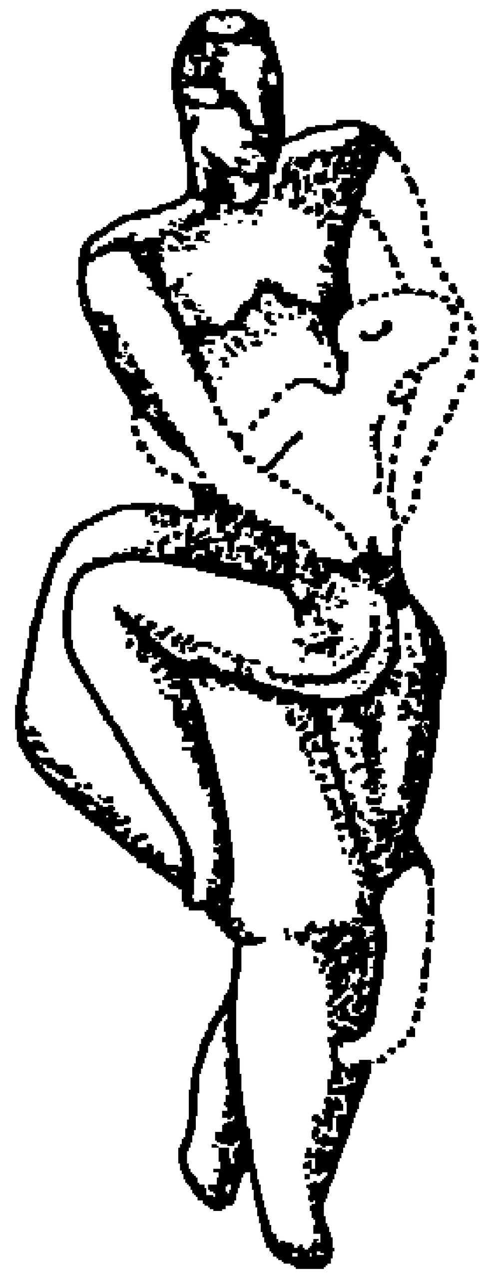
صَاحِبِ اللَّوْحِ وَالقَلَمِ، عَيْنِ النُّورِ وَالإِثْبَاتِ «هِرْمِسِ الهَرَامِسَةِ» مَوْلَى المَوَالِي، وَمَاحِقِ الأَوَّلِينَ الكَافِرِينَ.

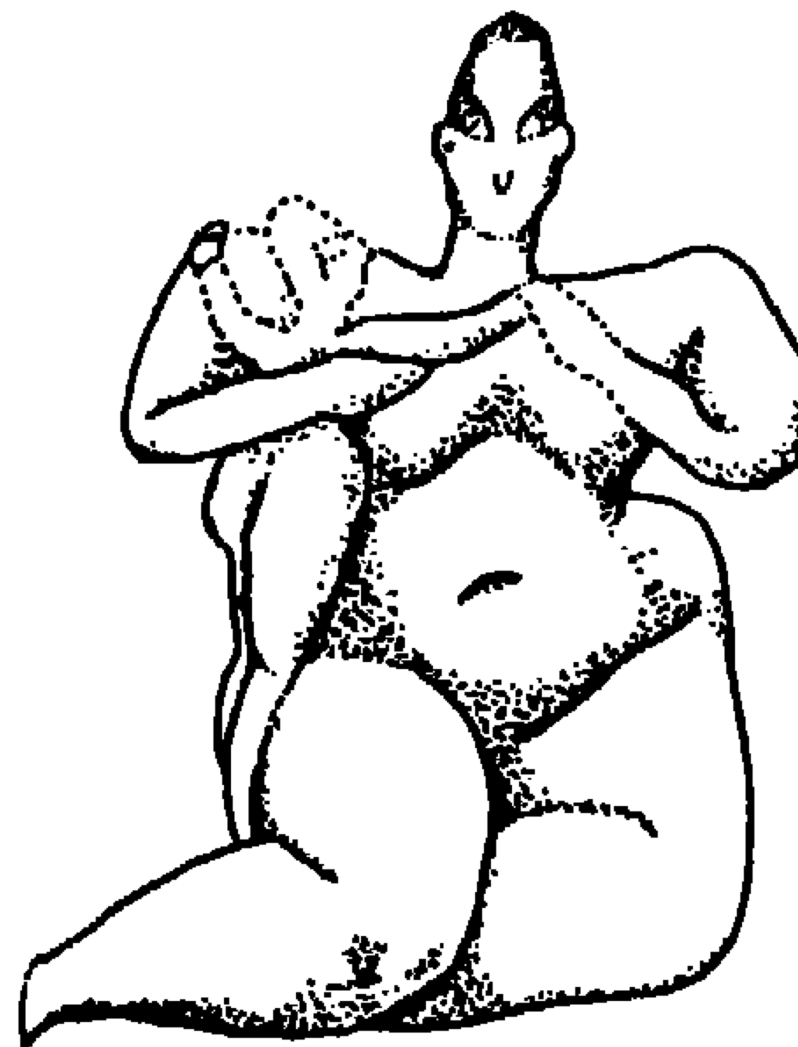


أَفْلَاكُ المَقَادِيرِ وَأَلْوَاحُ الإِثْبَاتِ وَالمَحْوِ وَمِيقَاتُ التَّنْزِيلِ وَالأَفْلَاكُ المُسَبِّحَةُ بِالتَّرْجِيعِ وَسَبِيلُ سِدْرَةِ المُنْتَهَى حَتَّى مَخْرَجِكُمْ مِنْ سِجْنِ أَنْفُسِكُمْ.



الأم الكبرى تصنع طفلها شتال حيوك


الإله الذكر في دور الحبيب

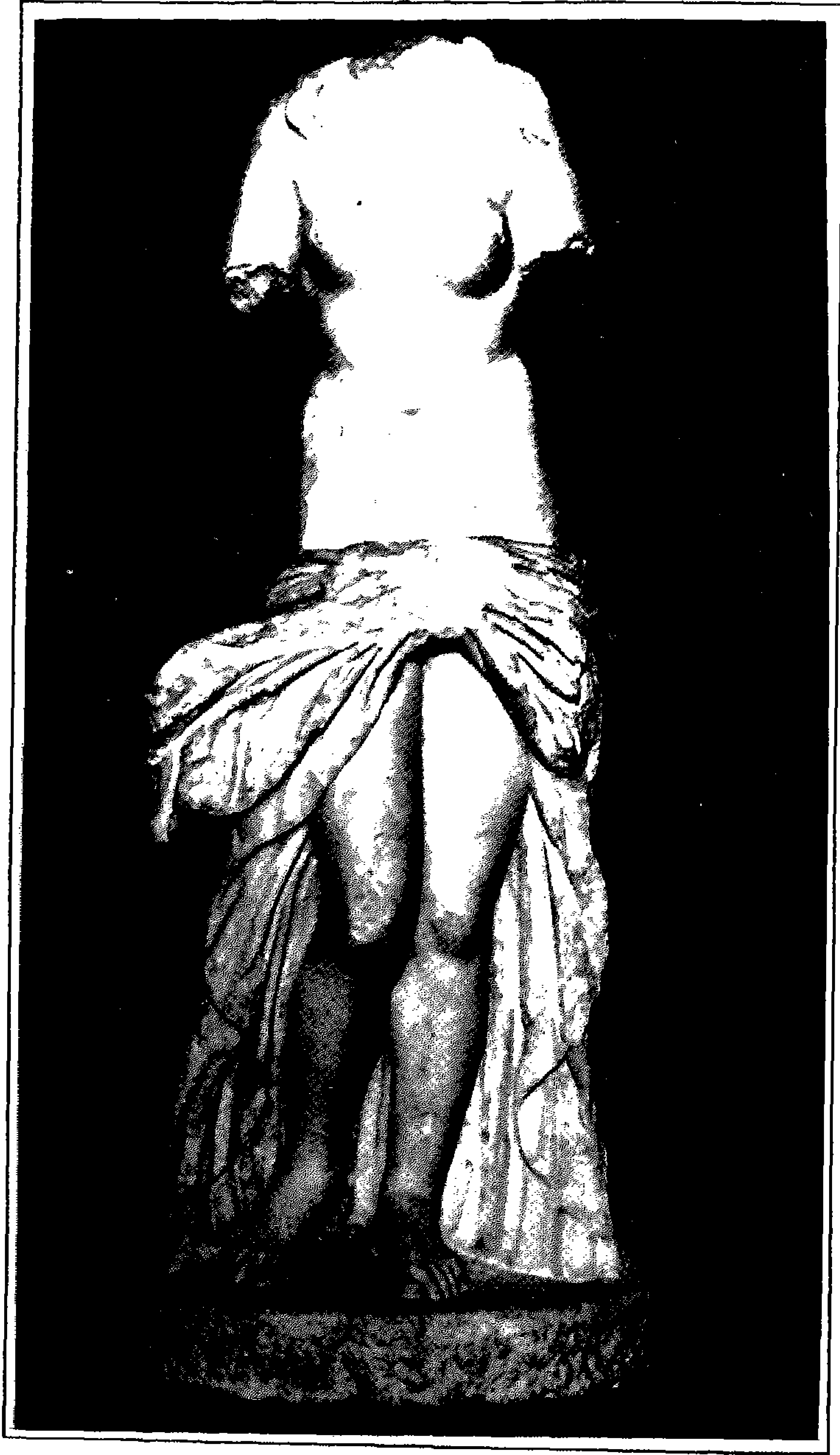

الإله الذكر في دور الإبن



أوزوريس القمر



درجات القمر الأربعة عشر ، أو أجزاء أوزوريس المفقود

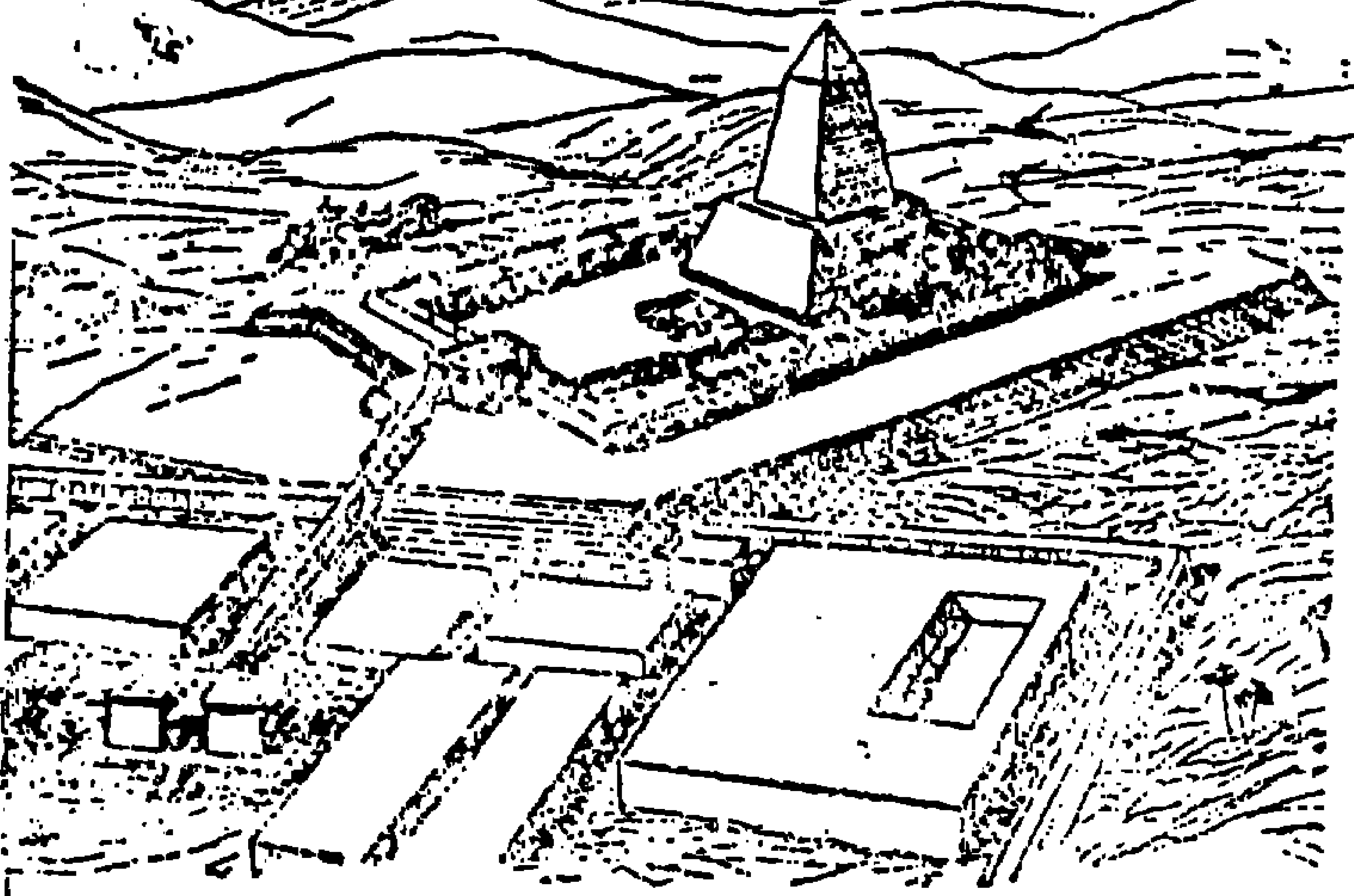


تمثال رخامي للإلهة فينوس



تمثال خزفي لفرس النهر يعود إلى زمن عبادة الحيوانات التي اتخذها الإنسان المصري في العصر البرونزي الوسيط .

كتاب مصر في العصور القديمة تأليف :
أدولف ارمان وحرمان رانسكه



« متحف برليم »

(شكل ١٤٥) رسم حديث يبين أحد معابد الشمس في الأسرة الخامسة كما كان في الأصل.



الأم الكبرى ـ الآلهة الأم تحمل طفلاً . عشتار الصورية .

الباب العاشر

الفصل الاول

الديانة الهندية : برهمانية وهندوكية

آلهتهم القُدامَى :

اختلف الباحثون في أيِّ الحضارات أقدمُ : الهندية أم السومرية أم المصرية ، والذي يعنينا بحثه في الحضارة هو الدين . فأي التصورات كان المهيمن على الشعوب الهندية ، في الآلاف السابقة للتاريخ ؟ وما آلهتهم ؟ وكيف يُنظر إليها ؟ وأي الطقوس الروحية يمارسونها ؟ يقول : (غوستاف لابون في حضارة الهند ص ٣٦٨) : « إن الخرافة في تلك الشعوب بلغت أقصى حدودها ، ولا غروَ فالاهتمام بما فوق الطبيعة هو نزعة عالمية . كان لهم عدد كبير من الآلهة . » قال بعضهم بلغ عددها الآلاف وقيل : (٣٣٣٣) بالتحديد . عبدوا قوى الطبيعة والحيوانات حتى النَمِر والأفعى : (Naja ناجا والبَقرة وعضو التناسل : Linga ، لِنغا) . ومنذ القدم آمنوا بالتناسخ ، وبالروح الكلية التي انبثقت منها أرواح البشر ، كالشرار من النار اللاّهِبة . يعود ذلك إلى القرن الخامس والعشرين ق . م (لويس رانو ص ٢٩) . وذكر فيه (تاريخ البشرية ج ١) انه قبل حلول الهندوأوروبيين إلى الهند. كان الشعب يعبد الإله (آندرا) المدمِّر. أما اسماء الآلهه فلم تزل في غموض . وهناك بعض تماثيل حجرية وفخارية صغيرة ، عرف منها الآلهة بأشكال

بشرية ، ومنها حيوانية ، ومنها عضو الجنس المذكر ، الذي يرمز الى تجدد الجنس واستمراريته . ووجد تمثال لإلّه ذي ثلاثة وجوه ، جالس على مقعد ، محاط بفيل ونمر ورينوساروس وجاموس . وكان الإله (سيڤا) بأوجهٍ عدّة وزوجته وعضوها الجنسي . دامت هذه الحال حتى الهند المعاصرة في بعض نواحيها النائية .

والمؤرخ : (م . وِكْلَرْ Martimer Wecler) ألمح الى ان : « الاله (أنترا) قد كسب المعركة لكن (سيڤا Céva) كسب الحرب . » فيما كانت تُنافِس الديانة الهندية القديمة ديانةَ الهندو أوربيين الدخيلة . وان ما عُثر عليه من تماثيل فخارية لِنساء عاريات هي كذلك دخيلة (الهند ص ٦٢٢) .

وقيل أن الشعب كان يؤلِّهُ (سيڤا) منذ القدم ، واعتبره الذات العليا للكون ، وهو نفسُهُ يُؤَلِهَ (مهاداڤا) أي السيد العظيم . واتخذ اشكالاً عدة . يعيش في أعالي أحد قمم حملايا ، حيث هناك أقوام لا تتناسل لِطهارتها .

الآلهةُ في عُرفهم كائنات فاعلة ، لها قدرات خارقة لكنها كلها خاضعة لقضاء (الكرمن Karmen) منها (إكڤارا Icvara) السيد والوافر السعادة .

والحُب هو الرابط الوثيق الذي يشد الإنسان بالآلهة . يقول الحكيم الهندي (Vive Kananda ڤيڤ كَنَنْدا) ان الله موجود في كل ذات بأشكال مختلفة .

وكانت إلهات أُنثوات في معظم قرى الهند (ڤيرابْهادْرا Virabhadra) وهنَّ زوجات الآلهة تختلط احياناً بال (Mâyâ مايا) .

كانت اسمى الآلهات : الافعوان (ناجا ، Nagas) وهو كائن تحت الأرض . كما شاعت عبادة السلف يومذاك .

بعد دراسات دقيقة وتحرِّيات في اطراف الهند نفسها ، أُثبت المؤرخون : (A. Bareau ، أ . بارو و W. Schubring ، و . شُويْرِنغ ، Haimendore ، هامندور ، C. Von Türer, ڤون تُورِرْ) في مؤلفهم (ديانات الهند) في ما يتعلق بالهنود الأوائل ، قبل حدوث الهجرات الاجنبية ما يلي :

مُعتقداتهم الأولية :

١ ـ لم يكن لهؤلاء كتبٌ سماوية خاصة قط .

٢ ـ آمنوا بعالم ما بعد الموت حيث يسكن بعض الآلهة والعقول في اعماق الارض .

٣ ـ اساطيرهم لا تحمل ايَّ مغزى أخلاقي .

٤ ـ آمنوا بقوى فاعلة خارج قُدرات الانسان ، وهي على صلة به ، كما انها مشخصه . واعتقدت بعض قبائلهم بامكانية رؤيتها وسماعها ومُلامستها . وهي تقدم للانسان بعض الخدمات . اما الآلهات الأنثوات المختصة بالأوبئة والمتعطشة للدم ، فلا تقرب الانسان ، ويضحون لها لإبعاد اخطارها . انما كانت (الإلهة الأرض) بغير حاجة اطلاقاً لأن يتضحى لها ابناؤها البشر . لكن القربان يضاعف عطفها عليهم ، حسب زعمهم .

٥ ـ هنالك إله واحد متعال ، تؤمن به معظم القبائل ، يسمى : الإِلَه الأعظم وهو نفسه (Bhavagan بْهافاغان) . وان الوحي بعبادته ليس نابعاً مِن منطقة خاصة ، إنما هُو تيَّار روحي بعد المدّ

يؤمن اتباعهُ بان هذا الإِلَه سماوي غير سواه من الآلهة الصغار المنتشرة في كل بلدة وقبيلة . وانه هو نفسه الإِلَه : (الشمس) ، وهو المهيمن عليها وعلى الخليقة .
اكَّد المؤرخون في المرجع نفسه ، ان فكرة الهٍ واحد سماوي متعال ، كانت شائعة في قبائل عِدَّة هنديّة ، تعود الى ما قبل الألف الثاني والثالث لما قبل الميلاد .
هذا التأكيد يوضح لنا ان التوحيد كان قائماً قبل ان تنزل القبائل الهندواروبية البلاد ، وان روحانيات هذه القبائل جاءت مُتمِّمَةً ومُحيِيَةً لتلك، لا كما يزعم معظم مؤرخي الفرنجة ، بان التوحيد دخل الهند من الغرب .

٦ ـ علاقة الانسان بإله قبيلته أو قريته ، لا يعوزها وساطة كاهن أو متبصر في بعض القبائل ، والصلوات والذبائح له ، تأكيد على فائق اعتباره ، وعلى رجاء عونه في المُلمات .

وكان يزعم هؤلاء الهنود ان الدم المسفوك قرباناً ، يسوق الاقبال واليُمن ، وبخاصة دم الانسان . ولا علاقة للصلوات والذبائح بالروحانيات ، والاخلاقيات ، وما بعد

الحياة . وبشكلٍ إجمالي فان الاله بعيدٌ عن الناس في كثير من تلك المناطق ، واحياناً يرجعون للمُلْهمين والكَهَنة .

٧ ـ كل قبائل الهند القديمة لها معتقدات متنوعة في ما بعد الطبيعة . بعضٌ يتخيل دنيا خاصةً بعالم الأموات ، حيث يستمر بقاء الروح . وبعض يؤمن بأن النفس البشرية تخلد لوقتٍ محدود ، ثم تنطفيءُ أو أنَّها تنتقل من جسد انسان لجسد حيوان ، دونما مراعاة لأعمال المتوفى السابقة ، وبعدها تتلاشى نهائياً . ثم اخيراً من هؤلاء من يعتبر الحياة الأولى في الدنيا ، مثالاً للحياة الثانية ، فالسعيد في نُقلةٍ ، سعيد في الثانية وهلّم .

وموجز القول ، ان هؤلاء الشعوب يعتمد سَوادُهم ارادة إلهِهم الخاص ، أو الإلّه الأعظم ، في مصير نفوسهم ، غير مبالين بِمَا اسمته (الڤيدا) ، بعدئذٍ بالـ(كرْمان) واعتبرته الركيزة لديانتها .

ويعود المرجع السابق ليقول : « خلال القرون اللاحقة ، تسرَّبت معتقدات شتى الى الهند القديمة ، ولكن حتى اليوم ما برح بعضهم معتصماً بمعتقده وطقوسه الأولى » ص (٣١٧ ـ ٣٢٧) وقال (Bareau) : كان المتعبِّدون الهنود منقسمين الى فريقين : البرهمانيين ، الذين يؤمنون بالڤيدا والأوبانيشاد ، والبرهمانا يعتقد (بالبرهمان) إلهاً واحداً أعلى ، غير مادي ولا مشخص . والفريق الثاني هم : الـ(Sramanas سْرامَناسْ) الذين صدرت عنهم عقيدتا : البوذية والجينيَّة . أما (هـ . أرڤون H.Arvon) في البوذية فيقول :

« لقد ازدهرت الحضارة الهندية في وادي الهندوس في مطلع القرن الثلاثين (ق.م) وفي القرن الثالث عشر تدفقت القبائل الآرية على بلاد (البنجاب) ، وتغلغلت حتى شواطيء (الغانج) .

كانت لغة التأليف المقدسة الهندية هي : السنسكريتيه ، القريبة الشبه بالإيرانية .

الفصل الثاني

بدء الكون

تخيَّل الهنود القدامى أنَّ الكون كان ظلاماً دامساً لا يحدده عقل ، ثم بارادة المولى الموجودِ بذاته ، اصبح العالم مرئياً بعناصره واصوله ، واقتضت حكمة (برهمان) ايجاد المخلوقات ، فأوجد المياه وفيها جرثومة بيضةٍ لَّامعةٍ طافية على شكل (Hiranyagarbha هيرانْيا غَرْبْها) وتدعى (بيضة برهمان) ، منها انبثقت المخلوقات بما فيها الجنس البشري الذي تكامل تناسله ، بواسطة ابناء برهمان الروحيين العشرة . تتألف البيضة من شطرين ، الأول يحوي السماوات السبع ، في اعلاها مستقر الحقيقة (برهمان) ، وفي اسفلها عالم ما تحت الأرض حيث الجحيم (maraka ماركا) مستودعُ الرذائل .

اما الأرض فبين هذا وذاك ، كروية الشكل يتوسطها الجبل (Merus ، ماروس) عن (دائرة المعارف العربية ج ٢ ص ١٥٧ !) . وكانت الاجسام وارواحها . اما الأرواح (Atman أتْمان) فبعض اولئك يزعمونها خالدة في تناسخ متواصل . منها ما لا يقع تحت عجلة هذا التناسخ ، لفرط صفائه .

العالم الآخر :

يزعم قدامى الهنود ان النفس تَمْثُلُ بعد نهاية طوافها امام الإله (ياما Yama) لتحاسب . اذا ثقلت كفَّة ميزانها بالخيرات ، تصعد في (طريق الآلهة) محاذية لأشعة الشمس ، حيث الجنة . وهذه الجنّة هي مقر الملذات الجنسية . مكانها اما في السماء أو على قمَّة (ماروس Mérus) بين الآلهة . وتنحدر النفوس الشريرة الى الجحيم . لكن كِلا النعيم والجحيم ليسا ابديين ، اذ يعود البشر الى وضعهم السابق ، ثم تتكرر المحاسبة مع الاحقاب .

البرْهمان :

انه المطلق ، النورُ ، الوجودُ الأنقى ، الثابتُ ، وانه لا مثيل له ، ولا رغبة ولا صفة له . عرَّفه البحاثة (همرتون) بـ« انه قريب الشبه بالطاوُ (Tao) عند الصينيين فهو المطلق الكائن وراء العالم ، ولكنه متداخِل فيهم ، منه تنبعث الكائنات ، وهو ليس

بكائن . يعزّ على كل تعبير . كان قبل السماوات والأرض ، وقبل وجود السيد الأعلى . والانسان هو الـ (Atman أتمان) بنفسه .

في اناشيد (الأوپانيشاد) هـو الدائم الحقيقي (سـات Sat) ، وهو خـارج كـل حـدود ، وكل تحديد . إنه كل شيء ، وكل شيء يعود إليه .

واعتبر بعض الأخِصّائيين المثلَّث الهندي هو نفسه تجليات للبرهمان ، من بينهم : (تاريخ البشرية جزء ٤) . إن (رامانوجا) المتوفى عام (١١٣٧) أضاف : « أن برهمان والنفوس وكل العالم المادي ، هم مختلفون في الجوهر ، لكن مادتهم واحدة . والنفس لا تتقدم كلياً ، بل تبقى مميزة بما تحمل من مادة الـ (بْرَهْمان) .

غير أن الروحي (سنكارا) قد احتفظ بتعاليم الـ (أوپانيشاد) الظاهرة ، ونفى ان تكون اية فارقةٍ بين النفوس البشرية ، والعالم المادي وبرهمان . قال : « ان النفوس والإآله لها حقيقة متحدة ، كما هي الحال في الشجرة وأوراقها . رغم الفوارق بينهما ، نجد ان الأوراق لا تُقدَّر لها الحياة مستقلة عن الشجرة التي هي (البرهمان) . وان النسغَ اي (النفوس Atmans) الذي تسوقه اليها الشجرة ، فأنه ينعش هذه ويحي تلك وفي باطن (الڤيدا) أحرف ذات رموز ، لم يعرها العنايةَ الدقيقة غيرُ نفر قليل . من هذه الرموز (أ . و . م ، A.U.M) وتعني البرهمان نفسه ، كما تعني : بذورَ الحقيقة . والمعنى العميق لهذه الرموز هو بمتناول العرفانيين من الهنود القدامى وحسب .

ان البرهمان هو : حقيقة الحقائق ، لا ذكر ولا أنثى ، بل روح احتوى كل شيء . تقول الاسطورة الهندية بلسان المؤرخ (سليمان مظهر) : « قد صُنع من اطراف انامل البرهمان عملاق : نفخ هو فيه ، فانشطر رجلاً وامرأة ، وتحولا الى حيوانات وحشرات . ثم عاد فخلق : (مانو) أول البشر . من رأسه خلق الكُهانَ ، ومن ذراعيه : الملوكَ والمحاربين ، ومن فخذيه : ارباب المِهن ، ومن قدَميه : عامةَ الشعب » . لذا فقد دامت الطبقية في البرهمانية متغلغلة ومتصلِّبة ، ولا تذوب إلا في التقمص حيث تحكم (الكرما) ، ويقرر الطبقة ما سلف من عمل قام به المتوفى ، من اية طبقة كان .

(فشنو) : انه إله الرحمة والعطف والحب ، يتـأنس ليساعـد البشر ويهديهم ، ولـه اسماء عدة : راما ، كرشناوو .

(سيفا) : هو إله العنف والقسوة عكس مـا يعنيه اسمـه : العطوف . وهـو مسعِّر الحروب ومدمِّر الخصوم .

(كالي) : إنها إلهة ذات طبعَين متناقضَين : مرة هي رحيمة شفيقة ، ومرة ساخطة مُبيدة ، لكنها على جانب وافر من الفتون والجمال .

ويزعم الدين البرهماني إن لكل المخلوقات ارواحاً ذات عنصر مشترك، تسير في دائرة واحدة كونيـة ، متنقلة مع الاجيـال ، من انسان لحيـوان ، لحشرات . يحدد هـده الفوارق شيء واحد هو (الكرما) أي قيمة ما احتقبَ المرء من عمل سابقٍ لوفاته الأولى .

التطور في المعتقد :

حدث تطور في العقيدة الهندية كانت اجـلُّ أسبابـه : هجرة (الهنـدو أوروبيين) . طوَّر هؤلاء ما كان يؤمن به الشعب الهندي ، واضافوا اليه نفحـات غربيـة فارسيـة ، نُشير اليها في فصل من الديانة الهندوأوربية . وهنا نوجز بما يلي :

المثلث الهندي المعروف هو : (سيفا فشنو وبرهما) هذا الاخير هو غـير (برهمـان) الذي سبق ذكره . اعتبر الشعب ان سيفا هـو الإله المـدمر ، وفشنـو هو الـراعي الصالـح والمخلص ، يصحبـه في العبادة : (رامـا وكـريشنـا) وهمـا من تقمصـاتـه نفسـه ، وسنلم بحياتهما لاحقاً . اما برهما فقـد شاعت عبـادته جنـوبيَّ الهند . وضَـعَ ديانـة ازدواجية عـلى (الأُوبانيشاد) ، في القرن الثالث عشر بواسطة (Madhva ، مَدْهْفا) .

وكثيراً ما تظهر زوجـة (سيفا) عـارية في الأحـداث الخطيرة بـالهند ، يستعينـون بها لقهـر العدو .

بعـد دخول هؤلاء الاغـراب عثروا عـلى آثـار وردت في كتب الهنـود منهـا : اسم : ڤـارونا (إله السماء) وأندرا: (اله الرعد والمطر) والشمس : (وهي بنت السماء والنامية ، وهي نفسها ميترا وفشنو. والإله أغْني: النـار). ومنذ هـذا التاريـخ وُجد نـظام الطبقـات في الـبرهمانيـة ، ورافق تقديس البقـرة كل هـذه المراحـل : قديمـة ومستجـدة وآتيـة . فـما البقرة ؟؟

البقرة :

لهذا الحيوان ميزة بارزة جداً في ارجاء الهند ،منذ القديم ، حتى العصر الحالي . قال (ديورانت Durant و Mourrey مُـوَّري) « إنها ممثلة في صُـوَرٍ ورمـوز بكـل منـزل، وبكـل هيكل في الهند جمعاء . تتجول في الشوارع بحرية كاملة . وهم يقولون ان سَمـادَها مـرهم مقدس وبَولَها ينظِّف كل قذارة ، ولجلدها ولحمها . وعظامها كلهـا فوائد . ولا يمكن لأي هندي أن يُقدم على ذبحها » .

والمعروف أن غاندي قد وضع اعتبار البقـرة ، في مقدمـة تشريعه ، نـظراً لما لهـا من فوائد في الحقل الزراعي . وهذه صَلاةٌ لها :

« أيتها البقرة المقدسة ، لكِ التمجيد والدعاء ، في كل مظهـر تظهـرين فيه . أكنتِ أُنثى أم عجلاً أم ثوراً » :

وقيـل بلسنان غـاندي : « ان البقـرة رمـز الإيثـار : عنـدمـا اراهـا لا أَحسبني أرى حيواناً : إنني ادافع عن تقديسها : أمي البقرة تَفْضلُ أمي الحقيقية .

النجاة :

ان السُبُـل التي تؤدي بالهنـدي إلى درجة النجـاة ، واعني الخلاص من عـلائق هذه الدنيا ، أولها الصلوات والتوسلات التي تتضمنها (الفيدات) . والأهم منها كلها : التـأمل العميق والممارسات الروحية العرفانية .

قال (سنْكارا Cankara) : الانطلاق هو الانغماس المكرر في بحيرة السكينة المتناهية حيث هي : حقيقة (سيفا) والانطلاق يتم فرداً فرداً .

الكرمن :

تعني الكلمة : العمل ، وهي ركيزة العقيدة البرهمانية . انها القدرة غير المنظورة التي تقـود الإنسان للانسياق في عجلة التناسخ المستمر ، بين بشر وحيـوان ونبات بـأدوار يبلغ احدهـا عشرات الآف السنين . بها تنتقل روح الإنسان حسب مـا أسلف من أعمال ، إلى حيـوان ضار أو أليف وإلى طير أو سعدان أو حشرة الخ .

إن شريعة (الكرمن) تطال كل حيٍّ علـى الأرض ولا مفرَّ من نَيـوبها مهـما استحاطَ المرءُ . عمله اليومي مُسَّجل عليه ذرةً ذرة ، وتابعٌ له ، في كلٍّ تقمُّصاته .

تقول هذه الشريعة : « نحن الآن بما عملناه في الدور السابق ، وسنكون حسب مـا نعمل وسنعمل . انها خلاصة الأعمال السالفة . وقلَّ ما يحدث تَذكُّرٌ لِعهد سبق .

ويقول الدكتور شَلَبي : المرء يحمل تبعة اعماله وتبقى الروح اسيرة لهـا حتى تتحرر ، وذاك هو الخلود أو النجاة » .

تقـول الـ (Yougavestha اليـوغـافستـا) : « لا يـوجـد مكـان في العـالم يقي المـرء من نتـائج اعـماله . وبمـا أن الجزاء يعسر تحقيقـه في ميلاد واحـد ، وبجنس واحـد ، فقـد وجبت الـولادات ، وتنـوع الاجنـاس لتصـحَّ (الكـرمـا) . وفي حـال التصفيـة ينقـطع التناسخ ، وتمتزج الروح في (البرهمان) » . فسحة الأرض هي دار الجزاء والثواب .

إن النجاة أو الإنطلاق يعني تجرد المرء من كل شهوة ومَيل ، قانعـاً بما يجتـازه ، لكي يتسنَّى له الاندماج في الإله ، كما تمتزج قطرة الماء في البحر . فيتلاقى الاضـداد ، والحبيب والمحبوب في مستوىً واحد ، وأصل واحد ، ولن يتم ذلك الا بـالمجاهـدات ، والمبَّرات ، حتى الصفاء الكلي . إن الكرمن في الإنسان تشبه التيار الجارف في انسياقها مع التقمص ، حاملة زبدة ما احتقب الإنسان . في العصور العريقة في القدم كان الهنود يعتقدون بتقمص الأرواح في أربعة وثمانين دورة كاملة ، وكل دورة مدتها مئة الف عام ، تنتقل فيها الروح : عشرين مـرة لنبات وعشـراً لحيوان مـائي ، واحدى عشرة لحشرات ، وعشر مـرات لطائـر وثلاثين مرة لحيوان عادي وثلاث مرات لقرد . بعدها تنتقل الروح لجسـد إنسانٍ في مختلف أوضاعه الصحية والعلمية والاجتماعية . انتقالها على مرتين ومدة كل مرة كالسابق مئة الف عام : (Bareau بارو) .

اخيراً يقف دولاب النقلات ويشرف المـرء على حقيقـة حقائق (سيڤـا civa) ويتَّحد بالبرهمان ذائباً فيه ذوبان النهر في المحيط .

الفصل الثالث

الهندوكية (L'Hindouisme)

جاءت العقيدة الهندوكية مطورةً للدّيانة البرهمانية ، لِتُنافسَ وتقضي اخيراً على النفوذ البوذي في الهند .

يقوم هذا المعتقد على مبادىء اربعة : ١ ـ معرفة طريق العقيدة وتفضيل كل برهميٍّ على سواه . ٢ ـ اعتبار البقرة هي الممثل لِلألوهة . ٣ ـ قبول مبدأ الكرما ، وتقمص الأرواح . ٤ ـ استبدال آلهة الڤيدا بآلهة أخرى .

عند هؤلاء لا فرق بين إنسان وحيوان ، بسبب نقلة الروح إلى كليهما على السواء . ويرى الهندوكيُّ أن الحواس لا تدرِك إلا ظواهر الأمور ، اما بواطنها فلها العديد من القوى الخفية الخارقة واللطيفة ، التي ندركها ولا نراها . تحسها بصائرنا وتغمض عن ابصارنا .

ليس في مدلول هذه العقيدة الهٌ اسمى إذ : طوراً هو فشنو وطوراً سيڤا أو برهما . والإنسان في روحه هو لفترة معينة انسان وحسب ، ثم يصبح طائراً أو حيواناً أو . .

إن معلّم العقيدة (مَهابْهاراتا— Mahabharata) كان يقول : « العالم مُحزن ومريع بسبب الموت . . وإذا كنتُ متأكداً من حلول الموت ، فماذا تفيدني المعرفة لأَتظّلل بها ، واخدع نفسي . وهذا تعبير ورد في مجموعة (رامايانا) بلسان الزوجة (سيتا) :

«إذا كنتِ طيلة هذه الحياةْ
مثالاً للزوجة الوفيةْ . .
ايتها الأم الأرضْ :
أنقذي سيتا من أعباء هذه الحياة » .

وقال احد الهندوس :

« حسَنٌ جداً أن تَستغرق في الرقادْ
ولكن الأحسنَ والأفضل هو : الموتْ .
والأفضلُ من ذاك وهذا هو :

ان لا نعود لِلحياةْ » .

وقد كرر غاندي هذه الفكرة بعبارتِه المعروفة : « لا أرغبُ أبداً في العودة للحياة .

الڤيدا :

من اقدم الكتب الهندية هي (الڤيدا) ، وقد تعتبر من أقدم مقدسات العالِم .

برزت هذه المقـدسات بـوضوح ، لـدى ولوج الشعـوب الهندو أوروبيـة للهند ، في القرن العشرين لما قبل الميلاد . حيث لم تكن في البلاد آثار دالـة على وجـود هياكـل وكهنة مِن قبل .

ورغم وجود هذه الاسفار الخالـدة ، ما كـانت الديـانةَ الـبرهماينيـة لتعيرهـا الاعتبار الـلائق بها . لكن بشيـوع هذه التيـارات المختلفة من أصيلة ودخيلة طـرأ عـلى (القيـدا) تغيُّرات شتى وتأويلات ابعدتها عن خطها السويّ زمناً .

وبظهور (فشنو وسيفا) تركزت الهندوكية بديلاً عن البرهمانيـة ، ونمت عناصرهـا مع الأيام وأصبح كل ما هو خارج عن تعاليم الڤيدا وإطارها مغايراً للهندوكية .

بين هذه المـلايين من البشر كـانت طوائف مشككـة واخرى منغمسـة بملذات الحياة وشهواتها . لا تُؤمنُ بإلهٍ قط ، ولا (بأَتْمانٍ) خـالدة ، بـل تضمحل مـع الجسد . مبتـدع هـذه العقيدة الاخـيرة : (Çarv̂aka, Lakayata ، لاكَيِاتـا وسرڤاكـا) . ان كلمة (ڤيـدا) تعني المعرفة ، وهي اجزاء : أ ـ الريغ ڤيدا : ومحتواها مدائح وانغام تعود إلى ثـلاثين قـرناً وتشمـل (١٠١٧) نشيداً . ب ـ السـاما ڤيـدا : معرفـة الانغام والصلوات ج ـ اليـاجـور ڤيدا : معرفة مراسيم العبادات والتضحيات . د ـ الأَتْرڤا ڤيدا معرفة المراسيم السِحـرية . وكـانت إلهة القيـدا الاخلاقيـة الوهميـة هي (Varuna ڤارونـا) . وغدا حينـاً الإله (أغْني Agni) إلهاً لِلڤيدا كذلك . لكن أول آلهتهـا كانت قـوى الطبيعـة ، والعناصر والجنس ، والنـار والشمس ، وكل مـا سبق ذكره من آلهـة هنديـة . بقي لُغزاً عـلى التاريـخ مؤلِّف (الڤيدا) غير أن المحققـين اعتبروا أن لفيفـاً مـن الشعـراء والحكـماء الدينيـين القدامى ، قاموا بهـذا العمل الجبـار ، على مـا فيه من تخيـلات ، جارى بهـا المؤلفون طقـوس العصر ومعتقداته : (رانو Reneau) . لا يتطلب الرجل القيدي غير حياتِه الحاضرة .

في الڤيـدا اخبار الهنـود الدينيـة والسياسيـة ، وحضـارتهم ومـطاعمهم ومـلابسهم ومِهَنِهم . وفيها الوهية ترقى إلى وحدة الوجود . انها دائرة المعارف عندهم ، المرجع :

(محمد عبد السلام في ثقافة الهند ص ٢ ـ ٣٢) و (رانو) .

وقد أولت الڤيدا على ايدي الـبراهْمنة بكتـاب اسموه (البـرهْمانـات عام ٨٠٠ ق . م .) ثم لُخّص في اسفار مقدسة عام (٦٠٠ ق . م) وأسمـوها الأوپـانيشادات . وكـان آخر حكيم حقق بين الحكمة والرحمة هو (شانكارا) الذي شرح الأوبانيشاد بعمق .

وعنده : بالحـواسّ لا يستطيـع الإنسان معـرفة مـا هو حقيقي . جـاراه بهذا الـرأى الفيلسـوف الالماني (كـانت) . وقال (هـ . أرڤـون ، H. Arvon) هنـاك دالـة كـبرى في الڤيدا تشير إلى الرغبة بتقـديم الذبـائح لـلآلهة ، لأنها هي بـدورها تحفظ الشعب الهنـدي وتنـاصره . والإنسان فيهـا يسمى (پراجـاپاتي Prajapati أو پُـورُوشـا ، Purusha) وتقـول (الريغ ڤيدا في النشيد (١٦٤) :

« إن المثال الأول تجسد في ألوهة خـلاقة هـو : (Hiranyagarbha هيرانيـاغربْهـا) أو (Viçvarman ، ڤيسْڤارْمان) معتـبرة أن المياه هي العنصر الـرئيسي لكل المخلوقـات . كما أن كل كائن وُجد من : الحرارة (تاپاس ، Tapas) ومن الـرغبة (Kâma ، كـاما) . إن الإله واحد لكنّ له أسماءً عِدَّة » .

الديانة الهندوكية :

أنها تـطور جذري للديـانة الـبرهمانيـة ، غير أنها تعتـبر (الڤيدا واليـوغا) الكتـابـين الأقدسَين كما أنها ابطلت عبادة العديد من الآلهة القدامى ، معتبرة ديانتها : التوحيد . ولـو كانت هنالك آلهة ثانوية فالمبدع واحد . هذا رأي الجمع الغفـير من الهنود . وظلت بعض المعتقدات سائدة في كثير من المناطق ومآلها : التعدُّد .

لقـد ظهرت في القـرن الثـالث (ق . م) بعـد انتشـار البـوذيـة ، شرائـع (**مانو**) القـائلة : تستقـر الـروح العليـا في أرقى المخلوقـات وأسفلهـا . وفلسفتـه تهـذيب النفس المفردة ، قبل التفكير بالجماعة ، وفي لجج الفلسفة الروحية . وقد اطلق على الديانة الڤيدية السـابقة هـذا الاسم (هندوكيـة) ، في القرن الثـامن بعد استكـمال تغلغـل الاغـراب في

الربوع الهندية الجنوبية خاصة .

من هذه الديانة ظهرت الـ (ڤيدانتا) . ثم عقبتها مؤلفات ضخمة منها : (Smiriti Shruti ، سْميريتي ، شْرُوتي والڤيدنْتا سُوتْرا وراما ياناوو) . واعمقها روحانية هي (الأوپانيشاد) من ترانيمها :

أُغنيةٌ لأَنْدْرا إلهة الآلهة الهندوكية :

« هو الأعلى من كل شيء ، وهو الأسْنى » .

I

إلهُ الآلهة ، ذو القوة العليا
ترتعد الكائنات أمام قدرته الغالِبهْ
هو قاهر الشياطين في السحابْ
ومُجري الأقمارَ السبعة ومقتحمُ الكهوفْ » .

II

« الأرض والسماء تعترفان بسلطانهْ
له البقرات وأفراس الحروبْ
وله القرى والمَساكن والمقتنياتْ
يفتح الأبوابَ الحُمر من شَفق الفجرْ
ويمزِّق السحاب الأحمر تمزيقاً
ليُرسل شآبيب المطر ونصدِّق تصديقاً به »

طُقوسُها :

اتخذت الهندوكية من الكهنة منطلقاً لنشر عقيدتها . فكانت الصلوات وممارستها خارج المعابد بواسطة الكهنة المتجِّولين ، وكانت عبادتهم للآلهة بواسطة الرسوم أو الرموز . في هيكل (سيڤا) يضعون الورق والزهور ويتلون الاناشيد المقدسة ويمارسون الرقص الأُنثوي احياناً ، كما تقدم الضحايا الحيوانية . وكان محظوراً على الهندوسي اذية

البقر والسعادين والأفاعي ، بأعتبارها تحمل قداسة خاصة . وكانت تمحي خطاياهم بالاغتسال في مياه نهر (الغانج) .

تمارَس الصلوات عادة قبل تناول الطعام ، وهنالك الصيام يومين كلَّ شهر . وكل ماء نظيف هو مقدس ، وبخاصة مياه نهر (الغانخ) الذي يطلقون عليه اسم : أمُّنا الغانج .

وها نحن مُلخِّصون حياة البَطَلين الروحيين (راما وكريشنا) لما تناقلته عنهما ألسنُ التاريخ العالمي ، ولما لهما من مكانة مقدسةٍ عُليا ، في نظر الهندوكيين ، رغم أن احدهما كان غريبَ المولد . لقد حملا بذور خيرٍ وصلاح ، وتفتحت على ايديهما ازاهير الرحمة والأخوة والسماح ، واطلَّت من جبينهما منارة التوحيد دافقة السناء . تناول هاتين الشخصيتين الأديب الفرنسي (أ . شُورا Ed. Schuré) فأسهب في الوصف والتقدير بمؤلَّفه : (أعاظم العرفانيين) قال ما موجزه :

كان شاعرٌ « ڤيديٌّ » يُنشد : « أبواي السماء والأرض عائلتي هذا المحيط السماوي ورحِمي ذلك المرتفع من الأرض جمعاء . هنالك يُخصب صدر تلك التي هي زوجتي وابنتي » .

الفصل الرابع

راما (Rama)

كان ذلك في مطلع الألف الثاني قبل الميلاد ، حين برز في أُوروبا بين قبائل الـ (دُرْويد) شاب روحاني اثار هواجسَه وجرح قلبه ما كان يراه من طقوس دينية ، تحتم مقتل الإنسان واهراق سيول من الدماء البشرية مرضاة لأحد الالهة المسيطرة هنالك .

غادر هذا الشاب موطنه إلى جنوبي البلاد حيث العبيد ، ملتقطاً منهم بعض الومضات التوحيدية فأثارَتْ في نفسه الشفقةَ على شعب موطنه ، فارتدَّ إليهِ ، وإذا بالطاعون منتشرٌ في انحاء البلاد . فتضاعفت آلامهُ . رَقَد ذات ليلة قلقاً ، إذا بخيال يلوح له ، وبيده غصن من الدِبْق ، يقول : يا راما خُذْ هذا وداوِ بهِ جماعتكَ . سقى

(راما) هذا الشرابَ السماوي فشفي لفيفٌ من جيرانه ، فذاع اسمه في المنطقةِ . وشملت خدماته اقصى البلاد .

حاول عبثاً إقلاع جماعته عن طقوسهم العنيفة الملحدة ، فجاءه ذات ليلة إلهام سماوي ، يُلحُّ عليه بالرحيل شطر المشرق . لبّى النداء وانطلق في جمهرة غفيرة ، منادياً بهم أن يقدسوا النار على الأرض رمزاً للقدرة العليا في السماء . وكان كذلك .

هبط ارض فارس أولاً وبنى بلدة (ڤارْ Ver) التي ألمح إليها (زرادشت) وحرث الأرضَ ، وأحيا المِهن . وأقام في العام الواحد أربعة أعياد ، لكل فصل عيده وما يرمز إليه . باذراً روح التحابِّ والتضامن والنشاط .

إن (راما) هو نفسه (إيما Yima) الإله الذي سبق ذكره ، والذي أوحى إليه (أهْرمزْدُ) الاله الأعظم ، بنبوآته ليبلغها إلى زرادَشْتْ الفارسي . وكانت كلمة إله تعني : نبياً أو ملهَماً روحانياً ، أو العقل الكلي : باطِنياً .

وقد ذكرت الكتب المقدسة الهندية أن (راما) بقدرته وعبقريته وطيبتهِ غدا مليك الهند جمعاء . ينحني له الملوك والكهنة والشعب بخشوع ومحبَّة .

حين بلغ الكهولة طُلِب إليه إيلاءهُ السلطة المطلقة في البلاد . فجاءه في الليل إلهام يقول : « إن رضيت بجاه الحياة فقدتَ نِعمة الإله » . فعاد (راما) لشعبه قائلاً : « أنا لا أطلب منكم إلا اتِّباع شريعتي وحسب » . وغادرهم مع جماعته الأبرار إلى جبل (ألبوزي Albori) ليعلمهم أسرار الكون ، ويوضح رموز شريعته ، ومغزى تلك النار المقدسة ، طالباً إليهم الانتشار في اصقاع الأرض مبشرين ، نافخين في نار الفضيلة والصدق والمحبة ، بنفوس العالم أجمع . وما هذه الأسرار إلا بذور الباطن العالمي .

إن العَقيدة التي كان ينادي بها (راما) في بلاد فارس ، عقيدة التوحيد ، والأسرار الباطنية وجدَتْ لها مسرحاً رحباً في الهند ، حيث (الڤيدا) ديانة القوم ، وهي تحمل من هذه البذور شَبَهاً رئيسياً لبذور (راما) حيث كانت قد سبقته إليها بأزمنةٍ ، يجهل التاريخ تحديدَها ومصدرها الأول حتى اليوم . أما الباطنيونَ فيُسرّون معرفته .

كـان الشاعـر الفيدي يتصـور الطبيعـة إزاراً شفافـاً ، تتحرك خلفـه القـوى الهـائلة الالهية .

وكان عند هؤلاء : (أنْدْرا) يمثل الحياة العملية للسماء ، بينما (قْرْنا) كـان الجلالـة الثـابتة وكـانت قبله (الفيدا) تعتقـد بآلهـة كُثرٍ متنـوعة . وكـان (أغني) منـظِّمَ العـالم ، والعنصرَ المذكر فيه ، و (سوما) العنصر المؤنث والنفس الكلية للبشرية جمعاء .

أليس هـذا ما سنـراه َفي : ديونيس وأورفـوس وهرمس ويسـوع وأعاظم الـرسـل في مجرى تاريخ الفكر الديني العام ؟

وصفـ الشاعر الهندي بِرَوعة وبلاغة (راما) معتبراً إياه سيد العالم ، وسيـد نفسه ، وحبيب النـاس . وانه هـو نفسه (يـاما Yima)مُلْهِمُ زرادَشْت ، المشـار إليه ، وهـو نفسه (أغْني) الذي يشير إليه بهذا النشيد :

أنتَ يا أغني ، تلك النار المقدسة الظهورْ
أنتَ النائم في الغاب والصاعد لَهَباً إلى العلاءْ
أنت صميم الاضاحي ، ورافع الصلواتْ . .
وأنتَ الشرارة المقدسة المغلغلة في كل شيءْ
أنت النفس الظاهرة في َكبد الشمسْ » .

كْرِشْنا : (Krishna)

كـان ملك قبائـل (المَنْـدُورا) في شـمالي الهنـد في الألف الثـالث (ق . م) يـدعى (كِنْسـا) وكان فخـوراً تياهـا . طلب من الكهنة أن يـوهبَ ابناً عـظيماً ، وخـاب طلبه إذ أومأت الكَهَنَةُ إلى أخته (ديكاڤي Dékavi) فحاول أخوها التخلص منها . لكنها بقوة عليـا افلتت منه متوغلة في الاحراج ، منصهرة بأشعة الشمس الـلافحة . عـلى ضفَّةِ النهـر رأت زورقـاً وكهـلاً ، قـادهـا فيـه إلى ملك الـ (Anachorètes ، أنـاشـوريت) (ڤـازَشْتـا ، Vaseshta) . رحب الملك بهـا بـأعتبـارهـا أخت الملك (كِـنسـا) . غـير أن الإلـه (Mahadéva مَهاديڤا) انتشلها لتصبح راهبة في معتزل بعيد .

هنـاك ، سمعت اصواتـاً موسيقـةً وتراءى خـلالها ، الإلـه (Mahadéva) : العقل

الكلي(ماهديفا) انتابتها رعشة عميقة ، وكانما هي تحس بكائن بذر في رحمها جنيناً ، وبصوت يهمس في اذنها : « هنا ستضَعين للعالم ابنكِ السماويَّ ، وسيحمل اسم (كرشنا Krishna) المقدس . إذهبي وسوف نسهر عليك . « وكان يومٌ وإذا بالعذراء (دَا) تحتضن طفلها (كرشنا) .

عند بلوغه الخامسة عشرة ، افتقد المراهقُ أمه ، فلم يجدها ، وكان آخر لقاء له بها ، اذ عادت حيث جاءت . تتبَّعها ابنها حتى هضاب (مارو Méru) حيث التقى عارفاً هَرِماً أبلغه : « إن أُمك عند الذي (لا يتبدَّل) عند من هو : أنتَ وأنا : إبحث عنه ، وناهِض الشرور لتلقاه . » تقبَّل كرشنا نصيحته ، وعمل بها مع صحبه المخلصين ، مطالعاً عقبات جمَّةً في سبيل تحقيق ارادة ذلك الصوت السماوي .

وأخذ كرشنا يلقي تعاليمه وارشاداته على تلاميذه مُوضحاً لهم عقيدة النفس الخالدة بتقمُّصاتها وان الجسد قميص لها ، وانها جوهر الحياة وان المرء مركب من روح ونفس وجسد ، الجسد للتراب والروح خالدة . ثم كان يتابع كرشنا بالتتالي بحثَ تعاليمه وتوضيحها حتى توصل لقوله : بما أني سيد الخليقة أُمرتُ طبيعتي الإلهية أن أتجلَّى كإنسان » .

كان كرشنا يحدث تلاميذهُ ، وكانت الصباحة والبراءة والطيبة تنفجر من غضون جبينه ، والبق عينيه حتى سحرهم فهتفوا : « كيف لم نتعرف إليك من قبل . ان (مَهافيرا) إلهَنا ، يتحدث بلسانك » . اجابهم : إن الجماهير لا تدرك إلا جزءاً من الطريق الطويل ، هَلمُّوا نرشدْهم إلى ابعادها .

ذلك هو (كْرِشْنا) واحدٌ من الأسماء التي تعني احد آلهة الهند ، هو نفسه (راما ، وايما وأغْني) انه الخالق والمدبِّر والمقاضي الأخير ، انه العقل الكلي في باطنية التوحيد .

كان يقول : « إذا أنتَ عاشرت الصالحين فما كَسبك ؟ عاشرِ الاشرار لتحولهم إلى اخيار » . ويكرر « العلوم كلها للجاه ، والأعمال الصالحة خادعة ، إذا نحن جهلنا ايصالها للاله الاسمى » . ويعيد « كل متواضع بقلبه وفكره ، محبوبٌ من الله . الله وحده يعرف الله . لا تدعوا اجسادكم تتغلب على أرواحكم » . وحين سأله احدهم : دعنا نتبعك فقد أحببناك . قال : « أنا صاعد إلى السماء ، تعالوا ، فالحب لا يرفض المحِّبين » . أي تشابُهٍ بين هذه النفحات القدسية وبين عِظات السيد المسيح بعد قرون .

لعل هذه الأقصوصة اسطورة،لكنها تحمل الشعائر السامية التي قدسها الهندوس وما يزالون ، ورَسْمُ (كْرِشْنا) مِلءُ ابصارهم .

في شريعة (كرشنا) ، الذات العليامذكر ومؤنث معاً ، لا كما كان سائداً من قبل : آلهة وآلهات للشمس والقمر ، وزوجات آلهات ، لا زواج آلهة ، وعقيدتُه : مع خلود النفس ، تقمصها من جسد إنسان لجسد انسان آخر ، حتى يتم صفاؤها وتلحق بعالمها الالهي .

كان يقول: «الله في اعماق كل انسان ، وقلائل يكتشفونه فيهم . ليس أن تعمل صالحاً ، بل أن تكون أنت الصالح . الحواسُّ هي رِحمُ الشقاء الآتي : مَن وَجَد في نفسه : فرحَها وسعادتها ونورانيتها ، أصبح واحداً مع الله » .

ولا يفوتنا أن الله الذي كان يعنيه (كرشنا وراما) هو : (مهاداڤا) ، وله صفات متعددة وانه غير الله المبدع ، بل هو أول المُبْدَعات والأسبقُ للتوحيد .

يظهر الإله المقاضي ، من دور لآخر ، تعزيزاً للعدالة والرحمة وتدمير الأشرار ، وتركيز الفضائل . وكان كرشنا يقول لتلاميذهَ : « لا تبوحوا بهذا إلا للمستحقين الذين يفهمونه ، فالمستحق يَقْدِرُ الفارقَ بين الأحد المبدع ، والمخلوق الأول مدبِّر الكائنات » . وكان كرشنا يُسِرُّ تلاميذه على الفكرة الذهبية الخالدة : « الرأفة والمحبة هما اثقل ما يزنه الميزان السماوي » . وقال : « سألدُ في أدوار مختلفة بغيةَ تدمير الشرور ، وتأثيل أفضلية الشريعة الاخلاقية ، والشرور ستتضاعف ، وأنا سأزداد تجلّياً لقمعها » . همُّه دفع عجلة الخير يومياً . وقد حذاه المعلم المعاصر (أوروَبِنْدو) معتمداً الـ (جيتا Gita) كلياً : اخلاقاً واجتماعاً وسياسة ، وهي آخر رسالة متطورة في الهند المعاصرة .

I

العقيدة الراماكرشنيه :

في العصر المتقدم ، انبعثت عقيدة (راماكرشنا) الباطنية ، مُستخَلَصةً من باطنيات الديانات السماويه . تُعنَى بممارسة (اليوغا) : اول من أسس هذا المعتقد القديس (راماكرشنا) المولود عام (١٨٣٤) والمتوفّى (١٨٨٥) في مدينة (كلكوتا) . بعد وفاته ،

تحمل اعباءَ الرسالة تلميذُهُ : (ڤيڤكَنْندا ، ViveKananda) (١٨٦١ ـ ١٩٠٢) الذي اعتصم قبلها سِتَّ سنوات في معتزلٍ (بِحَملايا) ، حيث ما برح هذا الجبل الشامخ الى اليوم قبلة الباطنية ، كما سنرى لاحقاً. انتشرت تعاليمه في العالم الغربي والشرقي ، مبشراً بالڤيدنتا (سنكاري) . انه فيلسوف عصره اسس مدارس متعددة ، أشهرها : (المورا) بجوار حملايا .

وان (لِفشنو) اسماء متعددة منها : ناريانا، وراما وكرشنا ذو المآثر الرائعة واعتبرهُ بعضهم : البوذا التاسع وهو نفسه (كالْكِنْ Kalkin) الذي سيظهر مخلصاً للبشرية ومُستَنّاً نظاماً عادلاً وعاماً وأبدياً لها جمعاء .

II

عقيدة أرْساماج :

مارست جماعة هذا المعتقد اليوغا بحرارة ومثابرة ، وطورت المعتقدات السابقة بما يتناسب مع العصر . انه شاب كان يدعى (دْيانَنْدا) من أصل (سيفا) رفض تعاليم والديه ، باحثاً عن اله واحد ، متأثراً بالمسيحية ، مازجاً بين تعاليم بلاده وتعاليمها . محتفظاً بنظرية التجسد والمعاد إلى النيرڤانا . وما برحت عقيدته تحتضن حتى اليوم زهاء سبعين مليون مُريد .

الفصل الخامس

فيدانتا

إنه كتاب مقدس يتضمن تعليمات وروحانيات الڤيدا القديمة ، ويستقي العرفان الصافي من الأوپانيشاد . البرهمان في الڤيدانتا هو الحقيقة العليا ، وليس لعالمنا نحن وجود حقيقي .

وبينما كان الحكيم (سنكارا) يقر المطلق ويعتبر عنصر الإله والإنسان واحداً ، كالشرارة من النار والقطرة من البحر، نهض الحكيم (Madhva مَـدْهڤا) ليُقر أن الإله شيء آخر عن المخلوقات ، ومادتها غير مادته ، شأن الفاخوري والجِرار . وقال: ان النجاة لا تحصل للمرء إلا بممارسة الفضيلة والتأمل والزهد بالدنيا .

وفي بـلاد الكشمير ، يؤمن الشعب بسيڤـا ، وبأنـه من مادة الإنسـان نفسه . ولكن تلطّخ هذا الانسانْ في سيئاته فبرز هذا الفارق بينهما . ويتلاشى كل فارق حين يكمل صفاء النفس بالتناسخ المتعاقب ، وتزول (المايا Mâyâ) المُسِيْئة .

وفي الألف للميـلاد شـاعت عبـادة الشمس بشكـل بـارز جـداً تحت اسم (سـورا Saura) ولعل هذه العبادة مقتبسة من ايران المجاورة .

لاهَمْسًا (اللاعُنف) :

حملت الڤيدنتا ، انبل الفضائل الإنسانية ، خلا مـا المعت إليه من التـوحيد للذات العليا وفي طليعة فضائلها : اللاعًنف . عرَّفهـا (مانـو) الكتاب المقـدس بقولـه : انها إذا مورِست بحقٍ وبمواصلة تضمن للإنسان عدم نقلاته ، لأنها تعني الرمـز الرفيـع : العذاب في سبيل الآخرين . وهذا ما رَفع المسيح على أعواد الصليب ، بعد قرون .

قال : (ڤكتور كوسان) : « حـين نطـالع بامعـان فلسفة الشرق والهنـدية خـاصة ، نقف على حقائق عويصة تضـطرنا ان نَنْحَني إجـلالاً لها ، فـانها اسمى أنواع الفلسفـة » . وقـال (اشبلنخل) « إن أسمى فلسفـة اوروبية تبـدو إزاء الفلسفة الشرقيـة ، بَصيصاً من ضياء ازاء فيضٍ غامر منه » .

هذه الفلسفة المعنيَّةُ هي ما تضمنتها الڤيدات والڤيـداتنا بعـدئذ . انها لا تتجـاوز في قِدمها حتى تاريخ الفراعنة الأقدمين . تُصوِّر الكون نسيجاً متطوراً من كيان الله .

ألمانُو :

هو كتاب جامع للشرائع الهندوكية ، وضعه أول عارف منذ القدم ، يحوي الشرائـع المتبعة حتى اليوم يقول الكتاب : « أشرُّ اعدائـك : الشهوة والغضب . من يـطبخ ليـأكل وحده ، فهو آثم ، ومن يهتمّ بمصلحته وحدَه سَارِق ، والذي يحيا لإرضاء حواسه يسبح في الآثام » .

هذا ما تضمنه قانون (مانو) منذ الآف السنين ، فأين نحن منه اليوم بعـد عشرات المدنيات والاديان وتصارع الفلسفات ؟؟

ومن محتويات الفيدانتا : العمل ملازم للروح لأنه كَسْبها . والأشياء النفسانية خارجة عن الزمان ، فلا نِسيانَ لها . والنفس جوهرٌ يتغطى تألُّقُهُ بِكدارةِ البَدَن . ثم ذكر المرجع أنواع التناسخ من : مَسخ (انتقال الروح البدنية إلى بدن حيوان) لِرَسخ (إلى نبات) ثم إلى فَسخ (النبات المقطوف). وجاء المؤرخ (فابْرْ أوليفا Fabre Olivet) موضحاً بُعدَ ما استشفَّه من الأغاني (الأُورفية) ومن (الأَلوزي) انه قد ظهر الخالق ، حاملاً النار السِّرية المقدسة ، وان عبادة الشمس والنار والجدود لتلك الشعوب المتأخرة جداً ، كانت المحبةُ لذلك المجهول وراءها كلها .

وقال اليوجي (دَنْدامِس) حين طلب إليه الإسكندر المُثول بين يديه : « إذا أنت قتلتني فان رأسي يفنى كهذه الأرض التي جُبل منها ، وانَّ أنَّاتَ المظلوم ستُصبح عِقاباً للظالم : ونحن البرهميُّون لا نتعشَّق الذهب ولا نرهب الموتَ لأن نفوسنا في طريقها إلى الله » .

الفصل السادس

المنبوذون

عرفنا مما سبق عناية الهنود البرهمانيين في وجوب تقسيم البشر إلى طبقات مُتفاوِتة قسمةً اصيلةً منذ خلق الإنسان . وكانت الطبقة الشعبية منهم تُدعَى : المنبوذون . فمن هُم هؤلاء ؟

انهم سكان الهند الأصليون المنتشرون بين الهضاب والأدغال ، والمستسلمون لعبادة كل ما يرون ويسمعون من عواملَ طبيعيةٍ لمئات الأشياء . وكان لكل قرية شيطانها ، وهو باعث الخصب في زعمهم للأراضي العواقر . وإن الأرواح الشريرة يبطلها السحر والرُّقَى وهي قليلة متواجدة في ظهرانيهم بالخفاء .

لما كانت (الكرما) مترفعة عن الطبقية ، في المعتقد الهندي ، فصحَّ لدى المنبوذين الاعتقاد بالتقمص وبالترقي ، من طبقة إلى أخرى ، إذا أحسن المرء العمل في حياته السابقة .

كان المنبوذون مدركين علاقة الإنسان بالأرواح وبالآلهة معاً . لقد ايقنوا بوجود ذوات غير مرئية ، منها الشريرة ومنها اللامبالية .

إن (الغارلاميزاما ، Garelamaisama) تسخط بعنف لدى مقتل اي حيوان انثى وكانت مشخصة تقطن شمالي الهند ، في بْهاغفنتارُو ، Bhagavantaru) يستقرُّ إلـه السماء (بْهاغفان Bhagavan) وكل روح مرفوضة هناك تستحيل شريرة والأرواح كافة تخرج وتعود إلى ذلك المستقر .

عبادتهم :

يَعبُـدُ هؤلاء آلهة عِدَّةً منها : الشمس والقمر وراما وسواهم . لكن هذه الآلهة جميعاً خاضعة لِلإله الأكبر (بْهاغفان ، Bhagavan) وللآلهة الأم . وهذا الإله الأكبر لا يعنيه شيء من تصرفات البشر . وقد تحدثُ صِلات بين الإنسان وآلهته مباشرة ، أو بواسطة ذوات خاصة .

انما الإلهات الطيبات كان بينهنَّ مَن يقي الشعب من الكوليرا والجدري لِقاء ذبائح دامية يقدمها الشعب عادةً من السكان المدعوين (غوندس Gonds) هذه اسطورة منسوبة إلى لينغو ، Lingo) تقول : إن شخصية الميت لا تسكن في الـ (جيڤ Jive) أعني عنصر الحياة ، بل تسكن (سانال Sanal) لـدى المتوفىَّ » وهـذا الـ (سانال Sanal) يتبع الميت إلى قبره وتُقدَّم له دجاجة ذبيحة وصلاةٌ تقول : « انت توفيتَ وقد غدوتَ إلهاً . واعتقد المنبوذون بأن الحياة بعد الموت لا تفرق كثيراً عنها قبله . المتزوجون يلتقون زوجاتهم ، والكثيرة الأزواج تلتقي الأول منهم ، أما البتول فتهبط لِعالم الإله (بْهِيمال Bhimal) ذلك المُتبتِّل مثلهنَّ » .

يتخيل هؤلاء المنبوذون آلهتهم قاطنة في اعالي الجبال ، واعماق الأودية والغابات ، وقليل منها يسكن السماء أو الجحيم . معظمهم يؤمن بالنفس منفصلة عن الجسد ، ومزودة بضمير حيّ . وكل ميتة طبيعية تسوق صاحبها لِـ (نابي Nébi) قرية في موضع مجهول ، حيث الحياة هنالك كما هي هنا ، والموت مرافق كل حَيّ .

وفي معتقد هؤلاء أن روح المريض احياناً تغادر جسدها إلى عالم الموتى ، ولن تعود

إلى الحياة إلا بذبيحة تقدم لإله الموتى ، فإذا تقبَّل الإله الذبيحة ، عادت الروح ، وإلا توفي المريض . لا ترتكزُ دِيانة المنبوذين على قواعد مخطوطة ، أو منقولة عن أئمة بارزين . . انها علاقة بين الإنسان وآلهة حميمة أو فاترة . وزعمهم أن العالم الآخر هو : إما تحت الأرض أو في أحد أطراف المشرق أو المغرب ، حيث الأرواح والآلهة . ولهذا العالم طبقات متفاوتة ، منها لأرواح البشر العادي ، ومنها للأرواح السماوية . ولا علاقة للسلوك بمستقر الأرواح تلك ، بل لكيفية تلك الميتة . والأرواح والالهة هناك في مرأى النظر ومسمع الأذن .

واعتقدوا بأن روح الإنسان بعد تقمصاتها قد تستحيل إلى جسد حيوان ثم بعدها تتلاشى نهائياً .

ألزُهْد :

من مقومات معتقد الهند القدامى ، اللاحقين المعتنقين للبرهمانية والنهدوكية ، هو الزهد والتخلي الكلي عن مِتع الحياة ، وتعذيب النفس . كل هذا كان من أبرز مسببات الفقر الذي ما برحت تعاني اهواله الهندُ حتى اليوم .

من أقوالهم : « النفس لا تشبع ابداً . لا تقطف بنفسك الثمرة بل دعها حتى تسقط بنفسها . آلزَمِ الصوم ، اياك واللحم والخمر ، تعرَّضْ لعوامل الطبيعة القاسية ولا خير في الجسد لأنّه وعاء لِلآثام والآلام » .

المرأة :

انها محترمة ومقدَّرة لِما يتوجب عليها مِن خدمات وطاعات ، ولكن ليس لها أيُّ خَيارٍ أكانت بنتاً أم زوجة أم عجوزاً. جنَّتها إرضاء بَعلِها . إذا ترَّملت لا يحق لها الزواج ثانية ، وفوق ذلك ، فأنها قد تُلقي بجسدها في النار التي تلتهم زوجها المتوفّى حُباً به وتحقيراً لهذا الجسد ، واملاً بدنيا أنعم . ذلك عكس ما تراه البوذية في المرأة ، وفي خذلانها : كما صرح البوذا لِتلميذهِ المُحاوِر (أُنندا) .

الفصل السابع

الباطن

لم يُدَوِّن المؤرخون أي رمزٍ باطنيٍّ في الهند القديمة ، لكنه ظهر بارزاً جداً في (الڤيدية) باعتبارها سماوية المصدر . إن العنصر الإلهي المؤنث (مايا Maya) هو رمز للحقيقة الباطنية ، وهو بذاته (شكتي Shakti) . كل شيء في الڤيدا مرتبط بالكائن الأعلى وهذا الكائن هو مشخص حيناً وغير مشخص . الأول (إشيوارا Ishiwara) والثاني (برهما) والباطن فيها أنها تحمل عقيدتُها استمرارية الصلة بين الظاهر والباطن ، والمكشوف والمستور ، والشائع العامي ، مع أرقى ما في الميتافيزياء . تتضمن الڤيدا زهاء الف نشيد من بينها (١٠٨) تُدعى (الأوپانيشاد) وهي باطنية النزعة وزُبدة الڤيدا .

ولنا في بعض مقاطع من اناشيدها أصدق دليل على عراقة الباطنية في الأوپانيشاد ، قالت أغنيةُ لأَغْني : إلهِ النار :

١ ـ « حين يرى قلبي هذا الكائن الساطعْ
يعتريني ارتعاش مذهلْ
وتدوي اذناي ، بأصوات غريبةْ
وتختلج عيناي للضياء الأنورْ
ثم تسبح نفسي . . تائهةً في عالم ارتيابْ
ماذا أقول . . بماذا أفكِّر . . ؟ »

٢ ـ لكرشنا :
« بحثتُ جِّدياً عن وجهِ حبيبي
فوجدته منقوشاً في قلبي
وجدته ينظر بعينيَّ الإثنتين
حين أصبحنا حبيبي وأنا . . كائناً واحداً .

٣ ـ ليست هذه الظِلال ظِلالي . انها ظلال قلب الحبيبْ
لقد غدَونا الآن حبيبي . . وأنا : كائناً واحداً » .

٤ ـ « أنا حبيبكَ . وأنا هو حبيبي . . أنت رفيقي . .
لم تتخلّف عني في تعاقب نُقُلاتي
ألستُ ظلالَك في حديقة الأزلْ ؟ :

٥ ـ انا المدعُو إلى مائدة هذا العالِم
عالِم الأشياء . . والكائنات الفانيةْ
أصبحتُ منعتقا من جميع القيودْ
لا انتسبُ إلى وطنٍ . . ولا توقفُني حدودْ

٦ ـ تحررتُ من الزمان . . من المكانْ . .
وأصبحت كَواحدةٍ من قطرات الندى
تنشأُ مني ومنك تلك المُحيطات » .

بهذه التعابير الوحدوية عبرت الأوپانيشاد عن باطنيّتها ، لتجعلها الأجيال الصاعدة اناجيلها .

أُوپانيشاد

عرفُها تاريخ البشرية بقوله : « إنها الحقيقة الواحدة (المطلق) ، وإيمانها بأن أرواح العباد هي واحدة مع جوهر الكون (البرهمان) . كل حي صالحٍ يعيش بعد موته ثانيةً في موضع ملذات ، وبالعكس حسب ما اسلف المرء من عمل ارضي . وهي تشير إلى (الكرمان) أي الحساب على الأعمال ، وإلى (السَمْسارا) أي العودة للتجسد . وتشير كذلك إلى وجود ادراك بـ(پْرَانا Prâna) وهو النَفَس الظاهر لكل (أتمان:روح) وهناك (المايا) أي القوة التي تحجب عن (الاتمان) حقيقة طبيعته ، والكرمان هو المنسِّق لكل عقوبة ومكافأة . أما السعادة الحق التي تنشدها الأوپانيشاد فتكمن في الانطلاق التام المسمى (ماكيشا Makecha) وكل اناشيد الأوپانيشاد المئة وثمانية ، تُعَبِّر بعمقٍ وبروحانيةٍ بالغةٍ عن مصير الانسان ، ومقاضاته ، وخلود نفسه بالنقلات المكررة ، وعودة كل روحٍ (أتما) الى جوهرها الأصيل: (الأتمان) أن الأوپانيشاد تبحث اسرار العالم الروحاني . ومن عباراتها : « اين خُلقنا نحن ؟ وأين نعيش ؟ وإلى أين نسير ؟؟ انتَ يا من عرف

(البرهان) قلْ لنا : بإمرة مَن نحن هنا ؟ هل بعامل الوقت أم الطبيعة أم العناصر ، أم بضرورة المصادفة ؟ أم إننا هنا من (Parusha) الروح الكلي ؟ أُولى عناية الأوپانيشاد بـ : تعليم الطلاب عدم الاكتفاء بالعقل . وأول مراجع العقيدة هي الاعتراف بأن جوهر الأنا ليس الجسد ولا الروح ولا الذات ، انما هو التعمق في الصمت . والمرّحلة الثانية هي أن (البرهمان) هو جوهر العالم الكامل ، غير مشخّص ، ويضم كل شيء وهو حقيقة الحقائق وفوق كل الآلهة . والمرحلة الثالثة هي ان البرهمان والاتمان شيء واحد ، وان روحنا اي القوة الكامنة فينا ، تختلط مع الروح الكلية العالمية . ان الأوپانيشاد تُعمِّق كل هذه الحقائق الثلاث مركزةً على عودة التجسد ، وعلى (الكرما Karma) المرافقة لها .

الفصل الثامن

التطور الهندوكي الأخير

كان قد حدث تطوُّر جذري في البرهمانية بعد الموجات الهندواوربية والتقارب الهندي الإيراني ، ثم بعد بزوغ نجم (البوذا آلسعيد) وافكاره المنافية لمعظم تلك المعتقدات وبعد المهاڤيرا ، وعراقتها وفقرها الرافض ، وما سنراه في فصلنا اللاحق . عنها حصل التطور الإخير بعد المسيحية والاسلام ، وبعد احتضان المبشرين لهذا ولذاك ، وبعد هيمنة الاستعمار الغربي ، وما بعث من لاهوتيين مختلفين .

في دائرة هذا المحيط المُزبد ، وخلال تلك الانواء المتصارعة ، كان لا بد للهنديٍّ من ان يقف متأملاً اكثر ، وجاداً اكثر ، ومتطوراً حكيماً اكثر . قام المفكِّرُ (كَشابْ شَنْدراسان ، Keshab Chandrasen) لإحياء الفيشنويَّة مُطعَّمةً بشيء من المسيحية ، فاستبدل بعض الطقوس ،منها تعليم البنات، وحرية تصرف النساء . معتبراً وحدة عميقة بين كل الديانات المؤمنة بالقدرة العليا الخلاقة ، ايًا كان آسمُها ، طالما هي تدعو للخير والصدق والحق . وقد اعتبروه نبياً عام (١٨٨١) .

جاءَ (ديانَنْداسَراسْڤاتي ، Dayananda Sarasvati) رافضاً كل تيار روحيٍّ خارجي معتصماً بالڤيدا وبما تحمل من رموز ، ودلالات على التوحيد والتقمُّص الصحيح .

وابطل الأوثان والتضحيات الحيوانية ، وكل ما تحمل الديانات الدخيلة من تكاليف ومراسيم .

ولم يفــترق سنكــارا Çankara عنـــه في شيء ، واثقــاً من ان كــل مــا تنصُّ عليــه المخطوطات هو مقدس ، لا يشوبه خَطَلٌ اطلاقاً . توفي سنكارا عام (١٨٢٠) .

ثم هبَّتِ الدول الغربية ، منها بدافع المعـرفة ، ومنهـا استجابـة للنظام الاستعـماري السـائد ، فأخذت تؤلف الجمعيـات ، وتشيد المـدارس الداعيـة الى التطلع صـوب المشرق البعيد .

في عـام (١٨١٤) احتضن الانكليز في مـدينة (كـالكوتـا) جمعيـة تـدعى (جمـاعـة الـروحانيـين) وفي عام (١٨٢٨) بنـوا كنيسة (بـرْهمازَمـاج Brahmasamaj) . تضم جمعية (عُبّاد البرهمان) ، حيث يمارس اعضاؤُها الطقوس الهندوكية والمسيحية والاسلاميـة معاً ، وشعارها : « العظمة الحق في انقاذ عدوك والفنـاء في سبيل غـيرك » . وأسَّس جدُّ الشـاعر (طاغور) جمعية لتركيز التوحيد على أُسسٍ هندوكية سليمة .

حـذا (ڤيڤْكنَنْـدا ، Vivekananda) خُـطى معلمـه (رامـاكْـرِشنـا Ramakrishna) فـاعتزل في حمـلايا ستَّ سنـوات ، بعد سفـره عام (١٨٩٣) الى (شيكـاغو) متـوغـلاً في الدراسات والمحاضرات الروحية . وقد عرَّف الغربيينَ حقيقة الـ Védânta ڤيـدنتا وكشف لهم روائع ذخائـرها الـروحانيـة ، ثم توفي عـام (١٩٠٢ م) معتبراً : (كـالي Kali) الإلهة العظمى هي «أمّاً له» ، وقد اوغل في الباطنية واعتبرها أسمى الديانات . واختار الأسلوب نفسَـهُ (أُروبندو غْهـوزْ ، Aurobindo ghose) فانشـأ مجلة شهـريـة : (أُريـا Arya) عـام (١٩١٤) قوامها كتب (الڤيدا) ، وما تنطوي عليه من حقـائق روحية ، وتجليـاتٍ إلهيةٍ ، وتقمصات بشرية وحبٍ للخير والسلام العام .

أخيراً بزغ نجم (شاري أتمننداً) فمثَّل الجلال والروحانية السـامية في هـذا المذهب الحديث .

وكان راما كرشنا مثالاً صادقاً لتلك الروحانية العالمية العميقة :

راماكريشنا : (المتحد بالله)

إنَّه المعلم الروحي الأكبر واليوغي المتقشف الزاهد ورائـد معبد (كـالي ـ Kali) على ضفة نهر (الغانج ـ Gange) في الهند الشرقية .

ولد في مقاطعة البنغال عام (١٨٣٦) . في كِبَرِهِ أخذت أزاهير الروحانيـة تتفتح في

نفسه وتكبر ، وتتعمق جذور أغراسها في تربة الباطن حتى غدا مُلقَّناً للحقائق الروحية ، متجاوزاً حدود الزمان والمكان في ما تراه العين الثالثة ويثبته الواقع . صرف معظم أيامه متأمِّلاً ناسكاً مفكراً ، شاخصاً شطر الحقيقة الكونية وسرِّ حياة الانسان وصيرورته . كان ينادي بوحدة الأديان والمسالك شرقاً وغرباً، معتبراً روافدها تنبثقُ من ينبوع واحد هو: كشف الحقيقة الكونية، ومعرفة الواحد الأحد المتعال والمنّزه. وحسب (كريشنا) تعريفاً ما أوضحه الباحث : (تْويتشلْ) في كتابه « مفاتيح العوالم السرِّية » ، بأنه « مسيح الديانة الهندوسية » . وقد عمَّر خمسين سنة كانت حافلة بالأعاجيب وبالمناداة الملحَّة إلى وحدة المعتقدات ، وإبطال الحروب وشدّ القلوب بسلاسل الحبّ الذهبيّة ، وكَحْلِ البصائر بنور الوحدانية ، وإخماد جُذْوات الأنانية الطاغية على النفوس .

كان « راماكريشنا » مُتشبِّثاً بهذا المبدأ : « من أراد سلامة نفسه ، عليه أن يتحقق من أن الله فيها » وعندها يلجم جماح أنانيته، ويصفو وتلتحق روحه بعالمها النوراني. أما بشأن التكاليف في الديانات فيُقِرُّها ، على انها شاغل للعقل ويُمْسِكُ بزمام « الأنا » عَدُوَّته .

كان هذا « اليوغي » النافذ البصيرة يصرِّح بأن من تدرك نفسه الكمال بالتوحيد ، يتأصَّل فيها حبُّ الخير ، فتَهْجَعُ في مِهادِ الحبِّ للخالق ولخَلقه . ولعمق انسانية مبادئه ، انتشرت في الشرق الأقصى وفي أوربا الغربية وبعض من أميركا وما تزال ، رغم تصدّي الديانات الظاهرة لها . قوام هذه المبادىء : ليس أهلاً لمعرفة التوحيد ، من لا يُحِسُّ الله في قرارة نفسه ، ومن لا تتحلى نفسه بالطيبة والبراءة والتواضع ، إلى أيِّ دين إنتسب ، وعلى أيِّ التضحيات المادية اعتمد . والحكيم الرائد لهذا المعتقد في هند اليوم : « ڤيفكنَنْدا » .

ملخص الديانات البرهمانية ـ الهندوكية

من أقدم ديانات العالم : البرهمانية ، قيل انها اتخذت مئات الالهة منها قوىً الطبيعة والحيوانات خاصةً الأفعى والبقرة والنَمِر وعضو التناسل . آمنوا منذ القدم بالتناسخ على أنواعه ، وبالروح الكلية ، مصدر انبثاق أرواح البشر . عبدوا سابقاً الاله (أنْدرا) المدمِّر . ثم سيفا وفشنو . في عُرفهم أن الحب هو الرباط الوثيق بين الإنسان وإلهه . وهناك إلهات انثوات معظمها زوجات للآلهة .

من إيمـانهم : الله واحد متعـالٍ ، تؤمن به معـظم القبائـل ، وقـوى فـاعلة خـارج قدرات الإنسان ، وهي مشخصة . وآمنوا بعالم ما بعد الموت . لا تعوزهم وساطة كهنوت بينهم وبين آلهتهم . والذبائح الحيوانية والإنسانية تسوق في زعمهم لهم الاقبال والسعادة .

في بَدء الكون يزعمون أن الإله (البْرَهْمان) أوجد الماء وفيه جرثومـة بيضة طـافية ، انبثقت منها المخلوقات . يؤمنـون بالعـالم الآخر وبـالدينـونة عـلى الأعمال . أعتـبر بعضهـم المثلثَ الهنديّ (برهما ـ فشنو ـ سيفـا) هي تجليات الالـه الأحد : الـبرهمان ، كـما اعتبروا نفوس البشر والآلهةِ ذات حقيقة واحدة كالشجرة وأوراقها .

حدث التطور في العقيـدة أولاً إثر المـوجات الهنـدو أوربية ، ثم بعـد انتشار البـوذية والجينيَّـة ، اخيراً في العصـور الحـاليـة بعـد تـطلعـات الفكـر البشري وخـاصـة الأوروبي والاسلامي إلى الروحانيات المتطورة .

البقرة رافقت قداستهـا الأجيال ومـا تزال . لهـا صُوَرٌ ورمـوز بكل منـزل . انها رمز الإيثار . بِالصلوات والابتهالاتِ تَتمُّ نجاةُ الهندوسيِّ ، أشهر كتبهم المقدسة : (الڤيـدات Les Vedas) ركيـزة عقيـدتهم : الكَـرمن ومعنـاهـا العمـل . انها المقـدرة غـير المـرئيـة التي تقود النفوس إلى التناسخ المتواصل ، بُغية تصفيتها واضمحلالها في المـطلق . والتجرُّد من كل الشهوات هو أفضل السُبل لِصفاء النفوس ووقف التناسُخ .

إن الڤيدا واليوغا هما الكتابان الأقدسان ثم احتلت (الڤيـدنتا والأوپـانيشاد) المـركز المرموق والاقدس . غدا لهم كهنوت وصلوات وطقوس متنـوعة ، ورُمـوز مختلفة . وهنـاك صيام يومَين كل شهر .

من أبرز شخصياتهم الروحية : (راما وكرشنا) . لهما تاريخ حـافل بـالقداسـات . واللاعنف هو الروح المتسربّة في صميم العقيدة حتى اليوم . وكتاب : المانو يحوي الشرائع وزبدة الفضائل . ما برحوا يحتضنـونهُ بحـرصٍ وتقديس . أمـا المنبوذون فهم سكـان الهند الأصليون القدامى . آمنوا بالتقمص والتناسخ وبوجود قوىً خفية فاعلة .

من معبوداتهم : الشمس والقمر والإلهـةُ الأم وراما . تخيلوا آلهتهم تسكن في اعـالي

الجبـال وفي الغابـات ، والأوديـة . آمنـوا بعـالم آخـر هـو تحت الأرض ، وهـو في الغـرب البعيد .

ظهر الباطن بجلاء في العنصر الآلهي المؤنث : (المايا) ، رمز الحقيقـة الباطنيـة التي ألمحتْ إليهـا الأوپانيشـاد في بحثها اسرار العـالم الروحـاني . ولهم كلمة مقـدَّسة تـدعى : (أُوم) هذا رمزها أدناه :

تلك هى الكلمة المقدسة (أُوم ـ Om) التي يردِّدها الهندوكي عندما يتأمل .

هذا الرمز مكتوب بالسنسكريتيه . انه شعار الهندوكية

(أُوم) .



المراجع العامة للديانات البرهمانية ـ الهندوكية :

أ ـ بالعربية :

١ ـ عباس محمود العقاد ـ كتاب الله ـ ص (٧٥ ـ ٨٥) (١٩٦٤).

٢ ـ احمد شلبي ـ اديان الهند الكبرى ـ طبعة ثانية النهضة المصرية ص (٢٨ ـ ٣٦) (٦١ ـ ١٠٤) .

٣ ـ عبد الرؤوف عبيد ـ الإنسان روح لا جسد ـ جزء أول ط/١ ص (٥٥ ـ ٥٩) سنة (١٩٦٦) .

٤ ـ المذاهب الكبرى في التاريخ ـ Alban. G. Widjerie ـ ترجمة ذوقان قرقوطبيروت ص (٤٧ ـ ٧٧) سنة (١٩٧٢) .

٥ ـ سليمان مظهر ـ قصة الديانات ـ طبعة اولى ـ ص (٥٠ ـ ٧٣) .

٦ ـ همرتون ـ تاريخ العالم ـ المجلد الأول الفصل (٢١) الصفحة (٦٨١ ـ ٦٨٧) طبعة ثانية .

ب ـ المراجع الأجنبية :

1 - Louis Renau, L'Hindouisime. (Collect. que je suis je), Paris (966) P: (8 - 120).

2 - Lue Benoist, L'Esotirisme, Paris (965) P; (64 - 69).

3 — Encycl. générales (La Rousse) Tome 3 (1968) P: (529) — 540).

4 - ChMourrey, Hist. de la Civilisation Ch. (14) P: (157 - 176) - (312 - 341) (962).

5 - R. Laffont. hist de L'humanité; Tome 3 P: ((412 - 415) (1969).

6 - Ed. Schuré, Les grands Imitiés, P; (39 - 77) - (89 - 148) (1960).

7 - R. Algrain, Hist. des Religions. Paris (957) (détaillé).

8 - D. Drioton, Les Rel. de L'Orient Ancien, Paris (956) (détaillé).

9 - Paul Masson Oursel; Hist Générale des Religions, V.4, P: (3 - 11) - (16 - 23) (1960).

10 - Les grandes Religions du Monde, Ed. Rachedien (1966) - P (11 - 49) (95 - 105) (275 - 279).

الباب الحادي عشر

الفصل الأول

الديانة البوذية والجينية

Iالبوذا :

سـادت الڤيدا وتلتهـا الڤيدانتـا ، ومئات الأفكـار الثانـوية ، سـائـر هضـاب الهنـد وشواطئها ، واستمرت هذه السيادة حتى القرن السادس (ق . م) حيث دق ناقوس الخطر على تلك المعتقـدات ، يحـرك رقّـاصـه الضخم ، فكـر شـاب وقـاد الـذهن ، عميق . . التأمل ، بعيد البصيرة ، وعريق المحتد والروح الإنساني . انه (البوذا) .

حياته :

ولـد البـوذا العـظيم في بيت عـريق وثـري . فَقَـد والـدتـه في أول رؤيتـه للنـور ، فاحْتَضَنتهُ خالته ، وانشأهُ والده في غَمرة الحنان والعطف والسخاء . وما أن يفع الفتى حتى لاحت دلائل النبوغ من ومضات عينيه ، فطالما كـان يهجس ، وكانت تحـز في نفسه رؤيـة الألم والحرمان . كانت تراوده بالجناح الروحي : (المايا) .

وقـد نقلته قـدماه في طـريقه فشـاهد بـام العين مـآسي الناس . شـاهد مـريضاً يئنُّ

ويتـأفّف وعجوزاً خـائر القـوى يتحسر ويتلوَّع . . وشاهـد جنازة عـابرة في مـوكب مطرقٍ وباكٍ .

أيقـظت هذه المشاهد الشفقـة في أعماق جـوارحـه ، وأمعن الفكـر في الحيـاة ، وفي الخلاص من مآسيها . أيتَّبع عقيدة السلف ؟ وأي نفع جنت البشرية منه ، وأية جراحـات لأمتها ؟؟ أيغرق في التبتّـل والتصوُّف والابتهـالات ؟ وماذا كـانت ثمارهـا ؟ أما ضـاعفت معاناة الإنسان ، واطفأت كل بارقة سعادة دنيوية في عينيه ؟؟ إذاً ماذا ؟ .

بعد جُهد وسهر ليالٍ ، في التأمل العميق وجد أفضل السبل هي الطريقـة الوسـطى في الحياة . انها سبيل النجاة : حيث الطمأنينة الأبدية .

كذا كانت بـداية حيـاة البوذا العـظيم ، وقد أضفت عليهـا الأساطـيرُ صوراً واخيلة شوَّهت حقيقة هذه الحياة المقدسة ، والبست عقيدَته العريقةَ في تطورها المنطقي ، وشاحـا ميتافيزيكياً ، على مختلف الأجيـال . قبل أن كـانت أسفـار الڤيدا قد بشَّرت بمـولده ، وأن اسمه في الهندية يعني : (الحكيم) .

وقال الدكتور شلبي : « كان البوذا معلماً ، ثم رجلاً مقدساً ، ثـم إلهاً معبوداً ، بعـد وفاته . كان يتنكَّر لكل مباهج الحياة ومغرياتهـا . إنما كـان مولـده ، مولـد شريعة جـديدة متقدمة » .

لقـد اخـرج العقيـدة من الهيـاكـل إلى البيـوت والمـدارس ، وجـردهـا من شـوائب المعتقدات وتكاليفها وما ورائياتها . الكون عنده هـو الإنسان بجسـده ، ورفيع شـمائله انها أدب سلوك وفلسفة حياة . والحقيقة وسطٌ بين طَرَفين .

مبدأه :

منذ شبابه الأول ، كانت قوى البوذا الفكرية ، متجهة لتخليص العالم من : المرض وألم الشيخوخة والموت ، وهذا ما رآه بعينه . وقـد ازمع عـلى هجر منـزله الفخم إلى أحـد الجبال النائية مُتنسِّكاً . كان يردِّد بـألم : «كم أنتَ معذب أيهـا الإنسان، وقعتَ في شبـاك المـوت والعذابِ ، والحيـواتِ المتعاقبـة المَقيتة ، والهمـومُ تلازمـك كظلِّك . عـليَّ أن انقـذ المخلوقات برسالتي ، مهما حاقني من مخاطر » .

كـان يتساءَلُ: أين المعـرفة الحق، وكيف الـوصول إليهـا؟ إن استئصال الـرغبة من النفوس هو مفتاح الفرج . ولكن لزوال الرغبة ، يجب القضاء على الجهل .

والمعرفة هي تلك :

إدراكُ الإنسان بالحقائق الأربع : ١ ـ صدور الألم من عدم بلوغ ما يرغب به المرء . ٢ ـ هذه الرغبة تسوق الإنسان إلى زخارف الدنيا وطيباتها . ٣ ـ نقضي عليهـا حين نسيـطر على أنفسنا . ٤ ـ حتى نسيـطر عليهـا يتـوجَّب الفهم السليم ، والمسلك القـويم والكـلام الصـادق ، والفكر النقي والاطمئنـان . كما يجب أن نحب كـل ما يـدبُّ على الأرض وأن نتحرر من كل غضب وشهوة .

وموجز الحقائق الأربع : الولادة والشيخوخة والمرض والموت . وكلها ألم .

قـال (د . بْريـدل كيثْ) في تاريـخ العالم مـا مـوجـزه : حـين بلغ بـوذا التـاسعـة والعشرين من عمـره ، زهد في دنيـاه ، أمل بلوغ غـايته ، لكنـه ما لبثَ أن عـاد عن هذا الأسلوب الحياتي بعد أشهر ، لعدم يقينه بجدواه . وهذا كان المفترق بين البوذية والمهافيرية (الجينية) ، التي سنوليها الدرس اللازم .

كان (بوذا) لا أدْرياً في مسائل ما وراء الـطبيعة ، وكـان يرفض التحـدث بالمـطلق وبـالروح ، وكـان تساؤلـهُ : أليست الاستنارة الكـاملةُ تؤدي إلى عقيدة الفنـاء التـام بعـد الموت ؟ وكان ينبذ كل ما يتعدى مدارك الإنسان ، الـذي هو كـالجريـح ، يطلب العـلاج لشفائه ، ولا يسأل عن السلاح الذي جُرِحَ فيـه . إن الإنسان في نـظره مسوق إلى التغيـير المستمر : جسداً وروحاً ومشاعـر شأنـه شأن العَجَلة المؤلَّفـة من العديـد من القطع ، فهي ليست قـائمةً عـلى أساس ثـابت ، إن هذا الـترتيب الذي يُحـدث الإنقلاب ، ويُحيي الآلام معهـا ، لا يبطله غـير المعرفـة الحق ، حيث تضمحل الـرغبات ولم يـدع لنفسه أيـة صفـة لألوهة أو نُبوَّة إنما وصفوه بحياته : (بالمُستنير) ، حين أُلهم شريعته تلك .

إن (غُوتـاما بوذا) كان قد تلقى نور المعرفـة بينما هـو جالس تحت شجـرة (البو) في غابات (جايا) بمدينة (بَهار) الحديثـة . وقد بنى لـه الملك الفاتـح (آسوكـا) ضريحاً هـو اليوم من كبريات معابد الهند ، اسمه (ألبَدَهْ جـايا) قُـربَ شجره التـين التي جلس البوذا

تحتها في تأملاته . كان مولده عام ٥٦٣ ـ إلى ٤٨٣ ق .م) وكان بناء الهيكل في القرن الثاني ق. م .

إن البوذية القديمة تحتّم الخروج من دائرة الحياة ، واطفاء كل رغبة وشهوة في النفس حيث بلوغ الحياة الصافية ، الصالحة للولوج في الاستنارة والسكينة المسماة (النيرڤانا) إذ تنطفىء النفوس (أَنَتَّا Anatta) .

كان للبوذا قواعد خمس أوجبَ الالتزام بمراعاتها كلياً بجوٍ من الزهد الكامل : « القتل والسرقة ومعاطاة الجنس ، والكذب والاهمال » . .

ورُوي عنه حوار طريف مضمونه : إذا ضُربتُ ورُجمتُ اقول عن الفاعل انه طيِّب . وأن طُعنت بالسيوف حتى الموت أقول انه طيِّب ، لانه خلّص هذا الجسد بلا كبير عناء . ومع ذلك فقد بلغ الثمانين من العمر .

من تعليمات البوذا لتلاميذه ، تأكيداً على إيمانه هذا ، قوله : « أيها المريدون : اعلموا أن الحقيقة المقدسة العليا ، قائمة على الألم ، إذ أن الولادة هي ألمٌ ، والشيخوخة ألم ، والمرض ألم ، والموت ألم والتلاقي مع من لا نحب ألم ، والفراق عمن نحب ألم ، وعدم بلوغ الأرب هو ألم » . وكان يقول : « أيها المريدون ، أن الحقيقة المقدسة على أصل الألم هي التعطش للبقاء الذي يؤدي إلى تتابع النقلات . أيها المريدون : إن الحقيقة المقدسة لإزالة هذا الألم هو : اطفاء هذا التعطُش ، بخنق كل رغبة وبإزالتها من الجذور . أيها المريدون : كل ألم نتحَسسُه مصدره العميق هو رغبتنا في استمرارية الحياة ، حيث لا هجعة فيها للنفس . أيها المريدون : إذا لم تتعرَّوا من الانانية ، لن تتخلصوا من الألم ، كذلك فأنكم إذا لم تبتعدوا عن النار ، لن تنجوا من الاحتراق . ايها المريدون : لكي تخمدوا جذوات الألم في صدوركم وصدور الآخرين ، هَبوا لِلغَير انفسَكم ، وتبنّوهم كأنما هم أنتم » .

لقد ورد في انجيله : « الحق اقول لكم : إن الذين يسلكون بالاستقامة في جميع أعمالهم ، لا تستعبدُهُم الشهوة ، والثروة ، والقوة ، والزاهد الذي يسلك سبيل البطالة والكسل لا يربَحُ شيئاً ، لان حياة البرِّ تتطلب السعي والعمل : من يجاهد ويتغلب على

ذاته في الحياة ، لا يُبغض ولا يُحسد ، والفرح والسلام والبركة تستقر في قلبه » .

وقال لأتباعه : « إن للمحيط الكبير طعماً واحداً هـو الملوحة ، ولعقيـدتنا نحن طعم واحد هو الخلاص » .

وهـذا تاريـخ الحضارة يصرح : « منـذ عصر (الأوبانيشـاد) ومبدأ الشـك قـائم في نفوس الكثير من الشعب الهنـدي . وان من أناشيـدها : (Swasamved سْـوازْنْقاد) عـدم وجود إلهٍ قط ، ولا سماء ولا جحيم . وان التقمص لا حقيقة لـه . كان ايمـانها : ليس إلا الكون . وما (الفيدا) و (الأوبانيشاد) إلا مؤلفات سُخرية مجنونة . والشعب منجذب إلى الآلهة والهياكل والكهنة ، بالكلام المعسول . وفي الحقيقة لا يوجد أي فارق بين : (فشنـو والكلب): في شيء » .

إن رائد هذه العقيدة هو : (Brihaspati بْريهَسْباتي) الذي كان يعتـبرُ أن كل مـا لا تحدُّه الحـواس ، غـير مـوجــود . وان الـروح هي غــرور محض والـ (Atman . أتمـان) أضحـوكة . قـال أن المادة وحـدها هي الحقيقـة الأصيلة ، والجسد هـو مجمـوعـة ذرات ، والـدماغ صنيـع المادة . الجسـد هو الحـاس ولا روح إطلاقـاً ، وهو الـذي يسمـع ويـرى ويفكّر . . ويسأل منذا رأى روحاً متميزةً عن جسد ؟

ويذكر المرجع نفســه « يقول البـوذا : في الهند اثنـان وستون رأيـاً في النفس ، فأيهـا الصحيح لا أحدٌ صحيحاً . ويعيد المـرجع . في البـوذّية مـذهبان : الأشتكتيّة ، وتعني : المُثبتة ، والناشْتِكية أي الرافضة . وقد أخذ (بوذا) بالثانية » .

وبالإضافة إلى ذلك الرفض فقد سخر (البوذا) من الطبقية التي تمارسها الـبرهمانيـة كان يرى الدنيا جاهلة وغافلةً ، لا شريرة وخبيثة ، والناس كلهم سواسية امام الشريعـة . وكانت الشجرة التي ظللته حِينَ أُلْهِم شريعته ذات قيمةٍ رفيعة لدى البوذيين ، فهي مقدسة وأطلق عليها اسم : شجرة العلم . يُذكِّر فـرط مُناداتـه بالـرأفة والحب ، بكـلام يسوع : « ملكوتُ السماواتِ هُنا في نفوسكم » .

وكم سُمع البوذا يُرَدِّدُ على مسامع مريديه : (ما سؤالكم عما لا يجدي من نظريات ، ومن عقائد باطلة ، لا تستحق جواباً . ماذا بعـد الموت ؟ وكيف تتجـدد الحياة . التفكـير

بهذا يعذِّب العقل ويُنهكُ القوى ، ولا يطال نفعاً لانه عَبَث) . (محمد عبد السلام) . كان طبيعياً في بوذا ، ألاّ يبني هياكل ، ولا معابد صغيرةً ، ولا ممارسة أية الشعارات الدينية ، حتى أن أتباعهُ راحوا يضعون له تماثيل في معابد الهندوس ويعبدونها ، تعلقاً به وارضاءً لِضلالهم المسيطر .

إن أقوال البوذا وتعاليمه كانت هي الكتب المقدسة لدى تلاميذهِ ومؤيديه ، كما كانت حياته مليئة وقاراً ورصانة وحكمة وعقلانية وحباً . هي النبراس الذي اضاء سبيل مريديه لأمدٍ غير طويل ، مُبدداً عن عقولهم ضباب الماورائيات ، منقذاً نفوسهم من بُؤر الأوهام والأساطير .

روى تاريخ الحضارة أن أحد البرهمانيين جاء مرة (بوذا) يقول : سأذهب إلى مياه (الغانج ، Ganja) مغتسلاً لأمحو ذنوبي . فألتفت إليه بوذا برصانة وقال : « يمكنك أن تغتسل هنا . كن خيِّراً مع جميع الناس ، ولا تكذب ولا تقتل أي حيوان ولا تتناول إلا ما يعطى لك . وبعد هذا ، اغتسل في أي ماء نظيف شئت ، فتَطهر حقاً » .

بهذه الروح الإنسانية العريقة كان التاريخ السليم ، يستشف باطنية المستنير الخالد . وهذا برهان آخر على نبل احاسيسه وتقدميه افكاره المتحررة . قال : « ان القداسة وسلامة النفس ، لا تكمن في معرفة الله والكون ، بل في نكران الذات، وتقديم الصالحات » . وما كان (المَهاتمابوذا) ليعير أي اهتمام لا للخلود ولا للإله ولا لأي حساب أو عقاب مستقبلي . كان اعتماده الكلي على الحياة الدنيا ، وعلى القيام المتواصل بالمبرات ، ونكران الذات . وكانت تلك خلاصة تعاليمه ومعتقده قبل أن يتناولها التزييف والزيغ والانسياق .

أعتقد بعضهم بعد وفاة البوذا بأن روح الله حالَّةٌ فيه . وزعم بعضهم أنه كائنٌ الهيٌّ اتى لينقذ العالم من الشرور . وقال اعوانه أنه لم يتكلم عن الله ، لانه هو الله نفسه . (Rylands ، رويلاَنْدْسْ) صفحة : ٣١٨) وكان هؤلاء لم يسمعوه مرة يقول : « إن العارفين يتحدثون عن الله ، ولم يره أحد فحالهم حال العاشق الذي يذوب شغفاً ، وهو لا يعرف من هي حبيبته » .

كان البوذا على غاية : في الجرأة والحزم ، وفي صدق الرسالة . سُمع يقول : « إنني

صاحب رسالة . عليَّ أن أبلغها كما عليَّ انقاذُ جميع المخلوقات ، ولن أتخلى عن إيداء هذا الواجب ، ولو سقطت علي أمطار من الصواعق » . وهل رسالة البوذا هي كل ما ألمحنا إليه في هذه السطور القليلة ؟ انها خلاصة الاصالة الإنسانية ، وجوهر العقلانية المتفتحة ، وقفزةٍ ولا أجرأ ، في محيط يستعبد النفس والفكر ، إلى مستوى التحرر من الطقوس القديمة ، وصهر الوعي في أتونِ الوجودية . فالْنُعِرْ سمعنا إليه ثانية : « إن الطيبة والمحبة عَمودانِ يرتفعُ عليهما هيكل الهناء الداخلي الدائم » . ولدى رؤيته صياداً بيده سمكة تتخبط ، صرخ به : « اتركوا الحياة لمن هو في الحياة » .

يقول إنجيل بوذا وهو ليس من تأليفه ـ انه ليس أول البوذوات ولا آخرهم فمريدوه يترقبون مجيء (بوذا) جديد ، يخلِّصهم من شقائهم الطويل .

لقد مضى (البوذا) وظلت تعاليمه يتعشَّقها الملايينُ لنُبل مضمونها . . وبَعد مماته راحوا يعبدونه .

وفي العام (١٨٨٨) نَشرتْ بلندن الكاتبة (Hélène Blavatsky ، هيلين بْلاڤاتْسكي) ، تقول « العقيدة الباطنية » ، جعلت من البوذا ، ذلك العرفانيِّ العظيم ، غير أن الكاتب (H. Arvon ، هـ . أرڤون) في مؤلفه : « الباطنية » رفض أن يكون للبوذا أيةُ صلة أو شبه صلة بالمبادىء الباطنية . البوذا نفسه مسؤول عن ذلك الضياع بسبب مُلابساته الكثيره .

أن الأُسس الأربعة التي اتَّخذها المستنير غوتاما بوذا ركيزة عقيدته هي :

أ ـ الألم انه من لوازم الوجود ، وللتخلص منه يجب إتّباع الطريقة الوسطى في السلوك والمعاش ، أعني عدم التطرف في أي سلوك حياتي .

ب ـ سبب عودة التقمص هو الانغماس بالشهوات في الحياة السابقة .

ج ـ لعدم العودة إلى التقمص يقتضي الخلاص من الشهوات وصولاً إلى النجاة والتخلص من أي ألم وبلوغ النيرڤانا .

د ـ وجوب الابتعاد عن كل عقبةٍ تحول بين الانسان وخلاصه من هذه الشهوات ، المرجع : محمد فريد وجدي (دائرة معارف القرن العشرين) ج (٢) ١٩٧١ .

يقول المؤلف (أدْوين أرْنولد) في كتابه « نور آسيا » ما يلي : « لقد تحدث بوذا مع تلاميذه موضحاً عدد نقلاته ، شأن سلفه الروحي الكبير (كريشنا) ، وانه سيتقمص إلهاً للعدالة والحرية في بلاد فارس حاملاً اسم (ميتريا ـ Mytra) . هذا الاسم عَنَى الإله (ميترا) الذي حاربت عقيدتَهُ وأفنتها المسيحية في الغرب ، وبروما خاصةً ، وكانت هذه العقيدة باطنيةً، داعيةً إلى التوحيد، ونابذة مغريات الحياة الدنيا . وهي كما عرَّفها الأخصائيون والمرجع السابق نفسه، و (واحة النور) ، شعلة مُنْبَثَقُها المشرق القديم، حيث التمعت قبل . وزادت هذا التعريف تأكيداً : دائرة المعارف الأميركية ج (١٩) ط (١٩٧٩) .

وقد اعتبر بعض فقهاء الاسلام البوذا نبياً ومنهم الباطنيون استناداً إلى الآية **﴿ومنهم من قصصنا عليك ومنهم مَن لم نقصُصْ﴾**.وقبل خاتمة حياة « بوذا » أعلن بنفسه لتلاميذه أنه ظفر بآخر تقمّص له . وانه عائد إلى سفوح حملايا حيث الملك العادل .

النيرڤانا :

هي بإيجاز : السرُّ والحلُّ لكل الآلام التي تعتري الإنسان : مرض ، شيخوخة ، رغبات ، فموت . قال البوذا لتلاميذه لدى تعريفها : « هي طور ، لا أرض فيه ولا ماء ، لا نور ولا هواء ، ليس فيه خلاء ولا عقل غيره متناه ولا مكان ، ولا إدراك ولا لا إدراك : لا موت ولا ولادة » .

وصرح العلامة البوذي (رادْها كرشْينْ) : إن البوذا رفض أن يشرح النيرڤانا بل اكتفى بالقول : « متى كَفَّ الإنسان عن المعاش من أجل نفسه ، تيسَّر له الصفاء والسكينة » . وطالما لا نهاية للشهوات ، فستستمر عجلة النقلات واللاسكينة .

النيرڤانا هي : اللاّوهم والراحة ، والتغلب على الموت . هي : الانقطاع من الوجود ، وهي الوصول إلى أعلى درجات الصفاء الروحي ، للخلاص من ربقة الكرما . يتم ذلك بتعميق الثقافة الروحية ومحبة الآخرين . وللوصول إليها لا حاجة لملاذٍ خارجي . بنفسه الإنسان يخلّص نفسه .

والنيرفانا في الهندوكية هي الاتحاد بالنفس الكلية ، وفي الجينية هي تخلص الروح من مادتها ، وفي البوذية هي نهاية التقمص : الإنطفاء .

الأئمان :

تحدَّثنا عن رفض بوذا لما وراءالطبيعة ، ومنها الروح وقال (أرڤون Arvon) مؤكداً : « إن الهندية في قرارتها ، وجدت في عذوبة وطمأنينة العقيدة البوذية ، بلسماً ناجعاً لإطفاء هواجسها من تعدد تناسخها » .

وقد فلسف تلاميذه عقيدته فآمنوا بأن هناك روحاً تتقمص وتحاسب على أعمالها في كل جيل ، وأن الإنسان يحصد ما بذر وسيبذر ، والجنة والنار على الأرض حيث الحساب الأخير . والمخرِّبون يدوم تقمّصهم .

اللاَّعُنف :

باللغة السنسكريتية الهندية كلمة عُنف تعنى (هيمس Hims) واللاَّعنف(لاهِيْمسَا L'Ahimsa **وفي نظر البوذية فان اللا عنف لا يعني الشفقة، بقدر ما يعني إخماد الأنانية،** لعدم تجدد التناسخات . واللاَّعنف تفسره البوذية الأولى : بالانشاط .

أشوكا :

إنه أحد ملوك الهند الفاتحين البوذيين، وكان على المسْلَكِ الهينيانيِّ الصغير. عاش في القرن الثالث قبل الميلاد . تعشق العقيدة البوذية ، واستسلم لتعاليمها الأولى ، حتى اطلق عليه اسم : (قسطنطين البوذية) . او بالأحرى هو : (أشوكا المسيحية) . عمّم الديانة في كل اجزاء الهند .

الفصل الثاني

تطور البوذية

بعد وفاة (البوذا) والقاء رماده في نهر الغانج ، استيقظ تلاميذه وشرعوا مع الأيام

الطوال يُطورونَ عقيدته بما يتلاءم مع الجو الهندوسي ، الذي غدا في تطور عقيـدته ، أكـثر انتشـاراً وقُبولاً لانـه يُبعد فكـر الجماهـير عن أصـل إيمـانها الأول ، في مـا أضيف إليـه من تعديلات وما اختُصر من مُطوَّلات .

كانت العقيدة نظاماً اخلاقياً ، وعادت إلى الإيمان بالماورائيات . مع الاعـتراف بإلـه أعظم ، مدبرٍ ومبدع الكائنات .

إن الكتب التي تحوي تعـاليم البـوذا الصحيحـة ، تـدعى (سُـوتـروپيتـاكـا ، Sutropitaka ، و ڤينوياپيتاكا Vinoyapitaka): عن (Lamotte لامـوتّ) بوذا (ج ١ ص ١٩٨) انه شبح أتى العـالم لكي يعلم (الشريعة) ، ولم ينقـطع قط عن تحريـك دولابها ، وتصعيدها في اتجاه فكريٍّ واحـد . ان ((البوذا)) هـو السيد المستنـير والمرئي ، والمنقـذ ، ولكي ينجـز مهمته كمنقـذ ، وجبَ ظهـورهُ بـأشكـالٍ متنـوعـةٍ ، ولغـايـةٍ واحـدة هي : «الخلاص» . بل هي الاتحاد بالمطلق. وليس هذا المطلق ذاتاً كـما هي الحال في الـديانـات السـماوية . لكنـه غـير مشخص ، كـما هي الحـال في (الـبرهمـان والسنكـارا) وفي مـطلع دعوته ، كانت نظرة (البوذا) للمرأة غير محببة ، ولم يعرها أي اهتمام . لكنه مؤخراً عطف عليها ، ومنحها بعض الحقوق . وله حيالها مواقف صارمة في بدء تعاليمه .

أميتابا :

إنه الرائـد البوذي الـذي اشتهر في مـطلع الميلاد ودُعي بِـ : « الألق المتنـاهي » كان محبوباً جداً من الجماهـير . زعم أن بعد المـوت ، أرضاً رائعـة على طـريق النيرڤـانا . هـذه الأرض (سُـوكُوڤـاتي Sukhuvati) أعني السعيـدة ، تقـع لنـاحيـة المغـرب ، وهي دافقـة بالضياء ، مليئة باليواقيت المتنوعـة ، وبالحـدائق الغناء . سـاكنوهـا يتمتعون بفـرح غامـر وبخلودٍ ، بواسطة تعاليم (أميتابا) المشخص والمستقر وسط هذه الأرض .

نلحظ الإنحـراف عن الخط البـوذي هنـا . وتَصـوُّر محـطةٍ بـين مستـوى الأرض والنـيرڤانـا . ولا يعوز الإنسـانَ الانهماكُ في الأعـمال الصالحـة والحكمة والـرويّـة مـلايـين السنين ، يكفي التفكير العيمق (بـأميتابـا) وبخاصـة لدى دنـوِّ الأجل حتى يحضر بنفسـه لخلاص ذلك المستغيث .

أما النيرڤانا ، بعقيدة (أميتابا) فهي رائعة ، فائقة الوصف ، تقع خارج حدود الحياة والموت . حيث كل المعارف عابرة ، فلا موضوع ولا مادة له .

أزَنْكا :

إنه تلميذ آخر لبوذا جاء بمبدأ مختلف عن معلمه . اعتبر الكون بمجموعهِ كالحلم ، (سُوپينا Supina) ، بل هو وهم تأتّى عنه مرض لرؤية خادعة . لا توجد الأشياء إلا بأدوات المعرفة ، ولا حقيقة لشيء خارج هذه المعرفة .

كان (أزانكا) مجارياً لرفيقه في المعتقد (Nagarjuna ، ناغرْجُونا) القائل لا شيءَ موجود . لا كائنٌ ولا غيرُ كائن ، ولا عَدَم . هناك مظهر للتقمُّص وحسب . وما النيرڤانا والتقمُّص هذا إلا كقطعة نقودٍ ذات وجهَين ، وهي واحدة . التقمص والاضمحلال هما حقيقة واحدة . الأولى ملطخة بعامل المشاعر الأرضية ، والثانيةُ ذات مظهر صاف مُطَهَّر . تتجرد من التلطُّخ وتحتفظ بالصفاء . ذلك هو المسلك الوسط ولا شيء إلا الفكر .

وشاعت في الهند مع العقيدة (الراما كرشنيَّه) المعاصرة ، وتلاحمت بها عقيدة مضمونها يتلخص في أن الحياة هي البحث عن الحقيقة الأصيلة الأبدية ، وأن الإله كامل فينا . وهو ذلك الكائن السماوي الذي يحمل : القدرة (يوغا) والمحبة والحكمة .

وجاء طاغور (١٨٦١ ـ ١٩٤١) منِّسقاً مبادىء انسانية شرقية غربية ، حول النفس البشريه وصلتها بالمطلق ، وحول الاتحاد بالإله ومسألة النهضة . على غير المبدأ الذي استنَّه من قبل (نيتشة) الفيلسوف الالماني .

الفصل الثالث

المدارس البوذية الكبرى

كانت تحمل العقيدة البوذية في مضمونها بوارق انفتاح وتطور . وما أطل القرن الثالث للميلاد ، حتى أصبح للعقيدة ثماني عشرة مدرسة . المشهور منها ثلاث : مسلك

الهينيانا وسلك المهايانا ، ثم مسلك الڤجريانا (تانتريك) وكلمة (يانا) تعني مسلك .

الهينَـايانـا هو المسلك الصغـير ، وقد انتشر بـرغبة ملحـة في جنـوبي الهنـد وسيـلان واندونيزيا وجوارها . والمَهايانا هو المسلك الكبير وقـد ذاع مكتسحاً الصـين واليابـان . أما الڤجريانا (التنْتريك) فقد عمّ (مونغوليا الخارجية وبلاد التيبت) وفيه اللاَّميَّة التي سنُلمح إليها لاحقاً .

أ ـ الهينَيانا :

لقد أُطلق على مسلك الهينَيانا : الصغـير ، لان اتباعـهُ أَبَوا أن يقبلوا أي تحـريف أو تعديل بالعقيدة لذلك لم ينـالوا الاعتبـار والتقدير اللازَمـين من سواهم . لكنهم استـطاعوا التغلغل في كافة البلاد الواقعة عـلى الشاطيء الجنـوبي الشرقي للهند : بـيرمانيـا ، سيام ، الهند الصينية عدا أندونيسيا .

واعتصام هؤلاء بحرفية العقيدة مرده إلى تعاليم (البـوذا) الصريحة في اتبـاع العقيدة كما هي وبعد مؤتمرات ثلاثـة كبرى كـان آخرهـا عام (٢٤٥) ق.م . في عـاصمة الفـاتح أسوكا : (Pataliputra پاتليپوترا) . يومذاكَ أقر المؤتمر نهائياً التمسك بالتعـاليم البوذيـة كما صدرت عن المعلم نفسه .

أبـرز شخصية في هـذا المسلك (بودَّاغْهـوزا ، Buddhaghosa) المولـود في النصف الثاني من القرن الرابع للميلاد . كان برهمانياً ثم اعتنق البوذية ولزم المعتصم (مهـاڤيهارا) في سيـلان ، حيث غـدا المقـر الـرئيسي لبث دعـوتـه . أشهـر مؤلفـاتـه وأعمقهـا : Visuddhimagga ، ڤيزُودْهِيماغًا) أيْ طريق الطهارة . واعتبروا هذا المؤَلّف الناسك الأب الأكبر للعقيدة الهينيانية .

ب ـ المَهايَانا :

باشر دعاة هذه المدرسة المهايـانية ، في مـطلع الميلاد دراسـة امكانيـة تطور العقيـدة مجاراة للعصر ومستجداته . وكان اعتمادهم الرئيسي عـلى احاديث (البـوذا) وتصرفاتـه وما

نقل عنه الرهبان الثقاة ، خلا عما تضمنته الشريعة .

ولما كانت حياة المعلم المديدة زاخرة بالاحداث ، وكان لكل حدث عنده حل واضح ، فقد اعتمد معلمو هذه المدرسة كلَّ ما قال وقيل عن البوذا ، شريعةً مستجابة . فتخلصوا بذلك من التحجُّر والانعزال الذي مُني به جماعة الهينيانا .

وما شجَّع هؤلاء على تأسيس مدرستهم تلك ، كلام المعلم نفسه لأحد تلاميذه أنْندا قال : « بعد خمس مئة سنة يا أنندا ستنتهي شريعتنا الصالحة » .

هذا المسلك الكبير تركز على الشفقة والمحبة . وكان الناسك منهم يتوجَّع إذا فكر بأنه سيدخل النيرڤانا (الطمأنينة) وغيره خارجٌ عنها . هَمُّ الجماعة مواصلة السعي لخلاص كل الناس أياً كانت عناصرهم .

وثقوا من وجود شفاعة عليا ، وحتَّموا على أن (بوذا) ثلاث حالات : إنسان وإله ومختصٌ بالمخلوقات . وهو روح الشريعة المجرد في كل جسد ، والمختلط بالمطلق : أساس كل شيء . وفي هذا المذهب تلاشى البوذا المجسد ليخذ فيه روح الله .

ويلاحظ بجلاء إيمان هذا المسلك بوجود بوذيات عدة منها : (أديبودا) المخلوق بنفسه والذي انبعث منه العالم . وتلاه انبعاثات (لبوذيات كثيرة ولبوديز تْفاهات) . وكان البوذا (أميتابا) هو النور الأبدي .

وفي منتصف القرن السابع للميلاد سطع نجم ثاقب في المسلك المَهاياني هو الشاعر (سَنْتيداڤا) . نادى بالرأفة العظمى وبوحدة (الأنا والأنت) على عكس المسيحية الفارقة بينهما . (هـ . أرڤون H. Arvon : ص ٧) .

لقد نفى (سانْتيداڤا) وجود الأنا اطلاقاً إذْ بنفيها ينتفي التضاد . من **أقواله**: كل حبٍّ للغير هو حب للذات ، فالانانية والغَيريَّة في هذه الحال هي واحدة . وإلى القارىء الكريم بعض افكار إنسانية مثلى لهذا الشاعر الفيلسوف .

قال : « إذا وَهَبْتُ ما أملكُ فماذا يبقى لأقتاتَهُ ؟ هذه الانانية تجعل منك غولاً . وإذا أكلتُ فماذا يجب أن أُعطي ؟ هذا السخاء يجعل منك ملك الآلهة » .

وقال : « كل من يسبب الشقاء لغيره لكي ينعم منفرداً ، سيُشوى بنار جهنّم . وكل من يشقى لسعادة الآخرين حَقَّت له السعادة المتناهية .

وقال : « لقد حاقت التعاسة كل هؤلاء لأنهم يبحثون عن سعادة أنفسهم وقد عمرت السعادة قلوبَ اولئك ، لانهم سعَوا لإسعاد غيرهم » .

ونُقل عنه قوله « بالحق لا يمكن الحصول على تقدير (البوذا) ، ولا على السعادة في العالم الزائل ، إلا لمن جاهدت نفسه لإزالة شقاء الآخرين » .

وقوله : « لكي أُلطِّف من الآمي والآم غيري ، أتفانى في سبيل الغير واعتبرهم كنفسي » .

وقال : « يا قلبي : لِتكنْ عقيدتُك : أنا مُلك سِوايَ ، وكل افكاري تتَّجِهُ عاملةً لمنفعة غيري » . بهذه العبارات الموجزة أكدَّ الشاعر عمق الروح الإنسانية في هذا المسلك المهاياني « الكبير » ولذا نجده قد اجتاح الصين واليابان لما فيه من بذور الإنسانية والغيْرية ، التي يألفها بطبعهِ الصينيُّ واليابانيُّ والمنغوليّ .

الفصل الرابع

II الجينيّة

إن الاستاذ المؤرخ (H. Bareau) قد أعار العناية التامة لبحث المذهب الجيني في الهند ومن أفكاره الرئيسية ، تلك :

كانت عبادة الأفعى متمكنة الجذور في نفوس الهندوس ، وكان الناس بين بُسطاء بُلهاء خاملين ، وبين صادقين وأذكياء . هؤلاء آمنوا بتعاليم (Pars'va ، پارس ڤا) الذي اعتمده (مهاڤيرا) باعث العقيدة الجينيَّة ومنظّمها ومنسقها .

الأجسام كلها مترابطة بالنفس ، وهذه هي عنصر غير مادي ، وهي في اعداد متناهية . يعتبرون الحياة غير أبدية ، تنتهي حين لم يعد الجسد صالحاً للبقاء . وفي نهاية كل دور ترجع النفس تستعيد تجسدها ، في مختلف الأشياء : (حيوان ، انسان ، إله) والعمل هو الذي يقرر المصير الآتي ، ويعطي النفس لوناً خاصاً : من أسود لأبيض لأصفر . .

في معتقدهم كل الآلهة متعالية ونورانية ، يحيط بها امراء وجيش من الشعب . وهنالك آلهة العالم السفلي : آلهة النار والماء ، يظهرون مع الريح والبرق والصواعق . بينما الالهة السماوية فانها تنزل أرضنا أحياناً ، وتسكن في العُلى . أما الاله الواحد الخالق فغير معترف به لديهم . لكل شيء في الوجود عندهم روح : تراب وماء ، نار ونبات ، كلها أنفسٌ نباتية . غير أن المتعارف بين هؤلاء جميعاً ، احترامهم الفائق للحياة . وقد حذروا من الزواج ومعاطاة الجنس ، في كل الحالات ، معتبرين أن هناك جراثيم حية متعددة ستهدر ، لذا فقد وجبت العِفّة . وإن اكتساب المعارف عندهم له الأثر البالغ في رقي النفس .

يزعمون أن كل إله إنما هو على صورة إنسان ، لكنه فائق القدرة والطبيعة . ويمكن أن تنال النفس حسابها في جسدها الحاضر أو فيما بعد ، معتقدين مع البرهمانية امكانية بقائها ، عكس ما نادت به البوذية .

وقد سطع نجم الجينية بسطوع البوذية . في العصر نفسه ، قاد ثورتها : (المهاڤيرا) اعني البطل القاهر .

يقول تاريخ البشرية أن هذه العقيدة تأسست بواسطة العديد من المعلمين أشهرهم (Pars'va ، پارس ـ ڤا) في القرن الثامن (ق . م) وجاء (مهاڤيرا) متمماً للرسالة السابقة .

إنها شعبة من الهندوكية ، ظهرت في الشمال الشرقي من الهند . كانت ملحدة ، لا تعتبر إلهاً خالداً . كل آلهتها خاضعة للتقمص والحساب (كارما) . ولم تتعد حدود الهند انتشاراً . وجاء تاريخ الحضارة ليقول ان قائد الجينية هو من قبيلة (Lichchavi ليكشافي) النبيلة .

وحين بلغ الولد عامه الواحد والثلاثين ضحّى أبواه بنفسيهما تزهداً . تألم الشاب إلى أعماقه ونزع عنه ملابسه وأخذ يطوف في ربوع البنغال الغربية كمتعبِّد ، باحثاً عن حقيقة تنقيته . بعد ثلاثة عشر عاماً من هذا الطواف ، هبَّ مجموعةٌ من مرافقيه بإعلانه : (Jina ، جينا) أي الفاتح . زاعمين انه سيبعث النور إلى أرجاء الهند ، وبعدئذٍ اسموه **(مهاڤيرا)** .

يؤمن هؤلاء بالتوبة وانسحاق القلب ، واللاعنف إلى أبعد حدوده وصولاً إلى (النجاة) . من طباعهم : الضمير الحي ، والخلق القويم . أتخذوا قانونهم : لا تقتلْ ، لا تكذب ، لا تأخذ ما ليس لك ، ولا تكن فاسقاً .

ثم اعتبر هؤلاء حق المرأة كحق الرجل في بلوغ الخلاص ، كما آمنوا بتقديم القربان للآلهة :من زهور، وبخور، وشمع ثم من مدائح . ولهم نظام كهنوتي دقيق، لعله سبب بقائهم حتى اليوم . على انهم عادوا مع الهندوس إلى نظام الطبقات : وعبادة بعض آلهتهم مجاملةً وحسب .

الكَرْما :

هي عندهم كائن مادي يحيط بالروح احاطة الفَيلجة بالفراشة . تتحرر منها بالتقشف فقط ، وبتكرار الولادات . بعدها تنطلق الروح إلى النعيم الأبدي الذي يسمونه : (النَّجاة) . وهو كالانطلاق والنيرڤانا البوذية . دينهم تقشف حتى العُري ، وأشرفُ ميتةٍ يتوقعونها : الإنتحار .

في مبدأهم يواقيت ثلاثٌ مَن مَلَكها بلغ اللذة القصوى . هي : أولاً : الاعتقاد بالقادة الجينيين الأربعة والعشرين بعد تخلص النفس من آثامها وشهواتها . ثانياً : العلم الصحيح ، المادي والروحي معاً : (صفاء اشراق كلي ، كشف حقائق عليا) . ثالثاً : التخلق بالمكرمات على أقصى مضمون الكلمة . لا قيمة لدى الجينية للصلاة إطلاقاً ، لأن نظرتهم للآلهة لا تحمل العمق الروحي الكامل ، إنْ هي إلا بشرٌ متفوق وحسب .

إن اختلاف هذه العقيدة عن البوذية هو في : ١ ـ النظرة الكاملة للمرأة ٢ ـ **الاسراف في التنسُّك وقهر النفس ، وتجنب قتل أصغر الحشرات ، وقداسة الإنتحار**

٣ ـ إعادة العقيدة إلى ملايين السنين الخالية حيث (أُدينات) أول رائديهم ٤ ـ خلود النفس وكونها أما خفيفة لصفائها ، فتصعد أعلى السموات ، أو ثقيلة لأوزارها ، فتهبط إلى سبع طبقات سفلية .

الانشقاق :

توفي المهاڤيرا عام (٤٦٧) ق . م . وبعد وفاته لعبت بعقيدته يد القدر فقسمتها فرقتين : الـ (Digambara ، ديڠامبارا) وهم العُراةُ المتجولون حفاةً ، واحياناً بيدهم مكنسة لِطرد الحشرات من تحت أقدامهم ، خيفةً عليها من السحق والـ (سْڤاتمبارا Svetambara) وهم أصحاب اللباس الأبيض . لكل من هؤلاء فلسفته الخاصة ، دونما مسٍّ لأعماق المذهب .

كلهم اعرض عن الزراعة لأن فيها قتل الحشرات . وقد أولعوا بالصناعات المتنوعة ، فأتقنوها ، ومهروا فيها ، وتفوَّقوا : بناءُ كهوفٍ وتماثيلَ ومعابدَ وغنموا منها أموالاً طائلة . لم يتجاوز عددهم المليون والربع ، وكلهم يسكن الهند .

الفصل الخامس

مسلك التنتريك

ظهر هذا المذهب بالهند في القرن السابع للميلاد ، منشطراً على المهايانية ومحاولاً التوفيق بين مدارس بوذية مختلفة . وما لبث أن انقسم إلى تَنْتَرِّيةٍ وشَكْتيه .

تناولنا الشكتية سابقاً وألمحنا إلى مفارقاتها عن البوذية ، وخاصةً في النظر إلى المرأة ، فالمرأة كان قد منحها هذا المذهب التقديرَ اللائق ، بأعتبارها أحد العنصرين المتممين للخلق (Purusha) أي : الزجل ، ثم (Prakriti) : المرأة .

أما التنترية التي برزت للعمل الفعلي منذ القرن السادس للميلاد بما ظهر لها من مؤلفات ونشاطات إعتبرها كثيرون كشوفاً ربّانيةً ، لها مستوى المقدسات السابقة في الهند . إن معنى كلمة تنترا هو : الكتاب وسُميت به ، لما لقيّ من وقع مؤثر في نفوس بعض الهنود . يعبر هؤلاء التقدير لِكلمة (مَنْتراس Mantras) إذ لدى التفوُّه بها مهما كان همساً ،

تتشرع أبواب المُطلق . وقد حملوها محفورة على قطع من المعدن للتبرك بها .

يقـول المؤلف (Arvon) : كـل ابتهـالات هؤلاء وكتـابـاتهم لا تتضمن العمق الصحيح ، غير انها تلمُّ بالسحر وبقوى ما وراء الـطبيعة الفـاعلة ، كا [illegible] وبأيقاع التنفُّس .

يؤمن هـذا المذهب بـأن الفكر هـو غلاف كـل شيء ماذّي . لهم إلهـات متعـددة ، وخمسُ بوذيات ، يطلق عليها اسم الـ (جينـا Jina) الظافـر . هذه الخمس هي للجهـات الخَمس ، ولها ألوانها الخمسة : أخضر ، أحمر ، أصفر ، أزرق ، وأبيض .

تسكن هـذه البوذيـات في العلى دائـماً ، وهي جوهـر الشريعة الأرضيـة ومنسقهـا ، ينبعث منها أرضاً خمسة بوذيات مشخصة ، تُعايش الناس وتـطبق الشريعة العليـا ، وتهدي إلى سبيل النجاة .

الفصل السادس

اليوغا : (le Yoga)

إن دراسـة الديـانات في الهنـد خاصـةً ، توجب القـاء نظرة عـامـة عـلى مـا اسمـوه (باليوغا) فما هي ؟

تعريفها :

ليست ذاتـاً ولا هي حقيقة ، ولا هي مستقلةٌ ومشخّصـة بشيء ولا جـوهـر لشيء انها عمل وحقلٌ لعملٍ ولتحُملِ أعباء . لا تُعنى بأية عقيدة روحية ولا بالوّرعِ والتقوى إنها رياضة أكثر منها ثقافة . واليـوغي ليس بناسـكٍ ولا هو فـاجر مـاجن ، بل انـه يمارس بأختياره المطلق رياضـة تحمل الـزهد . لا ينتـظر مساعـدة احد ، ولا يتهـرَّب من مُجتمعه قط . والكلمة تعني الرباط النفسي في عرفه .

تاريخها :

من الثـابت أن الممارسـات اليوغيـة في الهند بـدأت في منتصف الألف قبل الميـلاد . ويقول بعضهم إنها أقدم من ذلك بكثير .

مهمّتها :

إن اليوغي يتبع طريقته الخاصة كأنما هو وحيدٌ في العالم . لا يبالي بمشاكل الناس ، أياً كانت . ولا يفكر ابداً بالموت ولا بالعدم ، بل بالروح الحية التي يُكِّنها جسده ، ويعمل على تنشيطها بالممارسات الرياضية البحتة . هناك روح وجسد ، وهناك تناسق بينهما ، بالحركات التنفسية خاصةً وبسواها . ومن الخطأ اعتبار اليوغا عملاً رياضياً جسدياً وحسب ، بل هو مشاركة : روح وجسد ، للنمو والتناسق الكامل بينهما ، وصولاً إلى حياة مطمئنة في جسد سليم .

اليوغا هي مدرسة خاصة متميزة بالجرأة والاقدام ، وبالدم البارد لدى الاحداث ، ثم بالاستقلالية التامة . انها تقاوم عوامل الطبيعة المحلية وعوامل الإنسان الداخلية ، من هواجس واضطرابات اعصابٍ لأيٍّ من المسبباتِ خاصةً : الألم واليأس . وهي حرب على السفسطات والشعوذات السحرية . تتركز المعرفة عندهم على القدرة ، وهي عملية بَحث وصراعٌ داخلي لتأمين الراحة النفسيةِ كاملةً لدى من يمارسها . وقد اعتبرتها (الأوپانيشاد) جزءاً رئيسياً من عقيدتها . لذلك فقد عمَّت الشرق الأقصى بأجمعه وهي اليوم تدغدغ الفكر المعاصر بِوَلعٍ ومُمارسةٍ جسدِّيّة .

فوائدها :

إن اليوغا تُعنى بالخلاص أو بما يسميه البوذيون (النيرڤانا) ولكن خلاص احياء عاملين نشيطين فرحين . في مقدمة تعاليمها ، أن يكون الإنسان ضَحوكاً حتى في أشد حالات الضنك والألم . وإن السعادة الحق هي في التحرر المطلق من كل معتقدٍ ، وكتاب وطبقيةٍ وانانية ، المرجع : (اليوغافاسستها ص (٩٦) تأليف (See Atreya ، سي أترايا)

إنها تعلم السلوك النبيل الحي ، ولا تفرض التنسك ، ولا التبُّتل اطلاقاً . عندها الآلهة هم سادة متسامون امثال : راما وكرشنا . فعلينا أن نتخذهما مثلاً أعلى لنا في الحياة لانهما من الأبطال المتجلدين الشرفاء اللطفاء .

والملاحظة الرئيسية التى تعطى لليوغيِّ هي أن يكون سيد نفسه ، والسيد المسك

بزمام اعضائه ، لكي يقوى على التغلب على مشاكله الداخلية ، من : حمق ، وحقد وآلام وحب جامح وانانية . وبكلمة موجزة : لا همَّ لليوغي بالطبيعة ولا بالمجتمع . همّهُ : جسده الذي يعتبره عالمه الحق . وعليه يتوجب خلاص هذا الجسد ، طيلة عمره ، من المنغِّصات والمؤلِّمات .

كثيراً ما يُرى اليوغيُّ على جنبات الطرق أو في وسط الغابات مستغرقاً مستسلماً لأحلامه ، مؤتزراً خرقة بالية تكاد تكسوه . ونراهم لافّينَ ساقاً على ساق مُشَعَّثي الشعور ، يُحدقون بالشمس ساعات طوالاً . ومنهم المشاة حُفاة على الحجار ثم بعضهم يَدفنون أجسادهم حتى الأعناق بالتراب ، ويأكلون ورق الشجر والبندق ، بغية قتل احساسهم ، أملاً بزيادة علمهم ، وبعضهم يتجنب كل ذلك ملتزماً منزله .

تعني كلمة (يوغا) إخضاع الإنسان لنظام تقشُّفي متزهد ، بغية طهارة الروح من ادران المادة وقيودها ، لأن المادة في عُرفهم هي أساس الآلام والجهد .

إن غاية اليوغا كما يعتقد مُؤلف « قصة الديانات » هي تحرير النفس من ارتباطات الجسد بشَهَواتِهِ ، لبلوغ الاستنارة والخلاص في حياة واحدة لا تتكرر . كما لها غاية ثانية هي التكفير عما يمكن أن يكون قد اقترفه الإنسان في حياة سابقةٍ لهذه .

لبلوغ الغاية المنشودة من اليوغا يتوجب التركيز تَدْريجيّاً على :

موت الشهيَّة : (قناعة تقوى نظافة) ثم إيقاف كل أحساس في وضع معين للجسد (قَدَمان ، ذراعان ، ذقن ، نظر) تنظيم التنفس وافراغ العقل من شواغله ، السيطرة على كل الحواس ، التركيز حساً وعقلاً ، على شيء واحد . ثم أخيراً التأملُ وتأملُ الغَيبوبةِ حيث يُمحي من الذهن كل تفكير ، خلا التصور الإلهي .

الفصل السابع

الباطنية في الهند

ليست الباطنية ديناً معيناً جاء في زمن محدد ولِبشرٍ متميزين . انها أعمق جذوراً من الفلسفة وأبعد تطلعاً من المعتقدات الروحية الظاهرة . تؤمن بحقيقة خفية منذ وعى

الإنسان ذاته . عايشت كل الحضارات ، وتميَّزت بخصائص لا تقرُّها الديانات الظاهرة . انها سرٌّ التعاليم الروحية ، محظورةٌ إباحته ولا يمكن بلوغه إلا بالرموز . للباطنية شكل الديانة ومضمونها العميق . ترى العالم : مادة وروحاً وفكراً . تعتقد بأن الرمزية الصحيحة تنبُع من صدر الطبيعة ، وهي رمز الحقيقة العليا ، هي لسان الفكر المتناهي ، يتّحد مع الفكر اللاّمتناهي . هذا الرمز هو المفتاح الذي يُظهر مضمون الأسرار ، هو خيط المُنقذ الشهير (أريان ، Ariane) الذي يوصل تنظيم الحقائق المختلفة .

ليس العارف الباطني إلاّ خادماً متولّجاً بنقل قدرة متفوقة عليّه . وليس من سرٍّ يأتي من خارج الإنسان : كل ما هو هنا هو هنالك ، وكل ما ليس هنا ، ليس في أي مكان آخر .

مهمة الباطنية بايجاز : السعي لمعرفة الحقيقة العميقة في الكون ، التي تسعى إليها الديانات الظاهرة أو لا تسعى قط . إنها تلك الشرارةُ الوضاءة الواعيةُ المتوجّهةُ لِكلِّ جهةٍ بدءاً من وسط الإنسان نفسه ، المتمثِّل بقلبه . انها تحقق التفتّح الكامل لكل امكاناته ، والقلب لديها هو مستقر **الألوهة، وما على الجسد إلا موافقته**. عن (R. Huxley الفلسفة الأزلية ر. هُوكْسْلاي) .

إن السر الأصيل يتحقق تلقائياً وليس بارادة أحد أن يذيعه ، لأنه لا يُفهَم . ومحظور شيوعه ، ولا يمكن الإفصاح عنهُ إلا بتلك الرموز المُتناقلة منذ القدم . غالباً ما تكون هذه الرموز كلمات وإشارات وأرقاماً وخطوطاً مُتباينة وطقوساً وما إليها . على ضوء هذه الرموز أمسك العارفون بحلقات تلك السلسلة المذهبة منذ القدم ، حتى العصر الحاضر ، وبكل الحضارات خاصةً مصر القديمة والشرق الأقصى واليونان .

إن العارف هو الأب الروحي ، والباطنية هي الولادة الثانية ، ويسمىّ بالهندية ذلك الأب (غُورُو ، Gourou) . وكل إنسان باطنيٍّ يحمل في قرارته أباهُ الروحيَّ .

إن كُتب الڤيدا الهندوكية ليست صنيعة الإنسان . وطبيعتها الدوام الازلي ، ومواطنَ هذا العالم . تتركز على النَغم المعتبر لدى الباطنية : الصفة الكونية ، وما هذه التموجات الصوتية إلا كواشف للحقائق ، ولباطن العالم . ألم يدعُ إلى هذا الرياضيُّ الروحانيُّ : فيثاغورس ؟ .

إن الله لديهم هو الذي يخلق الإنسان ويدّمره ، والإنسان يحتضن الهه ويكشفه . ان التبدل المستمر للأشكال المخلوقة، الذي يتلاعب فيها، جعل منها ضالّةً أسماها الهندوس بالـ (مايا ، El Maya) . وهذا الشكل الأنثوي (شكْتِس Shaktis) ، أو المايا غـدا رمزاً لحقيقةٍ خفيَّة .

إن البـاطنية في الهند خاصـةً ، قد بـدت واضحة جـداً ، لأن هنالـك اتصالاً غـير محسوس بين الظاهر والباطن ، بين المتناول بيُسر وبين ارفع ما في الماورائيات .

لا يَعتبر الهندوس شيئاً خارجاً عن نطاق المعـرفة البـاطنة للعقيـدة . وقد تجلَّت هـذه المعرفة في اثنتين ، (دار شماس ، Darshamas) : الأوپانيشاد واليوغا . وقام بتأويـل هذه الرسائل شخصيتان (شَنْكَرَشاريا Shankaracharya) التابع للإله : سيفا ، و (رَمانوجا ، Ramanuja) المؤمن بالاله : فشنو .

أما الاوپانيشاد فان تأويلاتها تُلمح إلى الهدف المتعالي للمعرفة الباطنية . إنها العقيدة والعلوم النظرية معاً . واليوغـا مهمتها أن تصف الـوسائـل التي تسمح وتُفضي إلى الاتحـاد والجذب : (سَماذْهي ، Samadhi) . لوك بنوا ، Lue Benoist) .

وهذه احدوثـة تُصور لنـا مدى تعلق الهنـدوس بالبـاطن : أوعز (Rikiou ريكيُـو) ملك الشاي لابنه ، كي يتقن تنـظيف الحديقـة . شرع الابن بتنظيف الـدَرَج ، والممرات وسقاية الأعشاب ، وإزالة الغبار عنها . لكن الأب لم يطمئن لهذا العمل الجدّي بـل صرخ بـأبنه : « **إنك أحمق** ، ليس هكذا تنّظف الحدائق . وسـارع إلى غصن فألـواه حتى لامس الأرض ، ناثراً منه أوراقُه الذهبية المخمليَّـة قائـلاً : على الـطهارة والجـمال أن يعرفـا كيف يختبئانِ تحت ما هو طبيعي ، لا تَصَنُّع فيه » .

ولنا لقاء آخر مع الباطنية في الصين واليابان بعد الإمعان في مُعتقداتها الظاهرة .

موجز لعقائد البوذيين والجينيين .

أسس العقيدة البوذية (غُوتاما بوذا) البوذا بعد مشاهداتهِ لآلام شعوب الهند وتخبُّطها في الضلال والجوع والحرمان . بعد تأملات دامت سنوات ، تبين له أن الـطريقة الـوسطى

في الحيـاة تؤدي إلى النجاة . النجـاة من المرض والشيخـوخة والمـوت . كيف يوقف عجلة تتابع التجسدات والانطفاء .

اعتقد بحقائق اربع : الرغبة تولد الألم وهي تسوق إلى بهارج الحياة . بالسيطرة على أنفسنا نقضي عليها . ولكي نتمكن من هذه السيطرة ، علينـا بالتحـلي بالفضـائل ومكـارم الأخلاق . عندها يصل المرء إلى (النيرڤانا) . حيث فناء الذات .

سخر البوذا من الطبقية التي تمارسها بحرارة البرهمانية .

رفض بناء المعابد وممارسة أي الشعائر والخضوع لأي كاهن . كما رفض الماورائيات كلياً .

للبوذية انجيـل ليس من تأليف المعلم . كله تعـاليم وارشادات انسـانية . وقـد دعا بعضهم البوذا عِرفانياً باطنياً ، وآخرون هزأوا من هذا الادعاء .

إن اللاعنف في رأي البوذا هو اخماد جذوة الأنا ، والـلانشاط . وللعقيـدة مـذهبـان رئيسيـان : الهينَيانـا والمَهايـانا . الأولى انتشرت في سيـلان وجنوب شرقي اسيـا ، والثانيـة انطلقت شمالاً وشرقاً حتى اليابان . كل ذلك بعد وفاة البوذا ، وبعد تطويق المعتقد وتأليـه البوذا وافاضة موجات صاخبة من المزاعم والصفات والاسماء على ذلك العبقري الواقعي : الإنسان .

كان الفاتح أسوكا قد أنعش البوذية الهينيّانية ونشرها حتى المتوسط .

وكان من المدرسـة البوذيـة المتطورة : أميتـابا وسمي : الألـقَ المتنـاهي ، معتقدا أن عـلى طريق النـيرڤانـا بلاداً تعـجُّ طيباتٍ . ثمَّ تلميـذ آخر هـو : آزانكا . اعتَبـر التقمص والاضمحـلال حقيقة واحـدة ، والكون وهْمٌ ولا حقيقـة لشيء خارجَ المعـرفـة . وجـاءت العقيدة الراماكرشنية تعمل على البحث عن الحقائق الازلية الأبدية . وإن الكائن السـماويَّ كاملٌ فينا . ثم بمجيء طاغور مؤخراً ، أحدث تنسيقاً بين العقائد الشرقية والغـربية حـول النفس وعلاقتها بالمطلق .

وظهر مذهب التنتريك ، محاولاً التوفيق بين المدارس البـوذية المختلفـة ، وانقسم إلى

شَكتيَّة وتَنتريَـه . هـذه الأخـيرة تُلمُّ بالسِحـر وبقوى الـطبيعة وبخمسة بوذيـات ذات خمسة الوان . مسكنها في العلى . وفي منتصف القرن السابع للميلاد ، سادت في بلاد (التيبت) عقيدتان شقيقتان : اللامية الحمراء والصفراء . آمن كلاهما بالبـوذا : اميتابـا وتجسداتـه . ولهم هيكل فخم في بكين .

أمـا المـذهب (الجيني) فقـد بعثـه للوجـود ونسقـه البـطل (مهـافيـرا) . ينـادون بالتناسخ على أنواعه ، وبـان النفس عنصر غير مـادي . ويؤمنون بـآلهة متعـالية نـورانية ، وبآلهة للعالم السفلي ، يظهرون مع الريح والبرق ، ولا يعترفون بإله واحد خلاّق .

آلهتهم على صورة البشر ، لكنها فائقة القدرات ، والنفس تحاسب على أعمالها عاجلاً أو آجلاً ، كذلك هي نفوس آلهتهم . .
رائدُهم الجينا البـطل ، يترقّبـون منه بعث النـور والخيرات للهنـد كافـةً ، مقّدمـين للآلهـة القربان من البخور والزهور والمدائح .
(والكَـرْما) عنـدهم هي كائن مـادي يحيط بالـروح . بالتقشف وتكـرار المكـارم ، يتحرَّرون منها .
زعموا لهم أربعة وعشرين قائداً جينيـا ، وتنادوا للعلم المـادي والروحي وأكبُّـوا على التحلّي بالمكرمات العليا . ومن حاز هذه الأمور بلغ اللذة القصوى .

كانت نظراتهم سليمة للمرأة ـ على عكس البوذية الأولى ـ ثم اسرفوا في قهـر النفس وتجنَّبوا قتل أصغـر الحشرات على طـريقهم ، وقدَّسـوا الموت انتحـاراً . ثم اخيراً انقسمت العقيـدة إلى فرقـةٍ عُراةٍ متجـولين ، وإلى أصحـاب اللباس الأبيض . أعـرضوا جميعـاً عن الزراعة ، وأولعوا بالصناعة واتقنوها وتفوقوا وأثْروا منها .

واليوغا هي عملٌ وحقل لعمل، وتَحَمُّلُ مشاق. ليس فيها طقوس دينية. إنها رياضة أكثر منها ثقافة. لا تفكر بغير جسدها وتقويتِهِ وتناسقهِ مع روحه. تقاوم عواملِ الطبيعة وكل هواجس الإنسان ، وهي حرب على الشعوذات . تسعى لجعل الإنسان عاملاً نشيطاً فـرحاً حتى في حـال العسر والعنف . ولا تفرض التبتُّـل ولا التنسُّك . غـايتها تحـرير النفس من ارتباطات الجسد بشهواته ، املاً بخلاص الفرد من تكرار الولادات . ومن غاياتهـا التكفير عما أسلفت من اخطاء .

لم تخلُ الهند من باطنية عـريقةٍ عـايشت مذاهبهـا ، يعتبرونها رمزالحقيقـة العليـا ، وهذا الرمز هو مفتاح يُظهر مضمون الأسرار وينظِّم الحقائق .

القلب لدى الباطنية هو مستقر الألوهة ، والجسد طوع له . لها رموز مختلفة : أرقام وكلمات واشارات وطقوس .

المراجع العامة للديانة البوذية والجنية

أ ـ بالعربية :

١ ـ عريان يوسف ـ فلسفة الكرما ـ جـ (١ (ط) ١) ص (١٦٧) وما بعدها .

٢ ـ محمد عبد السلام (القاهرة) ثقافة الهند ـ ط ١ ص(٣٢ ـ ١٢٩) .

٣ ـ حبيب سعد ـ اديان العالم ط ١ ص (٢٨ ـ ٣٥) .

٤ ـ عيسى سابا بيروت ـ مجمل الكتاب ـ انجيل بوذا ـ سنة (١٩٥٣) .

٥ ـ الدكتور محمد علي الزعبي وعلي زيعور ـ مجمل الكتاب ـ البوذية (بيروت سنة ١٩٦٤) .

٦ ـ الدكتور احمد شلبي ـ مقارنة الاديان ـ ط ٢ ص (١٣٨ ـ ٢٠٣) ـ سنة (٩٦٦) .

٧ ـ المذاهب الكبرى في التاريخ ص (٤٧ ـ ٧٧) ترجمة قرقوط ـ سنة (١٩٧٢) .

٨ ـ تاريخ العالم : ١ ـ هامرتون الجزء الثاني ـ ص (٥٢٨ ـ ٥٣٠) ـ (٥٣٢ ـ ٥٤٩) .

٩ ـ قصة الحضارة ترجمة زكي نجيب محمود ـ ص (١٩٦ ـ ٢٢٨) ـ (٢٥٢ ـ ٢٧٧) ـ سنة (١٩٦٢) .

ب ـ بالاجنبية :

1 - Traduction R. Laffont, Hist. de L'Humanité par Woolley Hawekes: (1969)

tome 3, P: (413 - 432) tome 4: P (143 - 152).

2 - André Bareau, Les Rel. de L'inde paris (1966) ; P: (5 -66) - (83 - 128) (141 - 213) - (216 - 244).

3 - Walter Schubring : (Rel; de L'inde) 1 ere Trad. Le Jainisme, P: (247 - 275).

4 - Henri Arvon le Bouddhisme : (Collect. que sais - je) paris (966) P: (25 - 83) - (94 - 122).

5 - Hist. générale des Religions : Paul Masson Oursel, 4eme Vol. P: (12 - 16) (1960).

6 - Hist de la civilisation, Will Durant (1962) P (312 - 341).

7 - Les grandes Religions du Monde, Ed. Rochedieu (1966) P: (21 - 61) (75 - 91) (115 - 127).

